

ياقوت العرش

رباعية بحري ٢

محمد جبريل

ياقوت العرش

رباعية بحري ٢

تأليف
محمد جبريل



ياقوت العرش

محمد جبريل

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٨ ٣٤٩٠ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر هذا الكتاب عام ١٩٩٨.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٤.

المحتويات

«دعني أخبرك: إن صياد السمك يقاسي أكثر من غيره من أصحاب الحرف الأخرى. إنه يتعرض لخطر التماسيح، وللغرق ... وعندما يلقي بطراحته في الماء، فإن رزقه يصبح معلقًا بيد القدر ... هل ثمة حرفة أخرى أقسى من ذلك؟»

«من مخطوط مصري قديم»

رؤيا

«فالتفت قاضي القضاة للفقير، وقال: يا سيدي لوجه الله. وسار يستعطف بخاطر الفقير ويتذلل له، ويلين له الكلام والشيخ شمس الدين يبكي، ويتملق بين يديه. فقال: تتوب إلى الله تعالى؟ فقال: نعم، ولا أعود لمثلها. فقال له الفقير: إن كان لا بد، فسافر إلى ناحية الإسكندرية، واجتمع بسيدي ياقوت العرش، فإنك إن شاء الله تعالى تلقى الفرج على يديه.»

«فاستيقظ الشيخ شمس الدين ابن اللبان، فقام مسرعًا لباب الخلوة، فوجد سيدي ياقوت العرش واقفًا ببابها يهدد، ويهمهم، وله زئير كالأسد، فقال: يا محمد، أبشر، فقد قضيت حاجتك، فإني سقت عليه جميع الأولياء، فلم يقبل، فسقت عليه سيد الأولين ﷺ، وقد رأيت ذلك بعينك، فسافر الآن من وقتك ومن ساعتك إلى طندتا، وطف حول صندوق سيدي أحمد البدوي، وأقم عنده ثلاثة أيام، فإن حاجتك قد قضيت إن شاء الله تعالى.»

كتب محمد فريد وجدي في «دائرة معارف القرن العشرين»:

«مما يجب أن يسجل في باب الرؤى التي وقعت كفلق الصبح، ما رأته إحدى السيدات ممن لهن ببيتنا صلة.

رأت تلك السيدة في إحدى السنين، كأن الأستاذ ياقوت العرش المدفون بقرب أبي العباس المرسي بالإسكندرية قابلها، فحاولت الاستتار منه ... فقامت خلف باب، فخاطبها بما معناه: إن الله سيعوضها عن صبرها خيرًا، وسيعلي قدرها بين الناس.

ثم قال لها: عدي الشهور، فإذا مضى سبعة عشر، أو سبعة وعشرون يومًا (شك من رائية المنام) ألحق زوجك بوظيفة في الحكومة.

وأعاد عليها قوله: عدي الشهر ...

ثم انصرف.

فلما استيقظت أخبرت طائفة من الناس بما رأت. وكان من تلك الطائفة أهل بيتنا. ثم عدوا أيام الشهر، فما وافى اليوم السابع عشر، حتى ألحق زوجها بإحدى الوظائف.

ولا ننسى أن نقول — عقب هذا — إن زوج هذه السيدة لم يكن موجودًا بوظيفة في يوم معين، بل كان أشبه باليائس من التوظف. وكان من بيده توظيفه، مسافرًا في مشتاه بالقاهرة.

ولا ننسى أيضًا أن نقول بأن تلك السيدة رأت الأستاذ ياقوت العرش بهيئة حبشي نحيف الجسم، وأعطت كثيرًا من أوصافه، فرُئِيت مطابقة لما ورد عن سماته في كتب السير.»

(المجلد الرابع، ص ٩٦١)

تصحيح خطأ

ذكرنا في مادة «رأى» عند الكلام على الرؤيا، ص ٩٦١، أن سيدة رأت الأستاذ ياقوت العرش في النوم يكلمها بكلام، جاء فيه هذه العبارة: «عدي الشهر، فإذا مضى سبعة عشر، أو سبعة وعشرون يومًا، ألحق زوجك بوظيفة في الحكومة.»

بعد أن كتبنا ما كتبناه اتفق أن حضرت السيدة صاحبة المنام، فاستعدناها إياه، فأعادته كما كتبناه، إلا أنها قالت إن الأستاذ ياقوت العرش لم يصرح لها بتوظف زوجها في الحكومة، بل قال لها — بعد أن بشرها بالخير والرزق — عدي من الشهر ١٧ يومًا أو ٢٧، ولم يزد!

(المصدر السابق، المجلد الرابع، ص٩٩٧)

رأت أنسية — فيما يشبه الحلم — سيدي ياقوت العرش.

لم تفاجئها رؤيته. استقر القلب في موضعه، منذ التقى بها سيدي المرسي. فاجأها المكان. مسحته بعينيها. تأكدت أنه هو البيت المهجور: الظلمة الشفيفة، والصالة الواسعة، والكنبة الوحيدة الملتصقة بالجدار، والكراسي القديمة، والإطارات المستعملة، وعرق الخشب الضخم يصل ما بين المنتصف وأعلى النافذة المطلة على الشارع الخلفي.

طقطق باب الحجرة، فهبت مذعورة.

غابت — لشدته — تفصيلات المكان. دخل من الباب المغلق رجل في حوالي الأربعين. أيقنت أنه هو الإمام ياقوت العرش: قامته النحيلة، وسمرته الحلوة، وعيناه الواسعتان، المكحولتان، والسكينة الغالبة على حاله، والسبحة الهائلة الحجم تجري على حباتها أصابعه.

لماذا اختار زيارتها حيث تقيم؟ ... وهل يعرف أنها منعت تردد الرجال عليها؟

همس محمود عباس الخوالقة في أذنها وهي تميل من شارع الحجاري إلى ميدان المساجد: سأزورك في العاشرة ... الليلة.

نقر على الباب في الموعد وهو يتلفت. طال ترقبه، فعلت ضرباته. ظل السكون سادرًا.

غلبه الارتباك حين علا النور في نافذة بالبيت المواجه. ترقبها في زحام شارع الميدان: أين كنت؟

لوت بوزها: لم أعد أذهب إلى البيت.

وهو يلاحقها: أين تقيمين إذن؟

نفضت طرف الملاءة بعصبية: ليس شأنك!

– أنسية!

في صوت برعشه الغضب: كلمة زائدة وأفرج عليك الخلق!

لم تكن أنسية التي عرفها. الخاتم الذي عثر عليه في محطة دمنهور، وسكت عن تنقله بين أصابع الآخرين، يلتقطه كلما ناوشته الرغبة.

أذهله رفضها!

كان قد أمضى يومه في زيارة أخواله بحي أبو الريش. البيت يطل على وابور النور، وعلى المحالج، وتفضي نهاية الطريق أمامه إلى السكة الزراعية. يهمل نداءات حوذية الحناطير. يفضل السير ماشيًا إلى شارع الصاغة، حتى ميدان المحطة.

لاحظ حيرتها وهي تقف على رصيف المحطة.

خمن أنها قدمت بقطار دسوق. انتحى رصيفًا جانبيًّا، واتجه ركابه إلى الباب الخارجي.

تأكدت الحيرة في تنقل خطواتها بين الواقفين على رصيف القطار القادم من القاهرة، والواقفين على رصيف القطار القادم من الإسكندرية. تلقف سؤالها عن المدينة التي يسافر إليها القطار.

قال باندفاعته العفوية: أي قطار تريدين؟

مالت — بالمفاجأة — إلى الوراء. غالبت الارتباك، ومضت ناحية الباب الخارجي.

لحقها صوته: إذا خرجت، فلن يسمحوا لك بالعودة.

أبطأت خطواتها، فأيقن من حيرتها. أخلى وجهه لابتسامة ود: أي قطار تريدين؟

عجزت عن مغالبة دموعها، فبكت. انخرطت في بكاء حاد متواصل. طرف خيط قادها منه إلى بحري. صحبها إلى إسطبل التميمي.

أهمل سؤال أمه في الصباح عن رائحة العليق الملتصقة بجسمه. عاد إلى أنسية قبل الغروب. ترك له شاهين عبد الفتاح، العلَّاف بالموازيني، شقته المطلة على أبو العباس. ثم صحبها إلى أصدقاء عزاب، عرفت التردد عليهم — فيما بعد — وحدها. وعرفت شوارع بحري وحواريه وأزقته. لم يسألها عن البيت المهجور: كيف عرفته؟ ولا من صحبها إليه أول مرة فجعلته بيتًا لها؟ ينتظرها في ناصية سليم البشري، أو في الساحة الواسعة قبالة دكان الحاج محمد صبرة، أو في مدخل السيالة. يحاذيها، ويهمس، بالموعد. يجدها في انتظاره. لا تسأل، ولا تناقش، ولا تعترض ... فماذا جرى؟!

لم يزرها منذ تلك الليلة.

لزمت البيت، لا تغادره إلا لقضاء حاجة. خصص لها سيد مصروفًا تنفق منه. جرت النقود في يده من صدقات المحسنين، فترك الفرن. أقام كشكًا في مطلع الدحديرة الخلفية لأبو العباس، ناحية الموازيني. يبيع أدوات المراكب والصيادين: الحبال والأخشاب والفلين وقطع الحديد وبراميل الزفت والبوص والغزل.

روى لها عن الأيام التالية لمغادرة السلطان ضريحه.

أزال عن وجه الحياة في بحري التصرفات الخاطئة. أشرقت مكاشفته، وتلألأت، واستطاعت التصرف في عتمة العوالم المظلمة. انداحت، فبددتها أضواء حضرة الجلال والعزة. طلب الإمام نقله إلى ديوان وزارة الأوقاف. نسي في صلاة الجمعة، فأعاد قراءة الفاتحة، وأخطأ في آيات من سورة البقرة، فعلت أصوات المصلين بالآيات الصحيحة. تغيرت طبيعة الجلسة في درس المغرب. شهد نصف الدائرة — حول الإمام الجديد — مريدين لم يترددوا على الجامع من قبل. اختفى عبد الرحمن الصاوي. أخبر الأقربين أنه اعتزم قضاء بقية أيامه مع أبنائه في القاهرة. هواؤها الجاف يساعد على شفائه من الربو. اكتفى الحاج قنديل بجلسته في الحلقة منذ الصباح إلى العصر. يتردد — دقائق — على قهوة الزردوني، أو مطعم النبلاء، ثم ينصرف إلى بيته في السيالة، لا يغادره إلى اليوم التالي. تصور أبناؤه — في البداية — أنه مريض. ألحُّوا عليه في الخروج والنزهة وشم الهواء، والتردد على مجلس محمد صبرة ودرس المغرب. اصطدم الإلحاح برفض صامت، وإقبال على الصلاة، ربما في غير المواقيت الخمسة. تباطأ إلحاحهم وذوى، فألفوا بقاءه في

البيت، لا يغادره إلا لضرورة عمل، أو لصلاة الجمعة. لم يعد يحرص على أدائها في أبو العباس. يضع التلفيعة على كتفَيه، ويعبر الطريق إلى مسجد سيدي نصر الدين، المقابل. يؤدي الصلاة، ويعود. يكتفي بالرد على السلام والتحية، حتى دعوات التميمي بأن يجالسه أمام الإسطبل، يرد عليها بتمتمات مجاملة، مدغمة. وضع حمادة بك همه في الاستعداد للانتخابات. زاد من معارفه بعيدًا عن السيالة، ليعينوه في حملته. تزايدت أعداد الوافدين إلى الجامع. ضاقت بهم ساحته، فاقتعدوا المدرجات، والساحة المقابلة، واستندوا إلى الجدران والنخيل وأعمدة النور، يلتمسون البرء والنصفة والمدد.

اختنقت الكلمات في حلقها: سيدي ... أنا لم ...

قاطعها في لهجة مشفقة: أعرف.

وأحاطها بعينيه: متى تذهبين إلى بيتك؟

استطرد موضحًا: بيتك أنت وسيد.

خالطت الحيرة صوتها: كل منا في حاله حتى نجد غرفة تئوينا.

قال الإمام: ما يدفعه سيد في قهوة كشك يكفي إيجار شقته.

أحنت رأسها: أصحاب البيوت يرفضون.

رنا إليها بنظرة متأملة: أعرف.

ثم ومضت عيناه بالتذكر: اذهبي في الغد إلى التاجر كمال مصباح. سأزوره الليلة، وأوصيه بك.

أخذ عليها القسم بألَّا تروي ما دار بينهما إلا لسيد. قال: أخاف أن يطالبك الناس بتأكيد ما تقولين. عندي من الضعف والمشغوليات ما يبعدني عن السير في طريق الوهم.

وقال وهو يذوب في الفراغ المحيط: قال سيدنا رسول الله: لست بملك! ... والشكوى لغير الله طريق السائرين وراء راية إبليس!

الدكان في شارع الميدان. يبيع المانيفاتورة: أقمشة الكربشيت والبفتة والدمور والشيلان والكشمير والبوبلين والبراقع والملس والكريشة الحرير.

هتف الرجل كأنه ينتظرها: هل أنت؟

في حوالي الخمسين. له حاجبان كثيفان، يعطيان إحساسًا بالقسوة، وإن ناقضتهما الشفتان والملامح الرقيقة لبقية الوجه. يرتدي «بنش» تكشف فتحة صدره عن جلباب من الصوف، ويلف حول عنقه كوفية بنية بشراشيب، ويضع على رأسه طربوشًا أماله ناحية اليسار، وأمسك بيده مسبحة من الكهرمان.

روى لها عن استقباله سيدي ياقوت العرش في نومه، عقب زيارة العرش لها.
قال: هل تعرفين شارع البلقطرية؟
وهي تضم أطراف ملاءتها: نعم.
مد يده في درج المكتب: لي بيت هناك ... تخلو شقة بطابقه الأرضي ... هي لك ولزوجك.
أخرج من الدرج جنيهات، دفعها إليها.
تراجعت: تكفي الشقة.
قال: الشقة خالية، وتحتاج إلى تأثيث.
أضاف يستحثها على القبول: هذا أمر سيدي ياقوت العرش!

قال سيد: ألا يوجد غير هذه الشقة؟
وهي تعبر بأصابعها: إنها غرفتان وصالة.
قال: أخاف الشارع ولا أرفض الشقة!
همست متسائلة: المخدرات؟!
وأشاحت بيدها مهونة: ما دمنا في حالنا، فلا شأن لنا بما يتاجر فيه أهل الشارع.
وهو يتلاعب بقطعة حبل في يده: هل نسيتِ أن فؤاد أبو شنب يسكن البلقطرية؟!

أفق الغيوم

قال قاسم الغرياني وهو ينفخ: حررررر!

ثم وهو يجفف بالمنديل المحلاوي حبات العرق النابتة في جبهته ووجنتيه ورقبته ومعصميه: عرفت الآن فقط ... لماذا اختار الله النار وسيلة للتعذيب في الآخرة!

أسفلت الطريق ينفث صهدًا، والرياح الساخنة تكنس الشوارع، تثير دوامات الهواء، صغيرة، سريعة، متلاحقة، ترتفع إلى أعلى في عمود متماوج. تكسو البنايات ومدى الرؤية بغلالة رمادية، تلسع الوجوه بكرابيج ملتهبة، وتقتحم الأفواه بالتراب، والرطوبة المشبعة بالملح ثقيلة وخانقة. حتى الظلال استكانت، لا تتحرك، على الأرض والجدران.

قال محيي قبطان: أين كنت؟

وهو يحرك المنديل أمام وجهه التماسًا للهواء: في قسم الجمرك.

بحلقت عيناه: لماذا؟

هل افتضح أمره؟

إخفاء دخوله القسم سيدينه بالكذب. رآه حمودة هلول والعسكري يصحبه إلى داخل القسم، ويداه مكبلتان. استوقفه مخبر، وهو يضع على كتفه فخذة لحم. زاد شكه حين جرى لرؤيته.

قال قاسم الغرياني بصوت متراخٍ: خطفت فخذة لحم من عربة جيب إنجليزية.

وهو ينخسه في بطنه بمودة: ماذا فعلوا معك؟

في نبرة مستهينة: ثالث يوم، أفرج عني ضابط المباحث.

نقر على الترابيزة بأصبعه: تستاهل!

عض الغرياني بأسنانه طرف شاربه: إنهم يسرقون البلد ... فماذا لو سرقنا طعامهم؟

قال محيي قبطان: وماذا تسرق بعد خروج الإنجليز؟

وعاود نخسه في بطنه.

أيام ويتركون الإسكندرية تمامًا.

هتف حمودة هلول: المعلم ناجي أبو لبن وصل.

قامة طويلة، أقرب إلى الامتلاء، وإن بدا جسمه غير متناسق. يعالج شعره المجعد بدهانات يعدها له محمد صبرة، يأتي بها صابر الشبلنجي من سوق الدقاقين. أنفه الضخم لا يتسق مع نحافة وجهه. عيناه تشبهان عيني سمكة ميتة، فلا بريق، واللون باهت. وثمة سواد أسفل العينين، وانتفاخ في الحاجبين. وكست الشعيرات البيضاء فوديه. يرتدي جلابية من الكتان الأبيض المزهر، ويحرص على عوجة الطربوش، وأن يكون الزر بالجنب، ويدس قدميه في مداس مغربي.

قال المعلم التميمي: اسمي ناجي التميمي.

قال حمودة هلول: أبو لبن هو لقب كل العربجية.

قال التميمي: العربجي أبوك!

لمح الحاج أحمد الزردوني حركة يد التميمي من جيبه إلى الترابيزة. صاح: إلا هذا.

أردف في صباحه: لا تشرب الزفت في قهوتي.

قال التميمي في بلادته الهادئة: ماذا جرى لك يا زردوني؟

قال الزردوني: مستحيل أن تشرب الخمر تحت أعين الأولياء.

قال التميمي: هذه قهوة وليست مسجدًا.

أشار الزردوني بامتداد ذراعه إلى الطريق: تفضل يا معلم تميمي!

قال التميمي في نبرة ملاينة: أنا أتعاطى الحشيش أو الأفيون ... لكنني لا أتعاطى المحرمات.

استعاد الزردوني الكلمة: المحرمات؟!

قال التميمي:

– القرآن حرم الخمر ... وأنا لا أتعاطاها.

ثم وهو يومئ إلى الزجاجة: هذه راوند ... أشربها لصدري.

ولجأ إلى يديه معبرًا: أنا أؤدي فرائض الشرع، فلا أزيد عليها ... ولا أحرم نفسي من الذات المباحة.

قال الجد السخاوي: من يفتش في مخك ... لن يجد إلا المسخرة!

تلفت التميمي حوله في تعاظم: عانت نساء كوم بكير من هجرة أهل المدينة في أعوام الحرب ... أنا أحاول تعويضهن!

لم يعرف عنه أنه يؤدي الفرائض، فهو لا يتردد على المساجد ولا يشارك في حلقات الذكر أمام أبو العباس والبوصيري، ولا يزاحم في الموالد، ولا انتوى أداء الحج، يقينه — طالما أعلنه — أن كل شيء مكتوب في القدر. ما هو مكتوب في القدر لا بد أن يحدث، فلا ملامة فيما يصدر عن الإنسان، والأمور تستوي في الطاعة والمعصية، ما دام الله يستغني عن أعمالنا، ولا يتأثر بها.

عرف عنه صداقته لتجار الصنف في البلقطرية. وقال صابر الشبلنجي إنه يشاهده كل صباح يضع على لسانه فصًّا أسود.

كثر تردده على كوم بكير.

كوَّن صداقات وعلاقات. ألف الوجوه، والأجساد، والبارات، والغرز، والفوانيس المتدلية على الأبواب، والستائر المنفرجة، والمسدلة، والكراسي المرصوصة أمام الجدران، والملابس الشفافة، والدعوات الصريحة، والهامسة، والنظرات المحدقة، والمتأملة، والمشجعة، والتأود، والغنج، والضحكات، وأي خدمة، وتفضل، ومساء النجف، والبحارة الأجانب، والصعايدة، والبلطجية، والفتوات، والقوادين، وزجاجات الخمر الفارغة تتعثر بها قدمه، والألوان الفاقعة.

أخذ بأصبعيه من علبة الدخان، ولف سيجارة بورق البفرة، ثم لصقها بلعابه. وضعها بين شفتيه، وأشعل طرفها بالكبريت.

غمز بعينه لمحيي قبطان: لم تأتِ عصر أمس.

قال محيي قبطان وهو يدعك ذرات التراب داخل عينه: رحت قهوة النجعاوي لشرب فنجان قهوة تركي.

قال التميمي: الغرياني أكد أنه رآك في كوم بكير.

برقت عيناه بالغضب: شاهدني وأنا أتمشى مع أمه!

قال الغرياني: لم أدعِ أنه ذهب إلى كوم بكير ... سيمنعه البوليس لصغر سنه!

قال محيي قبطان: أنا أكبر منك بثلاث سنوات.

قال الغرياني: الرجولة ليست بالسن!

وأطلق ضحكة من أنفه: ما زلت بكرًا يا محيي!

قال محيي قبطان: تركت لك الصياعة!

قطب الغرياني جبينه: عليَّ الطلاق ...

قاطعه الجد السخاوي: من عوَّد لسانه بالطلاق حُرِّمت عليه زوجته.

وهو يهز كتفيه: أنا أعزب.

قال الجد السخاوي: لا تحلف بالطلاق وأنت أعزب، حتى لا تطلق منك حوريات الجنة.

اتجه الغرياني إلى محيي قبطان بنظرة متسائلة: ما الذي أتى بك إلى بحري؟ ... كل أقاربك يسكنون كفر عشري.

قدم محيي قبطان إلى الإسكندرية منذ عشرين عامًا. ظل حريصًا على لهجته الصعيدية، لم يبدلها. يعيبون عليه تحول الألف إلى جيم. يعيب عليهم الخنوثة المغلفة بزعيق. إذا تكلم ارتعش صوته من الانفعال. اشتغل ببيع البضائع المسروقة من الجمرك: ملابس وأطعمة ولعب. يقف بها على ناصية التقاء ميدان المنشية بشارع الميدان. ثم اختار موضعًا على الرصيف، أول الطريق إلى الدحديرة الخلفية لجامع أبو العباس. يبيع كتب الدعاء وقضاء الحاجات وأوراد الصوفية وقصائد الابتهالات وشرح آيات القرآن. دخل في صداقة مع قاسم الغرياني. تحايل على عباس الخوالقة فأذن له بركوب البحر. له عود ممتلئ فاره، وعينان مدورتان، حادتا النظر. ولم يكن يطيل ذقنه أو يحلقها، فتبدو متناثرة الشعر، يختلط فيها السواد بالبياض. ومرسوم في أعلى صدغه رسم عصفور أخضر. عرف عنه إجادة صيد السمك بيده. يدفع أصابعه — مفتوحة — في الماء. يعيدها مضمومة. يقذف السمكة في الغلق. وكان يؤدي — متطوعًا — دور المبلِّغ في جامع أبو العباس.

قال بيومي جلال: كل اللي ييجي من الصعيد مليح.

ثم وهو يحرك الهواء الساخن بيده: إلَّا الريح!

قال محمد كسبة: هل تتصور أن مجرد مشاركتك في سحب الجرافة جعل منك صيادًا؟!

مسح بيومي جلال جبهته بظهر يده: ماذا تعرف عني لأتعلمه؟

قال محمد كسبة: عد إلى طفولتك، وابدأ من البداية!

حين دله صابر الشبلنجي على صيد الجرافة، لم يكن في باله البحر ولا الصيد. همه التقاط رزق تغيب ملامحه. وزع وقته بين البلانس وقهوة كشك. حتى حمام الأنفوشي لم يعد يتردد عليه. يكتفي بالاستحمام في مياه البحر، وغسل ثيابه فيها. ينتظرها حتى تجف، ثم يعاود ارتداءها. وربما قضى الليل داخل أحد القوارب المتناثرة على الرمال، داخل ورش المراكب.

قال الجد السخاوي: نحن لا نربي أولادنا ... إنهم تربية نساء.

أردف لنظرة اللوم في عيني محيي قبطان: نغيب في البحر بالأيام والأسابيع ... فإذا عدنا، ندخل بيوتنا آخر الليل ... فمتى نرى الأولاد؟!

قال محيي قبطان: حتى لو ربى النساء أولادنا ... فإن نساءنا رجال!

قال حمودة هلول: أصارحكم أني أحب المرأة الرجل.

بحلقت عينا الغرياني في دهشة: كيف تكون امرأة ورجلًا؟

– لا أحب الناعمة الخاضعة ... أحب التي تشبه الرجل في تصرفاتها وكلامها.

لون الغرياني صوته: الجد السخاوي يحب الرجل المرأة!

فوَّت حمودة هلول الملاحظة: قاسم يرقص دائمًا في مركب الجد السخاوي.

كتم عبد الوهاب مرزوق ضحكته: عقابك من الله أن يذهب بلسانك مثل السمك!

قال الجد السخاوي: أنا الذي علمته ركوب البحر ... فماذا تقول في قلة الأصل؟!

أطلق الغرياني ضحكة معابثة: تعلمتها منك يا جدي!

قال محمد كسبة: الجد السخاوي والغرياني يختلفان في كل شيء ... ويتفقان في حب البحر.

قال حمودة هلول: إنهما الزناتي وأبو زيد ... كل منهما عظيم في ذاته، لكنهما أصبحا عدوين!

علا صوت الغرياني: أنا أرفض تصرفات الجد السخاوي، لكنه مثل أبي!

قال محيي قبطان: أشعر بأكلان في أنفي.

قال حمودة هلول: معناه أن شخصًا يلعنك ... أو أنك ستتشاجر مع أحد.

قال محيي وهو يدفع مجهولًا بيديه: كفى الله الشر ... أنا في حالي.

قال حمودة هلول: الناس ليسوا في حالهم!

ثم علا صوت حمودة وهو يتطلع إلى القادم: سأضيف إلى اسمك صفة البطل الصغير.

التقت الأعين على مصطفى عباس الخوالقة.

كان يخطو إلى الرابعة عشرة وإن بدا — لطول قامته وشاربه المنسدل على شفتيه — أكبر من عمره. دفعه أبوه إلى الحلقة منذ طفولته. تعلَّم المهنة. عرف أنواع السمك، وخالط الصيادين، وركب البحر وفاصل، وساوم، وباع، واشترى، وجلس على القهاوي، وشارك في الأذكار. كان عباس الخوالقة يعد ولديه ليرثا مهنته، فلم ينشغل برسوب مصطفى المتكرر في البوصيري الأولية.

اختار الكرسي المجاور للباب، تحيط بوجهه ضمادة من الشاش، وثمة تورم بدل ملامحه.

انشغل الرجال — في الأيام الأخيرة — بما جرى لمصطفى. ضربه العساكر في مظاهرة بشارع إسماعيل صبري. تدفق المتظاهرون من الشوارع الجانبية، أفندية وطلبة وعمال وبجلابيب. قدموا من ناحية البحر ومن شارع التتويج، ومن الموازيني والحجاري. ملئوا الميدان الفسيح بالزحام والقبضات والهتافات. تناثر فوق الرءوس شبان يصرخون بهتافات، والمتظاهرون يرددون وراءهم: تسقط معاهدة ٣٦ ... الاستقلال التام أو الموت الزؤام ... الجلاء بالدماء ... لا مفاوضة ولا معاهدة.

أغلقت الدكاكين أبوابها، وحمل خادم سيدي علي تمراز القُلل الموضوعة على الجدار إلى الداخل.

لمح المتظاهرون كومات الزلط في «المجيرة». تدافعوا إليها. ملئوا جيوبهم وسيالاتهم وأكفهم. تطايرت قطع الحجارة في الجو. تراجع العساكر إلى الوراء. لاذوا بداخل البيوت والدكاكين، وشارع حسن باشا عاصم.

قدم عساكر من ناحية البحر، يمسكون العصي السوداء، والدروع الحديدية، وتغطت رءوسهم بخوذات من الحديد. وقفوا في نهاية الشارع، وفي مفارق الطرق.

التمعت خوذات الجنود في أشعة الشمس، وعلا دبيب أحذيتهم الثقيلة، والصيحة الواحدة، المتكررة، الرتيبة.

امتلأت المساحة الفاصلة بين المتظاهرين والعساكر، بالحجارة والكراسات والدروع والهراوات والسيور الجلدية وبقع الدم. لم يعد إلا أصوات الضربات في الأجسام، والتأوهات، والصراخ، ووقع أحذية البيادة.

جرى المتظاهرون في غير اتجاه.

صرخ مصطفى لرؤية شاب نط من ضربة عصا في ساقه. ظل يواصل التنطيط والصياح، ثم لحقه العسكري بضربة أخرى في جنبه، فأطلق آهة طويلة، ممتدة، وسقط ساكنًا.

جذب عسكري بنتًا من لمة شعرها المعقوص. ثنى رأسها إلى الوراء. طوحه بآلية سريعة، متلاحقة. تقلصت ملامح الفتاة. جرها العسكري على الأرض. تمزقت الجونلة في احتكاكها بالأسفلت الساخن، وانفرجت الساقان في تخاذل.

حاولت البنت أن تنهض، لكن الجندي عاجلها بضربة من حذائه في صدرها. أطلقت صرخة كالحشرجة، وغابت عن الوعي.

ألقى ضابط قنبلة بآخر ما عنده. جرَّت وراءها خيطًا من الدخان الأبيض. تلقفها شاب يرتدي قميصًا وبنطلونًا، أول المظاهرة. أعادها ناحية الضابط وخيط الدخان وراءها. تحولت — من بعيد — غمامة بيضاء، اخفت الجنود القادمين.

اختلطت الصيحات والهتافات بضربات الهراوات ولسعات القوايش وطرطشات الدم والأجساد المتهاوية.

تراجع المتظاهرون بظهورهم، وهم يواصلون إلقاء الحجارة، وطوابير العساكر تتقدم. تتسع المساحة بينهم وبين الذين امتصتهم الشوارع الجانبية، وتضيق بينهم وبين من تباطئوا في الانسحاب، يواصلون الهتافات وإلقاء الحجارة. حاول أن ينفذ بينهم. اصطدم بأجسام وصراخ وزعيق وهتافات، كأنهم التصقوا بالأرض. وقفوا في نقطة الصفر.

فوجئ بالسحنة المربدة فوقه تمامًا. لا يدري إن كان قد ظل واقفًا أم تعثر ... لكن الشرر الغريب، في العينين الناريتين، لحقه ارتفاع العصا وهبوطها.

هل أتت الضربة على رأسه، أو على كتفه، أو في وجهه؟

لا يذكر إلا الألم، والدوار، وأن جسمه تخاذل، يريد القعود أو النوم تماوجت المرئيات، تراقصت، تداخلت بالألم القاسي. انتزع من داخله آهة طويلة.

صحا على أبيه وأخيه والرجال في مستشفى رأس التين. توسط حمادة بك، فأعفي — لصغر سنه — من التحقيق، ونُقل إلى البيت.

حدج الجد السخاوي حمودة هلول بنظرة متصعبة وهو يسند كرسيه إلى جدار القهوة: البطل الصغير أكل علقة!

قال قاسم الغرياني: هل كان يعارك البوليس؟!

قال الجد السخاوي: عباس الخوالقة ضرب السكران، فقطع رجله عن بحري.

مال مصطفى على حمودة هلول: مَن السكران؟

– فتوة قديم.

قال محيي قبطان: يكفي أن مصطفى تظاهر ضد الحكومة!

همس محمد كسبة في أذن الجد السخاوي: الولد مصطفى تغيَّر صوته وسحنته.

قال الجد السخاوي: حتى الأسماك يتغير لونها عند البلوغ ... الفارق أن الأسماك تعود إلى لونها بعد أن تضع الأنثى بيضها، ويتولى الذكر التلقيح والإخصاب!

قدم علي الراكشي من ناحية شارع فهمي الناضوري.

هش على ولد بعصاه. خطفها منه الولد، وجرى. جرى الراكشي وراءه بآخر ما عنده. اصطدم في جريه بعربة يد، فسقط من طوله.

التخريج

أغلقت أم محمود باب السطح من الداخل. محمود يناولها ما تحتاجه. ترد على أسئلته بضربات — على الترابيزة — ذات إيقاع. تفسد الرقية إذا تكلمت. تنبهت في انشغالها على صفارة باخرة من الميناء الغربية. مسحت بنظرة شاردة امتدادات الأفق في حدوة الحصان من المياه التي شكَّلها البحر في الميناء الشرقية والميناء الغربية وشاطئ الأنفوشي.

كانت أشعة الأصيل تعلو الجدران. الدقائق التي تسبق الغروب، ونسائم خفيفة تهب من ناحية البحر، وأغنية لأم كلثوم تتناهى من نافذة قريبة:

غلبت أصالح في روحي عشان ما ترضى عليه

استيقظت مهجة — ذات صباح — على نداء أمها. فركت عينيها، وتثاءبت، وفردت نفسها — للحظات — ثم سقطت من طولها.

تلا صرخة الأم، وقوف الأب والأخوين فوق رأسها.

نصحتها الكودية نظلة — لكي يعود اللحم إلى جسمها، وتقف على قدميها — أن تسفَّ خنافس مهروسة، وتضوع البيت بالبخور. البخور غذاء الأرواح الساكنة داخل الشقوق وبين الأثاث. نصح الحاج محمد صبرة بأعشاب. صحبها عباس الخوالقة إلى الطبيب الأرمني، فوق قهوة المهدي اللبان. سألها إن كانت تشكو شيئًا. أطرقت، وهزت رأسها. فحص الضغط والنبض وضربات القلب وحدقتي العينين. وحدَّق في الفم المفتوح.

قال وهو يرفع النظارة الطبية إلى جبهته: صحتها جيدة!

دعا إمام أبو العباس الجديد، في جلسة المغرب، وأمَّن الرجال. ختمت الأم على رأسها القرآن أربع مرات، طافت على أضرحة أولياء الحي. توسلت، وطلبت المدد، ووعدت بالنذور. ظلت البنت في النازل. سلمت نفسها لشرود، ولا بادرة شفاء بأعشاب أو أدوية.

لم تكن أعدت نفسها للزواج من هشام كشك. ولم تكن أعدت نفسها للزواج أصلًا. تذهب إلى المدرسة، وتعود، وتساعد أمها في البيت، وتذاكر، وتنام، وتزور خالتها في رأس التين، وأعمامها في بيت العائلة بشارع الجمرك القديم.

خمن الخوالقة — لما وافقت على الزواج — أنها تعرف الشاب.

– هل تأذنين للبنت بالخروج وحدها؟

قالت أم محمود: أبدًا ... حتى المدرسة، يوصلها أخوها ويعود بها.

وهو يرمقها بنظرة متشككة: فكيف تعرَّفت إلى ابن المعلم كشك؟

خبطت على صدرها: من قال إنها تعرفه؟!

– لم تناقش قراري بتزويجها من هشام.

بحلقت عيناها: وهل عوَّدتك البنت على مناقشة أوامرك؟!

وافقت مهجة على الزواج لمعرفتها أن مصيرها إليه. كانت في الخامسة عشرة، لكن طولها وامتلاء جسمها الموروثين عن أم طويلة وأب ممتلئ، أضافا إلى عمرها. علَّمتها أمها مسئولية البيت، فهي تجيد الطبخ والخياطة والتنظيف، وتعرف كيف تشتري لوازم بيتها. عندما عرفت اسم العريس، تذكرته: الجيرة، وصداقة الطفولة، والتسلي بمشاهدة صيد الجرافة، والطراحة، في الميناء الشرقية، وحضور موالد الأولياء، وأسواق العيد. زمان، ثم لزمت البيت. تذهب إلى المدرسة، وتعود برفقة شقيقها مصطفى. إذا أرادت التغيير، فبزيارة أقاربها، تصحبها أمها، أو مصطفى.

بعد أن قرأت الأسرتان الفاتحة، وألبسها هشام الدبلة، أجلستهما الأم على الكنبة أمامها. تمتمت بأدعية، ثم علا صوتها: باب يا باب ... يا جامع الأحباب ... إن طلع شفقة ... وإن دخل نفقة ... نجم هشام ومهجة تجمعهم في السما.

أشارت لهما، فانصرفا.

أحست مهجة أنها أصبحت له، وأنه أصبح لها. تصحو على صورته، وتنام عليها. تسرح، تتأمل، تبتسم لتذكر كلماته وتصرفاته. حتى التفصيلات الصغيرة، والتعبيرات العفوية. حتى الومضات السريعة تلتقطها، تستعيدها من الذاكرة في أوقات الخلو إلى النفس، تنتبه إذا جاءت سيرته، تدافع عندما تبدي أمها ملاحظة عنه، تنتظر قدومه في المواسم، تحدق في مرآة غرفتها، تحاول رؤية نفسها بعينيه. ربما امتد بها الخيال، فتصورت نفسها في شقة — مغلقة — معه، لا تنتقل من بيت أبيها إلى شقة إنسان سواه. هو الصورة الوحيدة للزوج. يوجه كلامه إلى أبيها أو أمها أو أخويها. تعد ما قاله موجهًا إليها، تقلبه، تستكنه معانيه. تُجري حوارًا. تبتسم — بينها وبين نفسها — وتحزن، وتغضب،

وتضحك. تقرأ حبه في نظراته المتأملة، لا تلبث أن تتجه إلى بعيد، وارتعاشة شفتيه وهو يتكلم، وارتجافة يده عندما يتناول فنجان الشاي، وغلبة ارتباكه حين تخلو الحجرة — مصادفة — إلا منهما.

فرد ذراعيه بامتدادهما: أمامنا لوكاندة بحالها لا مجرد شقة.

تظاهرت بالتصديق: هل نسكن في لوكاندة أبيك؟

استدرك في نبرة جادة: وعدني بالدور الثاني فوق اللوكاندة ... بابه على الشارع الجانبي.

عندما قال لها: أحبك، لم تكن تفهم معنى الكلمة تمامًا. ثم بدأت الحمرة تصبغ أذنيها حين تأتي السيرة أمامها. حتى الأغنيات في الراديو، أعادت تأملها في ضوء المعنى الذي لا بد أنه يقصده. جاشت عواطفه — لحظة — فحاول تقبيلها. صدته بأصابع مترفقة، وأدارت وجهها إلى الناحية الأخرى.

هل رضع الولد والبنت من ثدي واحد، أو أن ما حدث وشاية كاذبة؟

أسلم عباس الخوالقة نفسه للغضب، لما همس عبد الوهاب مرزوق في أذنه بأن أخوة مهجة وهشام في الرضاعة شائعة سربتها أسرة الشاب. رفضت أن يتزوج ابنها ابنة صياد، حتى لو كان شيخًا للصيادين.

– لو أن الولد أراد العمل صبيًّا عندي ... ما قبلت!

قالت أم محمود مهونة: كلام الناس كثير.

وهو يهز رأسه بعصبية: لا دخان بلا نار!

قالت في استكانة: ربما رضع الولد والبنت من ثدي واحد بالفعل.

كانت أم محمود تتوقع أن يطلب يد ابنتها لابنه، شيخ صيادين. ربما الحاج قنديل. سمعت عن أبنائه الذين وُظِّفوا في مناصب مهمة. توقعت — للعشرة بين زوجها والحاج قنديل — أن يعلن الحاج ما يناوش بالها، لكنه لم يحاول المصارحة أو التلميح، وإلَّا أخبرها زوجها، أو طلب رأيها، أو تردد في الموافقة على هشام كشك.

لم يعد عباس الخوالقة يذهب إلى الحلقة. تقصى، وسأل، وناقش وأسلم أذنه للأفواه الهامسة.

زار الشيخ طه مسعود في ديوان وزارة الأوقاف. أسرَّ إليه بما اعتزمته أم محمود.

أخلى الإمام وجهه للغضب.

قال الخوالقة: ومن شر حاسد إذا حسد.

قال الإمام: ما حدث لا صلة له بالحسد.

في لهجة متوسلة: البنت مريضة جدًّا.

دون أن يترك هدوءه: هذا شأن آخر.

في لهجته المتوسلة: الحسد حق ... جاء ذكره في القرآن.

ورنا إليه بنظرة مستغيثة: العين تفلق الحجر.

ذهب انفعال الإمام، فنزل بحري، وصلى الظهر في جامع سيدي ياقوت العرش.

– حدثتني عن واقعة.

ثم وهو يمسح ذقنه بأصابع متوترة: ما دليلك على صحتها؟

قال جابر برغوت: يا مولانا ... تلك حكاية من عمر الولد والبنت.

قال الإمام: لكنهما يتأثران الآن منها.

وهتف في الرجل بلهجة زاعقة: من أين أتيت بحكايتك الملعونة؟

لم يتصور أنه يرفع صوته في جابر برغوت. هو خادم ياقوت العرش. لم يحصل على شهادة، لكنه قرأ، وتعلم، وجلس إلى علماء، فصار لآرائه وجاهة. يلجأ إليه زوار العرش ومريدوه، يطلبون النصح، والمشورة، والمساعدة على قضاء الحاجات. وقيل إنه أفاد الكثيرين من علوم السحر.

قال جابر برغوت وهو يغالب ارتباكه: صدقني يا مولانا ... أرضعت زوجتي الولد والبنت في سنة ولادتهما ... ورفع يديه كمن يتقي خطرًا مجهولًا: والمرسي هذا ما حدث!

حدج الإمام عباس الخوالقة بنظرة مستريبة: هل تزمع إتمام زواج البنت من أخيها؟!

قال الخوالقة: ذلك موضوع انتهى ... البنت تموت.

قال الإمام في نفاد صبر: قلت رأيي ... ولن أزيد.

ذاع أن الإمام جعل ما حدث، من بين الأسباب التي حددها — في ذهنه — لطلب النقل إلى ديوان وزارة الأوقاف.

حذَّر الطبيب الأرمني من أن البنت قد تغادر صمتها الحزين، فتحاول أن تؤذي نفسها: تشعل النار في جسمها، تقفز من البلكونة أو السطح، تشرب مبيدًا حشريًّا أو سمًّا، تقطع شريانًا، ترمي نفسها في المالح.

تحاملت مهجة على نفسها.

صعدت إلى السطح، صامتة لا تتكلم، ولا تلتفت وراءها. تحمل طبقًا من السكر الأحمر المذاب في الماء.

قلبت ما في الطبق على أرضية السطح، لا تبسمل، ولا تهمس بأي كلام. تركت الطبق، ونزلت، صامتة لا تتكلم، ولا تلتفت وراءها. توقعت الأم أن الأسياد يشربون الماء، فيرضون عن البنت، ويرفعون عنها أذاهم.

أصرت، فبدَّل عباس الخوالقة بلاط البسطة، أمام باب الشقة. ربما السبب عمل يرقد تحت بلاطات البسطة. نصحت الكودية نظلة بزار. ما تعانيه مهجة ليس مرضًا تعالجه الأدوية أو الأعشاب. هذه أفعال الأسياد، فلن يبتعدوا إلا بزار.

ثار عباس الخوالقة على الفكرة: الكودية والدفوف والشياطين والبخور والصرخات المجنونة والأرواح الشريرة.

تحايلت أم محمود على رفض الإمام. استعادت رقية الكودية حتى حفظتها. أوصت المرأة — بدلًا من الزار — بالتخريج، رقية تخرج العين الحاسدة من جسم الفتاة. صارحت أم محمود أكبر أبنائها بما انتوت. أغلقت عليها، وعلى مهجة، باب السطح. حذرت «محمود»، فلا يفجؤهم قدوم الأب.

بدأت بإحراق ما التقطته يدا محمود من النفايات المتكومة أمام البيتين الملاصقين، والبيوت المواجهة. اشترى من سوق الدقاقين، قطع الشبة وقصاصات الورق والملح والفكوك والبخور.

أغمضت عينيها تتذكر بقية الخطوات.

رفعت كتفي مهجة من صدرها. دلكت جبهتها بالشبة والفاسوخ سبع مرات. قصت الأوراق على هيئة عروسة. وخزتها بإبرة في العينين والرأس والجسد، طردًا لأعين الحساد. تلفتت — في حيرة — إلى باب السطح المغلق، ومنشر الغسيل الخالي، وصاري البلانس البعيد، في غيابه داخل الأفق.

غالبت التردد. ثم نطقت الكلمات ببطء، فلا تنسى ما حفظته من الكودية. تذكر الأسماء في المواضع التي حددتها. تضع همها في تسلسل الكلمات والأسماء، حتى لا تفسد الرقية.

الأولة باسم الله.
والثانية باسم الله.
والثالثة باسم الله.
والرابعة باسم الله.
والخامسة باسم الله.

والسادسة باسم الله.
والسابعة لاحول ولا قوة إلا بالله.
رقيتك واسترقيتك.
من عيني وعين أمك وأبوك.
وعين الناس اللي حسدوك.
رقيتك واسترقيتك.
زي ما رقى محمد ناقته.
حط لها العليق ما داقته.
كانت عسير ... صبحت تسير.

تنهدت أم محمود. مدت أصابعها في طبق الملح. نثرته فوق رأس مهجة، ومن حولها. أغمضت عينيها، تتذكر كلمات الرقية التي توقفت عندها.

بسم الله الرحمن الرحيم. ألف بسم الله الرحمن الرحيم. باسم الله توكلت على الله، واعتصمت بالله، وسلمت أمري إلى الله.

بسم الله الرحمن الرحيم ... يا هادي كل هدية ... يا مانع كل رزية ... يمنع عنك النظرة القوية ... بقدرة الله العلية.

بسم الله الرحمن الرحيم. رب المشارق، ورب المغارب. ما يغلب الله غالب. رقيتك من كل عين شهلة، من كل عين زرقة. الله عليها، وعلى والديها، يجعل مصارينها بنات رجليها، اللي شافوك ونظروك ولا صلوش على النبي الحبيب.

بسم الله الرحمن الرحيم. الأولة باسم الله، والثانية باسم الله، والثالثة باسم الله، والرابعة باسم الله، والخامسة باسم الله، والسادسة باسم الله، باسم الله تقلع عين خلق الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

عين الضيف أحد من السيف. عين الراجل أحد من المناجل. لقاها سيدي السيد سليمان في البرية، تنبح نبح الكلاب. قال لها رايحة فين يا عيني يا عنيه، يا خاينة يا ردية؟ ... قالت رايحة لي حبا، واللي دبا، واللي لا أعرف له أمًّا ولا أبا. قال لها: أخص ما خصيتي، م النار ما نجيتي، لاوديكي بحر لا ينغاص ولا ينداس، واحدف عليكي بالزيبق والرصاص. قالت: خد عليَّه عهد الله سيدي السيد سليمان، لا أخونك في عيشة. قال لها: باطلًا بطال. قالت: لا أضر عريس في زفته، ولا راجل في جلسته. قال لها: باطلًا بطال. قالت: لا أضر بهيم في رباطه، ولا صغير في قماطه. قال لها: باطلًا بطال، سيدنا النبي رقى ناقته من

عين جماعته. كانت عسير، صبحت تسير. كلت عليقها، وشربت مياهها، واتكلت على مولاها، بقدرة الله العلي العظيم.

يا بير بلا قمر ... يا كف بلا شعر ... زال عنك الشر، وافترق كما افترق الندى من على الورق. زال عنك الشر وطار، كما طار الندى من على الجبال.

افترقي يا نفس. افترقي يا عين. افترق يا فكر.

المرة بشوشة، والرجل عبس.

بحق النبي، وآية الكرسي، افترقي يا نفس بقدرة الله العلي العظيم.

سحبت العروسة من فوق الترابيزة. أعادت وخزها بالإبرة وخزات متلاحقة:

اللهم رب الناس، أذهب الباس، واشفِ أنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاءً لا يغادر سقمًا، يا رب العالمين.

الفاتحة لسيدي النبي، والإمام علي، والإمام الشافعي قاضي الشريعة، وأولياء الله جميعًا، والأربعة الأقطاب، والأربعة الأنجاب، والأربعة حمالي الكتاب، وسيدنا السلطان المرسي أبو العباس، وسيدي البوصيري، وسيدي ياقوت العرش، وسيدي نصر الدين، وكل أولياء الله الصالحين. يحادوك، ويراشوك، ويشيلوا عنك النفس، والعكس، بقدرة الله العلي العظيم.

الفاتحة لهم، وصلى الله عليه وسلم.

النورس يحلم بالمدن البعيدة

أمسك مختار زعبلة بخرطوم الماء، يطفئ السخونة المتصاعدة من أسفلت الشارع.

اختفت الظلال في شارع أبو الوجاهة، ذي البيوت الواطئة. أُغلقت النوافذ، وبحث المارة عن الظل لصق الجدران. وثمة هديل حمام يترامى من بعيد، وصوت صفارة باخرة من الميناء الغربية.

تذكر رحلات البحر، والمدن البعيدة.

قيل إن قعقعة بسقف الحجرة فاجأته، تناثر بعده عليه نقود، أمضى وقتًا يلمها من أرض الحجرة. وقال عم محجوب حارس حمام الأنفوشي إنه لمح المرسي — ليلة غادر مقامه — يدس في يده ما لم يتبينه أحد. ورآه أصدقاء درس المغرب وهو ينزل درجات الباب الرئيسي. يمضي بخطوات مهرولة إلى الميناء الشرقية، لا يتلفت. اقتعد الكورنيش الحجري، وانشغل بالتطلع إلى نهاية الأفق.

فاجأ الجميع — بعد أيام — بشراء دكان عجلاتي في شارع أبو الوجاهة. حوَّله إلى قهوة، أنفق عليها بما يشي بقدرته المالية. علَّق عليها لافتة: قهوة البحر. اجتذب إليها الصيادين وعمَّال الميناء. وخلع الجلابية، وارتدي البنطلون والقميص.

نفى أنه حلم برؤية المرسي، أو أن النقود سقطت عليه. عثر على مظروف أسفل الرصيف، بالقرب من سيدي كظمان. تلقف نصيحة الجد سخاوي: أنت أولى بالنقود من الحكومة!

دله حمودة هلول على دكان العجلاتي المغلق. دفع مبلغًا للجَدَك، أعاد فتحه. طلى جدرانه باللون الأزرق، ورسم عليها مراكب وأسماك. حتى النصبة جعلها في هيئة باخرة ضخمة.

تساءل قاسم الغرياني ضاحكًا: بلانس أم دكان؟

قال مختار: اسمه البحر ... يرحب بالصيادين وعمال الميناء.

ثم وهو يومئ برأسه ناحية ميدان أبو العباس: قارئو القرآن اختاروا قهوة مخيمخ للقاءاتهم ... وهذه القهوة جعلتها للصيادين.

قال الغرياني: وقهوة الزردوني؟

– عمنا أحمد الزردوني على عيني وراسي ... لكن هذه القهوة للصيادين وحدهم!

لم تشغله قلة المترددين على قهوته في البداية. ألفوا التردد على زردوني ومخيمخ. اجتذبهم بالحرج، من مجلسه وراء «البنك». وزعوا جلساتهم بين القهاوي الثلاث. وفتح زعبلة القهوة من الفجر إلى ما بعد منتصف الليل، وأذن للمترددين عليه أن يقضوا أوقاتهم اليوم كله على طلب واحد، وعرض الحساب على النوتة، فاختار الكثير من الصيادين قهوته لجلساتهم.

حفظ من ياقوت جرسون قهوة الزردوني سيم القهوجية. يستغني به عن الأسماء والنداءات المألوفة.

هز رأسه لتذكر قول ثروت: أنت هنا على البر ... فما يدريك بالحياة في البحر؟!

البحر!

حياته ودنياه وترددات أنفاسه. الرائحة التي لا يخطئها أنفه. اختلاف السحن، والأمواج الهادئة، والعالية، والبواخر الضخمة، والقوارب الصغيرة، والحاويات، وأصوات الآلات، والأوناش، والشون، والأسواق، وأرصفة الشحن والتفريغ، وأختام الجوازات، والتأشيرات، وبوليس المواني، والمطاعم، والحانات، والمواخير، والعلاقات الهامسة، ودكاكين الصرافة، وتغيير العملات، واللافتات المضيئة، ولحظات ارتفاع السلم عن الرصيف، وذوبان المدن. السير في آفاق مترامية من كل الجوانب: البواغيز، وصفارات البواخر، وأضواء الفنارات، والجزر المأهولة، والقاحلة، وألق ضوء الشمس على المياه في امتداد الأفق. حتى النوات والعواصف. سقط ما اقتحم النفس من خوف. لم يعد إلا ذكرى المغامرة ومواجهة المجهول.

لن يظل طائر النورس في تحليقه على الشاطئ. مجرد طائر يحلق ويحوم. البحر مياهه وأعماقه ومراكبه:

– أنا مثل النورس ... أحب ماء البحر ... وإذا وضعتني في السجن أموت!

بحلقت عينا ثروت بتساؤل: ماذا تقصد؟

اهتز جسمه بالانفعال: حياتي في الأرض سجن ... سأخرج منه إذا عدت إلى البحر!

البحر لم يهجره، وهو لم يهجر البحر. الظروف القاسية أبعدت، لكنه لا بد أن يعود إلى البحر. يرى — بعين الشوق — ما وراء البحر. مواني ومدن وناس. وركب في نومه «بلانس» من خشب الصندل، إنه من الذهب، وأشرعته من الحرير، وانطلاقه مطمئن في بحار لا تنتهي.

فهم من عيني ثروت وتصعبه أن عودته إلى البحر مستحيلة، لكنه على ثقة من أنه سيعود إليه. يذهب ألم ظهره بعلاج مستشفى رأس التين أو وصفات الحاج محمد صبرة، أو بركات الأولياء.

كان يرحل مع أسراب الطيور المهاجرة. يرى شواطئ وبحارًا ومدنًا بشرًا مختلفي السحن واللغات. صفافير البواخر في الميناء الغربية تذكره بالحلم القديم، بالحياة في البحر، والسفر إلى المدن البعيدة. ساح ذهنه إلى بلاد مختلطة الملامح يتمنى رؤيتها، وإن ظل مشغولًا بوقائع يومه الأخير مع يسرية.

هز كتفيه عندما قفز السؤال إلى ذهنه: هل هو الرجل الوحيد الذي تدخله المرأة البيت في غيبة ثروت؟

بدا من لهفة المرأة، وعناقها، أنها كانت على استعداد لأن تسلم نفسها إلى أول شخص تلتقي به. ليس هو بالتحديد، ولا أي إنسان آخر، وإنما رجل، رجل. يبعد بها عن حياة الانتظار والرتابة والوحشة والملل. ثروت في أسفاره البعيدة. يأتي لأيام، ويغيب لأشهر ... فلماذا تبدلت مشاعرها؟ ... لماذا عاملته بتلك القسوة؟

لم تكن العلاقة في ذاتها تشغله. ما يهمه هو الصور التي تلتقطها من أحاديث ثروت، حين يعود من رحلاته. لكن السؤال عاد إلى مناوشته: هل هناك آخرون في حياة المرأة؟

كر ذهنه بأسماء لا رابط بينها، وإن تصور أنه يمكن أن تعطي الإشارة نفسها لواحد أو أكثر. تأذن له — مثله — بالصعود. تقف لاستقباله أعلى السلم، وتمنحه جسدها في البسطة المفضية للسطح ... قاسم الغرياني ... محيي قبطان ... محمود عباس الخوالقة ... ومن تغيب عنه أسماؤهم وملامحهم.

تابع سربًا من الطيور، قدم من ناحية الأنفوشي، واتجه إلى نهاية الأفق في الميناء الشرقية.

قال لها: فكرت أن أكتب اسمك بالوشم على صدري.

ضربت صدرها بيدها: تريد فضيحتي؟!

أطرق لحظات، ثم رفع رأسه: خفت من ثروت.

– والناس ... ماذا يقولون؟

أشاح بيده: مجرد فكرة، وأهملتها.

فاجأه تصور اكتشاف ثروت لعلاقتهما. قدوم لا يتوقعانه، فضيحة تواجهه، وتواجهها، إذا نزل السر من السطح إلى قهوة الزردوني.

أزمع ألا يصعد إلى السطح ثانية. إذا جاءته في القهوة، صارحها بخوفه. القرار مؤلم، لكن مفاجأة ثروت لهما مما يصعب عليه تصوره. هل يقتلها؟ هل يقتله؟ هل يقتلهما؟ هل يكتفي بطلاقها وخصامه؟ … يذكر أنهما تخاصما على عشرة كوتشينة في قهوة مخيمخ، ثم ما لبثا أن تصالحا. التقيا في الدحديرة الخلفية لأبو العباس. نسيا ما كان، وتحدثا كأنهما لم يتخاصما.

أتاه صوت أمين عزب، وهو يختار كرسيًّا على جانب الرصيف: جئت للتهنئة!

هتف بفرحة حقيقية: هذا أسعد أيامي!

كانت حياة أمين عزب قد تحددت بين زاوية خطاب، وشقته في شارع إسماعيل صبري. لا يتردد على الحلقة، ولا القهاوي، ولا يشارك في موالد أولياء الحي، وثار على الإمام الجديد لأبو العباس، حين تحدث عن الزوجات السبعمائة اللائي يكن للرجل المؤمن في الجنة. يهبه الله من قوة بحيث يضاجعهن كل يوم، مرة في الصباح، ومرة في المساء.

علا صوته بالغضب: أليس في الجنة من رصيد سوى الجنس؟!

كان الإمام قد عرف مكانته بين المصلين، فأهمل ثورته. أكمل الخطبة، وإن اكتفى بثواب المؤمن في الآخرة، دون أن يتطرق إلى تفصيلات.

كان يدخل الحجرة المطلة على سيدي تمراز، أول رمضان، في خلوة، يخرج منها في نهاية الشهر. يؤذيه ضوء النهار، وتتعثر خطواته لقلة المشي.

اختار الزاوية للجلوس فيها منذ صلاة الجمعة إلى ما بعد صلاة العشاء. ينصرف إلى قراءة القرآن، وكتب الدين، ويؤم المصلين، ويقصده أبناء الحي، لسماع نصائحه، وللتبرك. يغلق الباب الخشبي المستطيل، العالي، ذا الضلفتين الصغيرتين، ويهبط درجات الرخام إلى الطريق. استأجر الشقة المقابلة، بعد وفاة العائل، ورحيل الأسرة إلى بلدتها في المحمودية. خصصها لقراءة القرآن. يختتم جزءًا كل ليلة، عقب صلاة العشاء. يخصص ساعة لاستقبال أصحاب المشكلات. يناقشهم، ويشير بالحل لشدة اعتقاد الناس في علمه، كانت أحكامه ترضي الطرفين في كل خلاف. يفض منازعات الجيران، والمنازعات الأسرية. يعيد الزوجة الناشز، ويجد السبيل لعودة الحياة الزوجية بعد الطلقة البائنة، الثالثة. يتوسل بمعارفه لإلحاق الأولاد بالمدارس. يتحمَّل الإصغاء — بالساعات — لشكوى رجل من تطاول امرأته، يشتمها، فترد عليه شتيمته، شكوى امرأة من أذية زوجها، يضربها لأقل

خطأ، ربما يضربها لأن مزاجه متعكر. اكتفى بالقول: أصلح الله الحال، لما شكا إليه إبراهيم القسط من أن المرأة الغجرية أزالت كل الأجزاء الظاهرة من أنوثة امرأته في طفولتها. المرأة على فراشه غائبة، لا تستجيب، وتشككه في نفسه. تردد على البلقطرية سعيًا لإطالة فترة العناق. مضغ الأفيون، وخلط سجائره بالحشيش، وزار بارات شارع البوستة والسبع بنات. استعان بوصفات شعبية: بلابيع ودهانات وتعازيم. ضرب المرأة ليسخن جسمها. صرخت، وتألمت، وظلت على همودها.

قال أمين عزب: مبروك يا مختار.

ثم وهو يحيطه بنظرة إشفاق: اللؤلؤة قد تكون في أصلها حصوة رمل أو طين … وأنت ذو معدِن طيب!

أمَّن محيي قبطان: نعم، مختار شقي … لكنه ابن ناس طيبين.

قال مختار في لهجة ترحيب: زيادة؟

قال أمين عزب: لا … موزونة.

قال محيي قبطان: أنا أفضلها سادة.

رغم بساطة أمين عزب، فإن الآخرين يشعرون بالمسافة بينهم وبينه. حاجز غير مرئي، يحسون به، وإن لم يروه، أو عجزوا عن ملامسته. ولم يكن إلقاء الأسئلة في طبعه. يكتفي بالرد على ما يوجه إليه من أسئلة. ردود قصيرة تهب المعنى، فلا تتفرع في تفصيلات.

بدا على محيي قبطان مغالبة للتردد: مررت على عم محجوب في حمام الأنفوشي لأمر، فلم أجده.

قال مختار: هذه ليلة النصف من شعبان.

يعرف أن عم محجوب يخلو إلى نفسه هذه الليلة، في حجرته. ليلة الدعاء. قدر الإنسان يُكتب هذه الليلة. إن كان سعيدًا أو شقيًّا. فيها يحدد مواليد العام التالي، ويُحدد الراحلون في العام نفسه. شجرة في الجنة هي شجرة المنتهى، تحمل أوراقًا بعدد البشر الأحياء. كل ورقة تحمل اسم شخص واحد. تُهَز الشجرة في ليلة النصف من شعبان، بعد الغروب. من كان مقدرًا له الموت خلال العام، تسقط ورقته. يلزم مسجد المسيري في تلك الليلة، لا يغادره، يؤدي ركعات متوالية كأنها التراويح، ويتلو القرآن ويردد الأدعية التي تتوسل بألَّا تسقط ورقته.

قال محيي قبطان: هذه ليلة مفترجة … يؤكل فيها الزفر.

رفت على شفتي أمين عزب ابتسامة مشفقة: أكل الزفر؟! … هل هذا هو ما يهمك؟!

مد يده في جيب السيالة: معي دعاء ليلة النصف من شعبان ... اشتريته من ميدان أبو العباس.

قال أمين عزب: هذه ليلة مباركة ... لله فيها عتقاء من النار ... لا يحصيهم العد.

أهمل محيي قبطان تردده. اقترب من مختار زعبلة: معك فلوس؟

ثم وهو يبدي الأسى: المعلم الخوالقة لم يعطني سلفة الشتاء.

قال مختار زعبلة: اطلب منه.

في لهجته الأسيانة: طلبت ... اكتفى بإن شاء الله!

ومضت عينا مختار بالتذكر: مل على المعلم أحمد الزردوني.

ارتفع حاجباه: ولماذا الزردوني؟

قال مختار: أعرف أنه مقتدر!

يكفي أنه يرضى الآن بالأجل على المشاريب.

ربت مختار صدره بأصابعه: وهل تأخرت عنك؟

وهو يخفض رأسه: البيت يحتاج إلى الأكل لا المشاريب.

دس زعبلة يده في البنك. طوى يد محيي قبطان على ما قدمه إليه: لم تعرف الرِّجل طريقها إلى القهوة بما يغطي المصاريف!

هتف أمين عزب، وهو يفز في مجلسه: ولد!

رأى أولادًا يعاكسون علي الراكشي، يجذبون ملابسه، ويقذفونه بقطع الحجارة. كان يرتدي سيالة حال لونها، وصديريًّا ممزقًا، تساقطت أزراره.

جرى الأولاد بالخوف من المكانة التي يحتلها أمين عزب في نفوس آبائهم.

ظلال حزينة

السابعة ...

الضوء الشاحب من النافذة الحديدية، العلوية، وشى بالظلال جدران الصالة المتآكلة، وبياض الحائط وراء المواضع الممزقة في الورق المزدان برسوم وزخارف ملونة. عُلِّقت آيات من القرآن، وبعض الأمثال، والحكم، وأبيات من الشعر، وصورة لسعد زغلول يصافح المعلم كشك الكبير، وسط عشرات يطل عليهم تمثال محمد علي. وثمة نجفة هائلة، مدلاة من السقف بسلسلة حديدية، تهتز بنسائم ربيعية هادئة. على الأرض — أوسط الكراسي والطاولات — سجادة صلاة مطوية إلى نصفين، ظهر فيها رسم الكعبة. النصبة — على اليمين — تتوسطها الرمالة والفناجين والكوبات، وصُفَّت في نهايتها ثلاث نارجيلات، وصحن نحاسي، فوقه قلة من الفخار مغطاة بقطعة شاش. والردهة — ناحية اليسار — تفضي — في ظلمة شفيفة — إلى المطبخ ودورة المياه. وصوت أم كلثوم ينبعث — خفيضًا — من الراديو خلف قعدة المعلم كشك:

سلوا قلبي غداة سلا وتابا　　　لعل على الجمال له عتابا

تأكد زناتي الكنَّاس من إغلاق الباب جيدًا. ظهر عساكر الجيش في شارع فرنسا، ليبدءُوا تطبيق قرار منع التجول.

قال حسنين الدمنهوري: من كان يصدق أن الأمور تتطور إلى هذا الحد؟

قال زناتي الكناس: حتى عمال الميناء أضربوا ... تكدست البضائع، وتوقفت البواخر عن إنزال ما بها.

قال المعلم كشك: ذكرت «البلاغ» أن النقراشي وصل الإسكندرية.

روى زناتي عن المظاهرات في ميدان المنشية، طلبة وعمال وعساكر بوليس وصولات وكونستبلات، رفعوا أرغفة خبز فوق بنادقهم.

فرضت نفسها على الجميع أحاديث الإضرابات والمظاهرات. حتى ضباط البوليس لم يعد من المثير خروجهم في مظاهرة، والهتافات ضد الإنجليز والحكومة والملك. صداقة فرضها ملازمة المكان. تبادل الشكوى والبوح والفضفضة. التجول في الشوارع الخلفية، وفيما وراء الأسوار. التعرف إلى ملامح غائبة.

لم تعد القهوة تغلق أبوابها في العاشرة.

عرفوا السهر والعودة وجه الصبح. المظاهرات والإضرابات، دفعتهم إلى الفرجة والمتابعة. قيود الحرب غابت كأنها لم تكن. أُزيلت الزرقة من النوافذ وواجهات الدكاكين، واختفت الكشافات الضوئية من السلسلة، وأبيح دخول ما كان ممنوعًا. حتى القعدات داخل حديقة سراي رأس التين عادت إلى مألوفها، وعادت أضواء الكازينوهات في امتداد الشاطئ، وعاد السهر على الكورنيش، والتمشي في صفية زغلول وسعد زغلول ومحطة الرمل.

قال مؤمن الدشناوي: بالمناسبة ... أقرأ على الجدران: نريد الخبز بدل السلاح ... ماذا تقصد هذه العبارة؟

قال مصطفى حجازي: أعرف أن الخبز موجود.

تلون صوت عم محمد الطوشي بالتأثر: أخطأ الجيش عندما أطلق الرصاص عليهم.

أردف في تأثُّره: النتيجة هي ما حدث من حرائق بقسم الجمرك وقسم اللبان وإحراق لعربات الترام والدكاكين ودور السينما.

قال المعلم كشك: لولا نزول الجيش لضاعت المدينة.

قال مؤمن الدشناوي: عرفت في المستوقد أن القتلى سبعة وعشرين ... منهم سبعة من عساكر البوليس.

قال زناتي: هتفوا: يسقط النقراشي عدو الأمة.

أضاف حسنين الدمنهوري: سمعتهم يهتفون: قود الثورة يا نحاس.

قال المعلم كشك: لهم حق ... كل شيء يدعو إلى الغيظ ... التخاذل في المفاوضات ... انهيار أسعار القطن ... كادر الموظفين ... البطالة.

ثم في لهجة متشككة: حتى لو نجح النحاس في الانتخابات ... فلن يوافق الملك على تكليفه بها.

كان المعلم كشك لا يفتح عينيه إلا إذا تكلم. فإذا أنهى كلامه أغمض عينيه، وأحنى رأسه على صدره كالنائم. يتكلم ثانية، فيفاجئ من حوله بأنه كان يتابع كل ما قيل.

قال مؤمن الدشناوي: الحمد لله أنهم أذنوا لنا بالبقاء في القهوة.

لاحظ فأرًا يطل من جحر داخل فجوة في الجدار، بالقرب من الردهة. تطلع الفأر — بعينين متأملتين — إلى المكان حوله. ثم عاد — ثانية — إلى الجحر.

أردف الدشناوي متصعبًا: أغلقوا القهوة في النهار يوم ذكرى توقيع اتفاقية وادي النيل ... أما الآن فحظر التجول بالليل.

قال حسنين الدمنهوري: سمعت أن عمال كرموز خرجوا في مظاهرة كبيرة، شارك فيها مائة ألف ... ورفعوا لافتات تطلب قيام الجمهورية.

قال زناتي الكنَّاس: ميزة المظاهرات أن المفتش لا يترك مكتبه ... وقد لا يترك بيته.

مشواره اليومي يبدأ في الصباح. يأخذ المقشة العهدة من البناية الصفراء الصغيرة في ميدان سانت كاترين، ويعطي التمام. منطقته من قسم المنشية إلى نهاية شارع فرنسا، عند تقاطعه مع إسماعيل صبري.

قال مؤمن الدشناوي: حجتك معك ... هل تنظف الشوارع من المتظاهرين؟

استطرد مصطفى حجازي: ربما أصابتك طوبة.

فاجأ عم محمد الطوشي الرجال بالقول: كما ترون ... لم أعد أقوى على حمل الصينية.

مثل الترسة هو. صدفته الصمت، والغموض. لهجته شامية، وإن لم يتحدث عن أهله ولا موطنه، ولا متى جاء إلى الإسكندرية. لا يكاد يتكلم، ولا يروي عن ظروفه الشخصية. حتى صينية الهريسة يحرص، فلا يرى طريقة صنعها أحد. الصينية الهائلة الاستدارة، تلتف حولها — بإحكام — صينية من الماء. في أسفل بريموس يسخن الماء، فيواصل البخار ارتطامه بصينية الهريسة، حتى تنضج. يميز نفسه، لا يضم طاولتين فيتحولان إلى سرير، يزيح الأكواب من «النصبة»، يفرش البطانية فوقها، يغطي ببطانية ثانية.

وغالب التأثر في صوته: استأجرت دكانًا بالقرب من قهوة فاروق.

قال حسنين الدمنهوري: عين العقل.

قال الطوشي: ما يحزنني أنني سأترك القهوة.

علا حاجبا زناتي بالدهشة: لماذا؟

– إيجار هنا، سأدفعه هناك.

قال له المعلم كشك: هل تفارقنا يا رجل؟!

وهو يداري تأثره: ما باليد حيلة!

مواصلة المدد

من حزب الشاذلي:

نسألك الفقر مما سواك والغنى بك، حتى لا نشهد إلا إياك ... فهؤلاء الأغنياء بالله، الغائبون فيه عما سواه. عبادتهم بالله ولله ومن الله، قيامًا بشكر النعمة، وإتمامًا لوظائف الحكمة.

اللهم إنا قد عجزنا عن دفع الضر عن أنفسنا، من حيث نعلم، فكيف لا نعجز عن ذلك من حيث لا نعلم بما لا نعلم؟

اللهم إن القوم قد حكمت عليهم بالذل حتى عزوا، وحكمت عليهم بالفقد حتى وجدوا.

قال عم سلامة: الغداء كل يوم خميس على حساب حمادة بك.

قال مؤمن الدشناوي: قرديحي أم باللحم؟

قال عم سلامة: في كل طبق خضار قطعتان كبيرتان من اللحم الشمبري.

عم سلامة يقف وسط الحلل الهائلة الحجم، خلف بنك من الرخام، يلاصقه جرن من الأسمنت، إلى جانبه ثلاثة صفوف من الأطباق، وجردل ماء، في داخله الملاعق والشوك، والبخار يتصاعد بالحرارة. وفي الزاوية حوض صغير.

الموائد توازت لصق الحائط، غُطِّيت بالمشع، فوقها ملاحات وطفايات سجاير من البلاستيك الملون. على جانبيها الكراسي مشغولة وخالية، والمروحة المتدلية من السقف تدور في رتابة، وثمة أصوات نساء يغنين على عربة كارو في شارع السيالة:

الفاتحة للعسكري　　سبع السباع المفتري

قال صابر الشبلنجي: نقلة الفول تضمن لك الآن أكلة معتبرة.

أطلق الدشناوي من أنفه ضحكة مبتورة، وواصل الأكل.

خصص له المستوقد عربة يد. ينقل عليها قدر الفول من المستوقد بشارع المحافظة القديمة إلى الطنطاوي بشارع التتويج، وإلى مطعم النبلاء، وجمعية مائدة الفقير بشارع إسماعيل صبري.

كان يشارك عم سلامة في الخدمة. يرتدي الفوطة البيضاء، يدق عجينة الطعمية في الجرن، يقشر الخضار، يعد خلطة الدقة من الفول السوداني والسمسم والحمص والزعتر والكمون والكسبرة والنعناع، يوزِّع على الموائد أرغفة الخبز والملاعق والشوك وأكواب الماء، يطمئن إلى عدم خلو الملاحات.

فز مختار زعبلة من جانب صابر: هذه رائحة إسطبل.

ضحك صابر باستهانة.

ألف التصاق جسمه برائحة العليق وروث البهائم. لا تذهب باغتساله في مسقاة الخيل. امتلأت غرفته بأجولة الذرة والفول والشعير والتبن، وتساندت على الجدران كومات البرسيم الصابح.

وضع ثيابه في ماكينة التبخير بحمام الأنفوشي. أطال وقفته تحت الدش ... لكن الرائحة ظلت ملتصقة بجسمه.

قال له عم محجوب: هل يصلح غزل المياس لصيد البساريا؟

ورماه بنظرة مؤنبة: حمامنا لا ينفعك ... جلاخة جسمك تحتاج إلى مكبِّس في حمام شعبي.

قال صابر: هل هذا حمام الملك؟!

قال عم محجوب: خيل الملك أنظف منك.

طلب مختار زعبلة الملَّاحة من الدشناوي. لم يضعها — بتعمد — في يده. دفعها إليه، وهمس بالشكر.

قال مؤمن وهو يهز كتفيه: لا تشكر على الملح!

قال صابر لمجرد أن يدور كلام: الولد أبو بكر ... ابن علي الراكشي.

التقط تنبه الجالسين.

صحا على حركة في الإسطبل. خمن أن أحدًا تسلل ليقطع ذيول الخيل بالموسي، فينتفع بشعرها. شهق للمشهد المفاجأة: الولد أبو بكر يعدل وقفته وراء بغلة صغيرة، أودعها صاحبها. دفع البغلة إلى زاوية الإسطبل.

– من قلة الحريم يا ابن الكلب؟!

قال عم سلامة: لا تشتم أباه ... فهو مبروك!

قال مختار زعبلة متذكرًا: رأيت الراكشي في البلقطرية أمس ... يبدو أن جذبته اتجهت إلى الكيف!

قال عم سلامة: أعرف أن الراكشي صاحبك.

قال زعبلة بلهجة معتذرة: نسلي أنفسنا.

هتف عم محجوب: تسلي نفسك بأذية خلق الله!

قال عم سلامة: الراكشي في بحري الآن بركة.

قال صابر: كان لدينا حماد واحد ... صار لدينا اثنان.

قال عم سلامة: الخبل من شروط الولاية.

علا صوت صابر بالاستنكار: جعلته وليًّا؟

مط عم سلامة شفته السفلى: من يدري؟!

اصطدمت يد صابر — عفوًا — بالملاحة. سقطت، وتناثر الملح مختلطًا بنشارة الخشب التي غطت الأرض.

قال عم سلامة لمؤمن: التقط هذا الملح.

وهز أصبعه أمام عينيه: حاذر ثانية من وقوع الملح.

وعلا صوته بنبرة وعظية: إن وقع غصبًا عنك التقطه جيدًا، حتى لا تعاقب يوم القيامة بالتقاطه برموشك من صخور جهنم.

واتجه إلى مؤمن الدشناوي: ضع أمام عمك الحاج سلطة خضراء بدلًا من البصل.

كان الحاج محمد صبرة يتردد على المطعم من باب المؤانسة. عُرف عنه أنه لا يقرب اللحم، ويبدي ضيقه لرؤية حيوان أو طير يذبح. وكان يرفض تناول ما يغير نكهة الطعام كالبصل والثوم والفجل، فلا يؤذي الزبائن برائحة فمه عند الحلاقة. وظل على عادته بعد أن اكتفى بالتطبيب، وترك الحلاقة لصبيانه.

لما طالت وقفته، تململ، ومضى.

أزمع أن يضمر بطنه بالصيام، للسباق في حلبة النجاة. يروض نفسه بالجوع، حتى تظهر له مقامات الكشف، يصطفيه الله بنور الأنوار. أفضل لو وقف أمام أبواب الجنة. يتطلع إلى المائدة التي تحدث عنها النبي. توضع بين يدي ولي الله. أطباق من الذهب الأحمر، مكللة بالدر والجوهر والياقوت والزبرجد، عليها فواكه لا يوجد ما هو أجمل منها، ولا ما هو ألذ من طعمها، ويشرب بكأس المحبة من بحر الوداد. يقبل طائر، فيقول: يا

ولي الله، أما إني قد شربت من عين السلسبيل، ورعيت من رياض الجنة تحت العرش. وأكلت من ثمار كذا طعم أحد الجانبين مطبوخ، وطعم الجانب الآخر مشوي، فيأكل منه ما شاء، وعليه سبعون حلة، ليس فيها حلة إلا على لون آخر. في أصابعهم عشرة خواتم، مكتوب على الأول: سلام عليكم بما صبرتم، وعلى الثاني: ادخلوها بسلام آمنين، وعلى الثالث: وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون، وفي الرابع: رفعت عنكم الأحزان والهموم، وفي الخامس: لبسناكم الحلي والحلل، وفي السادس: زوجناكم الحور العين، وفي السابع: ولكم فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون، وفي الثامن: رافقتم النبيين والصديقين، وفي التاسع: صرتم شبابا لا تهرمون، وفي العاشر: سكنتم في جوار من لا يؤذي الجيران.

جاوزت خطواته مطعم النبلاء.

تنبه، فعاد إليه.

كان الهزال قد امتصه، وملابسه لم يغيرها منذ فترة طويلة. يرتدي صديريًّا ممزقًا على اللحم. ظهر ما يشبه قاعدة الشعر الأسود المتكاثف على الصدر، تنتهي بصفين متقابلين، متشابكين، ينتهيان إلى السرة. لم يُعنَ بنظافتها، فغطى موضعها طين وأوساخ.

مبنى التصوف ودعامته، التمسك بالفقر والافتقار.

لم يعد يضيق بالجوع. الجوع يكسر الشهوة. اختار الجوع والعزلة والمجاهدة والسهر. الطير يدبر الله رزقها يومًا بيوم. يشتاق إلى جنة الأفعال. الجنة الصورة من جنس الطعام الأشهى، والأشربة العذبة، والمناكح التي تهبه لذة تفوق تصوره. القصور من لؤلؤ. في كل قصر سبعون دارًا من الياقوت الأحمر. في كل دار سبعون بيتًا من الزمرد الأخضر. في كل بيت سرير. على كل سرير سبعون مائدة. على كل مائدة سبعون لونًا من الطعام. في كل بيت سبعون وصيفًا ووصيفة. الحجرات بلا مغاليق من فوق، ولا عماد من أسفل. يطير إليها أهلها أشباه الطير، مع ضخامة أجسامهم. بناؤها لبنة من ذهب، ولبنة من فضة. ترابها المسك والكافور. حشيشها الزعفران. أبوابها من الجوهر. حصباؤها اللؤلؤ. ماؤها أشد بياضًا من اللبن، وأحلى من العسل المصفَّى. وفيها من الحور العين ما لا يحصر عدده إلا الله، ومن النعيم ما لا ينقطع أبدًا. جوارٍ أبكار قد علمن القرآن، يقرأنه بأصوات تشجي القلوب، وتشتهي الأسماع منها، ونهر يقال له الرحمة. يجري في جميع الجنان، ونهر ينبت الجواري والأبكار، وقبة من كافور أبيض، معلقة بلا عمد تلزمها، ولا علاقة تمسكها، وشجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام، فلا يقطعها. ورقها برود أخضر، وزهرها رياض صفر، وأغصانها سندس، وثمرها حلل، وصحفها

عسل وزنجبيل، وبطحاؤها ياقوت وزمرد، وثمار أشجارها أصغر من الرمان، وأضخم من التفاح، وحلاوتها كحلاوة العسل. من يدخلها ينعم ولا يبأس، ويخلد ولا يموت، ولا تبلى ثيابه، أو صحته. له كل ما يشتهي من أكل وشرب ولباس ونكاح وركوب. يشتهي الطير، فيخر بين يديه ملقًى نضيجًا، لم تمسه نار. يأكل منه حتى يشبع، ثم يطير. وإذا اشتهى الشراب، جيء بإبريق، فيقع في يده. يشرب، ثم يعود الإبريق إلى مكانه. على نهر البيدخ، جوار نباتات. إذا أعجبت جارية رجلًا، مس معصمها، فتتبعه، وتنبت مكانها. وإذا اشتهى للولد، كان حمله، ووضعه، وسنه، في ساعة واحدة كما يشتهي. وإذا اشتهى زيارة أحد إخوانه، طار من سريره، حتى يكون بحذاء سرير أخيه. يباح الخمر والحرير والذهب. تمر السحابة تقول: أتريدون أن أمطر لكم؟ ... فلا يتمنى شيئًا إلا مطره. يرى الثمرة في الشجرة، يشتهيها، فيقول الغصن: خذني يا ولي الله. يسأل: من أعلمك بما في نفسي؟ ... يقول الغصن: الذي ارتضاك لجواره. يتناول الطعام في أطباق من الياقوت الأحمر والأصفر والأبيض، وأكواب من الذهب الأحمر، مملوءة بالماء واللبن والخمر والعسل والتسنيم والزنجبيل والسلسبيل والرحيق المختوم. حاجته عرق، يسيل من جلده، مثل ريح المسك.

دعاه الحاج محمد صبرة، فرفض.

قال له يوسف بدوي: في قول لرسول الله: من صبر على القوت الشديد، صبرًا جميلًا، أسكنه الله الفردوس حيث شاء.

أكرمه الله بالحياء والخوف والانتباه واليقين. أذهب عنه الشك والوهم. كسر حظوظ نفسه، وقطع الطمع في الدنيا، وتجرد للآخرة. احتذى المشايخ الكبار فيما حرصوا عليه؛ أزمع الصبر على قلة الكلام والنظر والحركة والمنام والطعام والشراب واللباس واعتزال الناس، حتى يختاره الله للحياة في الجنة. يدخل الرحاب الواسعة الطاهرة. ينادي المنادي: إن لكم عند الله موعدًا. يسأل الأولياء والصالحون: ألم تبيض وجوهنا، وتنجنا من النار، وتدخلنا الجنة؟ ... يقول المنادي: بلى. ويكشف الحجاب، ما ينالون شيئًا أحب من النظر إليه. يدخل مع رجال ليسوا بأنبياء ولا شهداء. يغبطهم الأنبياء والشهداء بمنازلهم عند الله. يكونون على منابر من نور. يغني إسرافيل للملك القدوس، لا تبقى شجرة في الجنة إلَّا مادت، ولا ستر ولا باب إلا ارتج، ولا حلقة باب إلا طفت بألوان طينها، ولا أجمة من آجام الذهب والفضة إلا زمرت بفنون الزمر، ولا حوراء إلا غنت بأغنياتها، ولا طائر إلَّا غرد بلحنه. تردد الملائكة الأغنيات، وتتضاعف اللذة، وتغنى الحور العين بأجمل الأصوات: نحن الخيرات الحسان، أزواج قوم كرام، ينظرون بقوة إيمان. ونحن الخالدات فلا نموت،

ونحن المقيمات فلا نظعن. طوبى لمن كان لنا، وكنا له. لا ليل ولا نهار، ولا شمس ولا قمر، ولا حر ولا برد. الوقت دائم كما قبل طلوع الشمس. جنات الجلال، ودار السلام، والمأوى، والخلد، والنعيم، والفردوس، والقرار، وعدن. جميعها لبنة من ذهب، ولبنة من فضة، وترابها المسك الأذفر والكافور، وحشيشها الزعفران، وقصورها اللؤلؤ والياقوت، وأبوابها من الجوهر. علو ضلفتي كل باب منها خمسمائة عام، وحصباؤها اللؤلؤ، وماؤها أشد بياضًا من اللبن، وأحلى من العسل، وأفضل أنهارها ستة: الرحمة، والكوثر، والكافور، والتسنيم، والسلسبيل، والرحيق المختوم، وأنهار أخرى كثيرة، لا يعلم عددها إلا الله. نخيلها له جذوع من الذهب، وجريد من الذهب، وأقماع من الذهب، وثمارها ألين من الزبد، وأحلى من العسل، وثمة شجرة، يخرج من أصلها خيل ذوات أجنحة مسرجة، ملجَّمة، يركبها أولياء الله فتطير بهم حيث شاءُوا. الحجرات من أنواع الجواهر، يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها. فيها من النعيم والثواب والكرامات ما لا أذن سمعت، ولا عين رأت. وفي يوم الجمعة يؤتون بخيل مسرجة، ملجمة، لا تروث ولا تبول يركبونها حتى ينتهوا حيث شاء الله.

أعاد سلامة دعوته: ادخل يا شيخ علي.

تعنيف السلطان له على معاملة سيد الفران، بدلت معاملته لمن يترددون على المطعم. حتى من يطلبون التعامل بأجل.

مد الراكشي يده إلى أعلى. توالى التقاطه ما لم يروه، وقذف به في فمه، وراح يمضغ في استمتاع.

اتسعت عينا صابر بالدهشة: ماذا تفعل يا رجل؟

وهو يواصل المضغ: طعام السماء أفضل من طعامكم.

أدار صابر أصابعه بجانب أذنه: أصابه الخرف.

صرخ الراكشي: المخرف أبوك! ... هذا طعام من الجنة لا تراه الأعين الكافرة!

وداخل صوته تهدج: أنتم تأخذون من الجيب ... وأنا آخذ من الغيب.

همَّ الراكشي بالانصراف ... لكن قرصة الجوع دفعته إلى المائدة القريبة.

سكب قطرات من الماء على الأرض، ثم شرب الكوب دفعة واحدة.

علا حاجبا مؤمن الدشناوي: لماذا؟

قال وهو يواجه الطعام: حتى يشرب إخوتنا.

اتساع الدائرة

غادرا الجامع بعد صلاة المغرب.

كانا قد استأذنا إمام أبو العباس في مشوار، فلا يستطيعان حضور درس المغرب. نزلا درجات الباب الملكي إلى ميدان الأئمة. الأيدي — في الأضواء الخافتة، المنبعثة من داخل المكان — تلمس المقاصير النحاسية كالنوافذ الصغيرة، وتعيد ما لمسته إلى الأفواه، وتقبله، وتمسح بها على الصدر. بقايا الشمس تسللت من أعلى الجدران، وحلت العتمة. بدت المرئيات كأطياف، أو كأشباح.

قال عباس الخوالقة: ماذا يخيفك من جابر برغوت؟ ... لقد رفض أن يتقاضى مليمًا قبل حدوث الشفاء.

قالت أم محمود: أي شفاء؟! ... صحة البنت تدهورت ... أخشى أنها ستموت.

كانت قد أهملت الأمر، ونسيته تمامًا. ثم نبشت الذاكرة — في الأيام التالية — لقدوم الإمام. لملمت الجزئيات الصغيرة، فاستعادت الملامح الغائبة.

قالت أم هشام: ليتك ترضعين الولد.

قالت متصعبة: كفى الله الشر!

قالت المرأة مهوِّنة: أبدًا ... لبن صدري لا يكفيه.

ترامى صوت أم عباس الخوالقة من الحجرة المطلة على السيالة: اشربي حلبة ومغات يا ولية.

قالت أم محمود: أنت هكذا تغلقين الباب ثواني أنجبت بنتًا وطلب الولد زواجها.

قالت المرأة: لا أحد يعرف نصيبه!

خمنت أنها ربما أساءت التعبير، فأردفت: مهجة تستحق ابن الملك.

تناهى صوت أم عباس الخوالقة: وهل للملك ابن يا ولية ... إن كل خلفته بنات!

قالت المرأة: الحقيقة أني لم أعد أذكر من أرضعته ... أصبح أخًا للكثير من أولاد السيالة.

مع أن عباس الخوالقة وِلد في بحري. من أبوين وجدين ولدا في ... لا يعرف له أهلًا خارج الإسكندرية، سوى مَن غادروا المدينة وفي العمل، أو المصاهرة ... فإنه لم يعرف عن كرامات جابر برغوت بعد أن كلمه عم محجوب، حارس حمام الأنفوشي: جابر برغوت مبروك ... وفقه الله في علاج ما هو أقسى من مرض ...

سبقه عم محجوب في شارع سيدي كظمان.

عبرا حلقة ذكر يتمايل فيها الذاكرون متشابكو الأيدي على إيقاع القوال. قرأ عباس الخوالقة الفاتحة لولي الله بصوت هامس، ومسح وجهه بيده. اخترقا شوارع ضيقة وحواري وأزقة، اختلط التراب بمياه الغسيل، بالأوساخ المتخلفة من تنظيف السمك.

توقف عم محجوب عند بيت من الطوب الأحمر، ذي طابقين. نوافذه عالية، مغلقة، وإن علا الصدأ قضبانه الحديدية. وثمة — في المدخل — مياه راكدة، ورائحة عطن. وتناثر على الجانبين مجاديف مكسورة وحبال وشباك وفلين وإسفنج وعلب فارغة.

تعلم جابر برغوت حتى الثالثة الأولية. فك الخط، وحفظ آيات من القرآن الكريم، وقواعد الجمع والطرح والضرب والقسمة. لم تكن ظروف أسرته تقوى على تكاليف الدراسة. ألحقه أبوه صبيًّا عند المعلم مهنى، الحانوتي المواجه لجامع ياقوت العرش. أتاح له مواصلة تعلم القراءة والكتابة، وتعلم الأحجبة والأعمال فيما بعد، اقترابه من الشيخ عوض مفتاح. كان يصنع الأحجبة، ويكتب الأعمال لمن يقصده من زائري ياقوت العرش. أضاف إليها من ذهنه، ومن دعوات المترددين على المقام، وما يتركونه من رسائل وشكايات وأحجبة.

قضى برغوت أعوامًا يقرأ الرواتب في البيوت. وعندما اشترى كتابًا في السحر من مكتبة بالعطارين، فرغ له أيامًا حتى حفظه. قرأ أمهات في كتب السحر والطب الروحاني وأتقن العمل بما فيها: تذكرة داود، وتعطير الأنام في تفسير المنام، وشمس المعارف، ومنبع أصول الحكمة للبوني، وتعبير الرؤيا لابن سيرين، والرحمة في الطب والحكمة للسيوطي، ومجربات الديربي الكبير، ومؤلفات ابن الحاج، وغيرها. العلم بكمالات القلوب، وآفاتها، وعللها، وأدوائها، وبوسائل حفظ صحتها واعتدالها، ورد الأمراض عنها. وصار عارفًا، قادرًا على الإرشاد والتكميل.

استكمل علمه بالتردد على مشايخ لهم صيتهم في اللبان وغربال وكرموز وصحراء المتراس.

لما زادت علومه، أجاد فتح الكتاب، وقراءة الكتب، والجبهة، والاستخارة بالقرآن، وبحبات المسبحة، واستحضار الأرواح، ومخاطبة أولياء الله في أضرحتهم بالبركة والمكاشفة. وصنع أحجبة لرد الغائب، وفك النحس، وشفاء العقم، والأمراض المستعصية، وطرد الشياطين، وإبطال العمل. ونجح الكثير من التلاميذ بفضل أحجبته، وتماثل مرضى للشفاء، وولدت نساء ذكورًا.

كان يأخذ اسم المشكو في حقه. يعيد رسمه على قحف قرموط، ويطلب إلقاءه في البحر. يصعب على الرجل من ليلتها أن يضاجع امرأته. يظل مربوطًا حتى يموت القرموط، أو تأكله سمكة كبيرة، أو يقع في شباك الصيادين. وكان يكتب الوصفات. إذا وضعها الرجل في كوب ماء، وسقاه لزوجته، فإنها لا تفعل — بعد ذلك — ما يكرهه.

لم يعد مسئولًا عن حياته، ولا عمَّا يقضي به في الحالات التي يعالجها. كتب السحر تشير بكل تصرف. تقرر ما ينبغي أن يفعله، وما ينبغي إهماله. تطلعه على حقيقة الداء، وتضع العلاج المناسب.

وحين شكا عم سعد صاحب المجيرة في شارع إسماعيل صبري من فتاق ضخم يملأ ما بين فخذيه، فهو يتحرك ويمشي بصعوبة. لجأ إلى جابر برغوت. وضع يده على موضع الفتاق، وبسمل، وحوقل، وتلا أدعية، ثم رفع يده، فإذا الفتاق ذهب، كأنه لم يكن. قد يكون العلاج وصفة، أو دواء من الصيدلية. ربما اكتفى بالنصح بقراءة الأذان في أذن المريض، أو تلاوة آيات القرآن. وربما — إذا بدت الحالة صعبة — أمر بعرض المريض على طبيب دنيوي، فهو طبيب روحاني، له علومه ومعارفه التي لا تختلط بعلوم الطب الدنيوي، ومعارفه.

رفض — بعد وفاة أكبر أبنائه مسمومًا — كتابة الأعمال السحرية للضرر والإيذاء. لم يعد يكتب إلا أعمال الخير والشفاء والمصلحة ياقوت العرش والهداية. كلمات السحر تتضمن آيات من القرآن، والقرآن خير، حروفه وكلماته وجمله وآياته وسوره.

طلبت منه زوجة صياد الطراحة زغلول عمران أن يربط زوجها، لزواجه من أخرى، فرفض. قال إنه يخاف عذاب الله لو أقدم على الأذى.

قال: هل تزوج الرجل بالمرأة أو زنى بها؟

قالت المرأة: تزوجها.

ضرب الفراغ بيده: وصفة الربط لا تصح إلا في حالة الزنا وحدها.

جلس على حشية من قطن. أمامه طاولة مستديرة من الخشب المنقوش، عليها أوراق وكتب ودواة حبر ومجمرة بخور. وعلى الجدران آيات قرآنية وصورتان للحرم المكي والحرم النبوي. وغطيت النافذة بستارة من القماش السميك. تحتها صندوق خشبي، مغلق بقفل.

اقتعد عباس الخوالقة وعم محجوب الكليم الأسيوطي، المفروش باتساع الحجرة.

– أهلًا يا معلم عباس.

يعرفه، وإن لم يهبه انتباهه، ولا جلس إليه من قبل. رآه مرات كثيرة أمام ياقوت العرش، وفي داخله. ليس الشيخ عوض مفتاح إمام الجامع، ولا حتى الشيخ سباتة قارئ الجامع ومؤذنه، فيعطيه حقه من التوقير. القعدة بدلت صورته، وتأثيره في نفسه. داخلته رهبة. تعمَّد أن تكون كلماته هامسة: أهلًا يا شيخ جابر.

لو أن الموقف قبل الآن، لنطق الاسم غير مسبوق بصفة.

نثر جابر برغوت المزيد من البخور في المجمرة أمامه، ونكش جمرات النار بقطعة من الخشب: حدثني عم محجوب عن مشكلة ابنتك.

قاطعه بصوته الهامس: وأكد أن الحل سيكون على يديك.

سرحت عيناه في المدى: الحل في يد الله!

مسح بيده على الأثر. همس باسم الله، والفاتحة، وبعض أسماء الله الحسنى، وأدعية. ثم علا صوته: بسم الله الرحمن الرحيم. باسم الله الكافي. باسم الله الشافي. باسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء.

قرأ:

﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾.

طلب من الخوالقة أن يكرر ما قرأ — هو أو أحد من آل بيته — اثنتين أربعين مرة. وطلب أن تُقرأ: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ ثلاث مرات، والمعوذتان ثلاث مرات، وأن تُقرأ خمس آيات من سورة البقرة، ويُقرأ من نفس السورة ﴿اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ الآيات إلى ﴿وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾. وتُقرأ سورة «الإخلاص» اثنتي عشرة مرة. ويُقرأ من سورة الحشر: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا

لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ❁ هُوَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ❁ هُوَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ❁ هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. ومن سورة طه ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾.

قال جابر برغوت: البنت تعاني أذية سحر ... إذا قرئ ذلك كله، ونفذ، فإنه يحرق كل ما كتب من أسماء الجان، ويبطل أعمال السحر، ويحطم التعاويذ والطلاسم.

صنع حجابًا، ثبته في حجر صغير وطلب من الخوالقة أن يلقيه في البحر:

«بسم الله الرحمن الرحيم، الله الذي لا إله إلا هو، مرسل الرسل، عالم البعض والكل، هو الأول والآخر، والظاهر والباطن، الوالي المتعال، رب الآخرة والأولى، والبداية والمنتهى، وله الأسماء الحسنى، مجري الفلك، مالك الملك. إني لا أقرب ممن علق عليه هذا الحجاب، لا في أكل، ولا في شرب، ولا في مشي، ولا في جلوس، ولا في خلاء، ما دامت الفلك دائرة. والله على ما أقول وكيل.»

وضع محمود عباس الخوالقة أرغفة الخبز على الجريدة بيده، واتجه خارج الفرن.

لحقه نداء فؤاد أبو شنب.

مال به يمين الباب من الخارج، يتقي طرطشات المازوت على الجدار.

– أريد أن أزور والدك في البيت لأمر مهم.

ما كاد أبو شنب يغادر الشقة، حتى خبطت أم محمود على صدرها: لن أزوج ابنتي لرجل في سن أبيها.

قال محمود: هذه مشكلة بسيطة ... الأهم أنها ستكون زوجته الثالثة!

قال عباس الخوالقة في هدوء باتر: أزوج ابنتي وأضمن حياتها، أفضل في كل الأحوال من أن أراها تـ...

التحليق بلا أجنحة

قال أبو الحسن الشاذلي: «إذا أكرم الله عبدًا في حركاته وسكناته، نصب له العبودية لله، وستر عنه حظوظ نفسه، وجعله يتقلب في عبوديته، والحظوظ عنه مستورة، مع جري ما قدر له، ولا يلتفت إليها كأنه في معزل عنها. وإذا أهان الله عبدًا في حركاته وسكناته، نصب له حظوظ نفسه، وستر عنه عبوديته، فهو يتقلب في شهواته، وعبودية الله عنه بمعزل، وإن كان يجري عليه شيء منها في الظاهر.»

«لا تختر من أمرك شيئًا، واختر أن لا تختار، وفر من ذلك المختار، ومن فرارك، ومن كل شيء، إلى الله تعالى.»

«لا تنقل قدميك إلا حيث ترجو ثواب الله، ولا تجلس إلَّا حيث تأمن غالبًا من معصية الله، ولا تصطفِ لنفسك إلا من تزداد به يقينًا، وقليل ما هم.»

ترك المعهد الديني وراءه، ومضى في شارع المسافرخانة المرصوف بقطع البازلت الصغيرة، ببيوته القديمة، والأبواب والنوافذ العالية، والحجارة البيضاء. أسلم نفسه لظلام الحواري الضيقة، المتشابكة، المتداخلة، وإن تناثرت أضواء شاحبة من أخصة النوافذ المغلقة. ثمة بيوت مغلقة الأبواب، وبيوت فتحت عن آخرها، وإن احتوت للظلمة مداخلها، فلا تبين عن شيء، وهدأت الأصوات، وخفتت. تحولت إلى همهمات هامسة بعيدة.

لم يشعر بالخوف. الجن والعفاريت سجنها رمضان. يستطيع المرور في أي وقت، دون أن يخشى أذاها:

يا رمضان يا عود كبريت   يا مقيد كل العفاريت

أُغلقت أبواب الجحيم، وفُتحت أبواب الجنة، وصُفدت العفاريت والجان والمردة والغيلان في قمائم من النحاس. لا يظهرون طول الشهر، ليستطيع الناس الحياة في أمن وسلام.

كانت الجان والعفاريت تترصد له في ناصية حارة الشاروني، في الجانب المظلم المفضي إلى السيالة. يعرفها بمجرد اقترابه. لها تكوين البشر، لكن حركاتها القافزة تكشفها. يقترب، ولا يتوقف. تؤذي من يبدي خوفه. يتلو ما يسعفه به لسانه من آيات القرآن، فتفزع وتختفي.

كانت الأقدام قد خفت من الميدان والشوارع المحيطة، وأُغلقت الدكاكين. انداح الظلام، ما عدا ذبالات الفوانيس المرتعشة في الأركان.

ائتنس بالظلال التي صنعها تعدد لمبات الشارع، والأضواء المتسللة من النوافذ المغلقة. تلازم الظلال خطواته. تسبقه، وتجاوزه، وتتبعه. يعتبر نفسه سائرًا في جماعة تؤنسه وتسلِّيه.

توقف لرؤية أولاد أمام إسطبل التميمي بالسيالة. يهزون الفوانيس ويغنون:

الدكان ده كله عمار وصاحبه ربنا يحميه

شوح التميمي بيده — ناحيتهم — في غضب، فعلت أصواتهم:

الدكان ده كله خراب وصاحبه ربنا يعميه

رمضان ...

طلقة مدفع الإفطار تترامى من قلعة قايتباي، يمتص صداها البحر، فلا تسمعها الأحياء البعيدة.

مولد سيدي ياقوت العرش موعده في أيام الشهر. تسبقه المظاهر التي تهب الشهر ملامحه. خلو الشوارع إلى العصر، وإغلاق الدكاكين، والزحام الخانق قبل انطلاق مدفع الإفطار، وموائد حمادة بك أمام فرن التمرازية: الفول النابت والأرز والفتة وقطع اللحم المسلوق، وتدلِّي المسابح من الأيدي، وحلقات الذكر والتسابيح، وقراءة كتب للدين، وصلاة التراويح، وتلاوة القرآن في حديقة سراي رأس التين، يتردد في الحديقة الواسعة في هيئة

حدوة الحصان، طيلة ليالي الشهر، آيات القرآن، وخدم السراي يطوفون على الناس بصواني الحلوى والقهوة والشاي، وثمة الكنافة والقطايف والنقل وقمر الدين وقلل الماء البارد والفوانيس والزينات والأعلام الملونة والأضواء والسهر والحركة والتمشي على الكورنيش والفرجة ورائحة البخور … حتى مآذن الجوامع تُضاء إلى ما بعد صلاة الفجر.

قال عبد الوهاب مرزوق: رمضان ليس مجرد شهر مبارك. إنه ملك عظيم، بل هو أقرب الملائكة إلى الله سبحانه.

واتجه بنظرته إلى محيي قبطان: كل الناس تفقد من وزنها في رمضان … ما عدا محيي.

قال محيي قبطان: أنا لا أفطر يومًا واحدًا.

قال قاسم الغرياني: ومن أنكر؟ … لكنك تأكل بمقام أربعة في إفطار سراي الملك.

تجعدت جبهته: كذب! … لم أتردد على إفطار الملك في رأس التين إلا مرة واحدة أسبوع …

قال حمودة هلول: أنا أذهب كل يوم … وألتقي بك كل يوم!

كان يحرص على الجلوس في المقاعد الأمامية. يحجزها الخدم للوجهاء والأعيان والمعلمين وموظفي الحكومة. يدخل السرادق — عندما يأذن الحرس الملكي — عقب صلاة التراويح.

قال قاسم الغرياني: لو أن المعلمة أنصاف أقامت فرعًا لنشاطها في المولد.

قال محمود عباس الخوالقة: منه لله سيد الفران … استأثر بأنسية وحده!

قال الغرياني: تزوجها على سنة الله ورسوله.

قال محمود: كانت تقضي …

قال الغرياني في لهجة معاتبة: يا رجل! … سيد صاحبك!

قال محمود: ألم يجد إلا أنسية ليتزوجها؟!

قطب عم إبراهيم القسط جبهته متذكرًا: زكي تعلب؟

ثم وهو يهز رأسه: نعم … طرد من المعهد، وسافر إلى بلدته.

اتسعت عيناه بالقلق: لماذا؟

– سألت عنه المباحث لصلته بالإخوان المسلمين … ففصلته إدارة المعهد.

– هل أُلقي القبض عليه؟

مط القسط شفته السفلى: لا أعرف! ... ودعته حتى نهاية المسافرخانة ... شيخنا يرفض اشتغال الطلبة بالسياسة.

أردف الرجل بصوت هامس: قيل إنه فُصل لانتمائه إلى جماعة سرية.

قال طالب التقى بالراكشي في حجرة زكي تعلب، إن الحكومة ليست راضية عن نشاط الطلبة. تحالفوا مع الوفد، أو مع الإخوان المسلمين. أوقفت الحكومة دعم المعهد، فعانى الطلبة. تحولوا إلى مهزومين. وغابت العناية عن المبنى: انتشر البلى والوسخ، وتشققت الجدران، وتساقط الطلاء.

لما أبدى زكي تعلب ضيقه مما يجري، أمر شيخ المعهد بفصله.

اعتاد — في الأيام الماضية — أن يتردد على المعهد. يدخل الباب الحديدي الضخم. يسبقه نبوت، حمله للمرة الأولى ليطرد الأولاد حين يعاكسونه. يصعد الدرجات الرخامية. يطالعه في الردهة الواسعة زحام الطلبة وصخبهم. عرف الطريق إلى حجرة زكي تعلب. الثانية على اليمين، في الطابق الثاني. تطل على منور خلفي، وعلى حجرات الطلبة المقابلة. ينضم إلى زكي تعلب، وإلى الطلبة المقيمين معه، والمترددين عليه. يخوضون في أحاديث تبدأ ولا تنتهي. يتناهى من حجرة قريبة، تواشيح للشيخ علي محمود. يهتف أحدهم: جعنا. توضع الطبلية، فوقها أرغفة الخبز، وأطباق العدس والفول النابت والفول المدمس ... ثم تشغي الحجرة بالحكايات والمناقشات والنداءات والهمس والمذاكرة واندلاق أدوار الشاي في الأكواب. وثمة — من المطابخ — أصوات الحنفيات المفتوحة والملاعق والشوك والسكاكين والأكواب ورنين المغرفة في داخل الحلل.

كان يواصل السير، يقطع منازل السائرين، ومراحل السالكين. يلتذ بالصبر في تحمل المشقة، ويكتفى بأكل القراقيش والليمون المالح. حمل سلسلة تتطوح بمجمرة بخور، ينادي بآخر ما عنده على المدد من أولياء الله الصالحين، فلما لحقت النار ذيل جلبابه، ألقي بالمجمرة بعيدًا، فلم يحملها ثانية.

أزمع أن يستبدل المتاع الأخروي الباقي، بالحطام الدنيوي الفاني ... عدَّ نفسه من الموتى، ولولا خوفه من غضب الله، لتمنى مفارقة هذا العالم. صار حاله في زمن الحال. لا يشغله الماضي، ولا المستقبل. نور في قلبه، يشغله دائمًا بأمور الآخرة. سطعت الشمس في داخله بشدة، اجتذبته، لفته، استغرقته في أضوائها المبهرة، فذابت نفسه. انقشعت أمام عينيه سحب الأغيار والأشكال والإشكال. وامتلأ القلب بعظمة الله ومحبته وجلاله. حل

فيه النور، ونزلت السكينة. تجاوز الحدود الخلفية. لم يعد على صلة بالخلق ورسومهم. أزالهم من نفسه، وانفرد إلى الحق.

كانت الرؤى تأتيه عقب أذان الفجر. اللحظات التي تشتد فيها الظلمة. لا يدري إن كان ما يشاهده في نوم أم في يقظة. يدفع نفسه إلى التأكد مما حوله.

تداخلت الرؤى فلم يعد يدري ما الحلم، وما رآه رؤية العين. كالصور الباهتة، كالأصداء البعيدة، مساومات الحلقة، وجلسات قهوة الزردوني، وطرقعات الكوتشينة والنرد، ونداءات الجرسون ياقوت، ودرس المغرب في أبو العباس، وتهدجات الذكر، وسهرات حمام الأنفوشي، ومطالب المرأة والأولاد. استغنى بالله عن الكل، لا يحفل بهم، ولا يلتفت إليهم، ولا ينصت إلى كلامهم، ولا يعتذر لهم على أي نحو، وآثر ما يبقى على ما يفنى.

انسلخ من نفسه، وانقطع عن الوجود إلى الله. اتصلت حياته به، وأصبح كله له. استغنى به عما سواه، وآثره على ما دونه. توكل عليه، وعكف ببابه، ورضي بقضائه، وهجر له الأهل والأصدقاء. هرب من الخلائق مستأنسًا به، مستوحشًا مما سواه. صان قلبه عن الاتساع لغير المحبوب. جعله بيتًا مقدسًا طاهرًا من التعلق بالغير. مضى في قلب التجليات الجاذبة إلى الفناء، خلَّف وراءه البرق، وتشوق إلى الهمس في الذات، والسياحة، والانقطاع في الجبال والشعاب وبطون الأودية، لا يختلط، ولا يراه أحد، ولا يرى أحدًا، وإن رأى نفسه في جلوة الخليفة. هو الخليفة نفسه، وهو شيخ السجادة. يمتطي الحصان، يحيط به الأتباع والمريدون، والبيارق والرايات والتهليل والإنشاد والزغاريد.

رأى — أول السيالة — طاطا الخباز بفرن التمرازية، يقود دراجة بيد، ويحمل طاولة خبز باليد الأخرى.

– إلى أين؟

– مطعم النبلاء.

قال الراكشي: هل تبيعون له العيش الرجوع؟

– طلب حمادة بك إرساله إلى المطعم.

ثم وهو يواصل السير: يستخدمونه في عجينة الفلافل!

بدا ميدان المساجد كالسوق. تخلى عنه الهدوء، وتعالى في جنباته التكبيرات وعبارات التوحيد والصلاة على النبي والزعيق والنداءات والابتهالات ودقات الدفوف والزغاريد، وتناثرت أضواء الكلوبات، تبين عن السرادقات وخيام الخدمة وسواتر الأقمشة والأكشاك وعربات اليد وشوادر الحمص وحب العزيز وخيام الكنافة والقطايف وفرق الصوفية

والإنشاد والمريدين وحلقات الذكر وطوفان الزوار المتجهين إلى الباب الرئيس لجامع ياقوت للعرش وألعاب النشان والقوة والرايات والبيارق، وتضوع المكان بروائح البخور والعطور والشواء، ورددت مواكب الأطفال:

اقروا الفاتحة لسيدي ياقوت   واللي ما يرضى يطق يموت

تنبه لصيحة مفاجئة:

هل هلالك شهر مبارك ... على أمة الإسلام.

وعلا — متغنيًا — صوت الرجل الواقف أمام الباب الجانبي لأبو العباس:

يا رمضان يا صحن نحاس   يا داير في بلاد الناس
سقت عليك أبو العباس   تبات عندنا الليلة

الشيخ جمعة. الموالد موطنه. ينتقل من مولد إلى آخر. يحفظ مواعيد البدء والانتهاء: القنائي ... الحجاجي ... الدسوقي ... البدوي ... البوصيري ... أبو العباس ... السيوطي ... يحرص على حضور مولد أبو الحسن الشاذلي. وقفة عرفات . يخوض زحام البشر والسيارات وحلقات الذكر والخيام ودماء الأضاحي. يصبح قطرة في بحر الألوف المحيطين بضريح قطب الأقطاب في وادي حميثرة. يشارك في الطواف بكسوة مقام الشاذلي، يمسك — أو يلمس — أطرافها. يردد عبارات التكبير والتوحيد والصلاة على النبي.

قال الشاذلي عند موته: والله، لقد جئت في هذا الطريق بما لم يأتِ به أحد.

دُفن بحميثرة، وغُسِّل من مائها، فكثر الماء بعد ذلك، وعَذُب، فصار يكفي الركب إذا نزل عليه، ولم يكن قبل ذلك كذلك.

قال الشيخ جابر: استصحب سيدي أبو العباس المرسي، شيخه أبا الحسن الشاذلي، في رحلتهما الأخيرة إلى الأراضي الحجازية. ولما وصلا قنا، اشترى الشاذلي مكتلًا وفأسًا وقماشًا أبيض، وحمله لتلميذه أبي العباس، فسأله: ولمَ هذه الأشياء، ونحن غير قادرين على السير بمفردنا؟

قال أبو الحسن: عند «حميثرة» سوف ترى.

وسارا حتى وصلا عيذاب، بالقرب من إدفو. وعند وادي حميثرة طلب الشاذلي من أبو العباس أن يملأ الإناء ماءً، فملأه. وهنا قال أبو الحسن: يا أبا العباس ... الآن وقد

أعددت لك كل شيء، وحفرت هذه الحفرة، وسوف ألقى الله بعد قليل ... فعليك أن تغسِّلني، وتكفنني. وسوف يحضر إليك رجل يساعدك في دفني، فلا تسأله من أنت.

وقام الشاذلي، فتوضأ، وصلى. بعد أن فرغ من صلاته، نطق بالشهادتين، ولقي ربه.

نفذ أبو العباس كلام شيخه.

يُمضي الشيخ جمعة ليلة عرفات وصباح العيد في أقرب مكان إلى الضريح. يحرص أن يشارك في حمل كسوة المقام الحريرية الخضراء، تطوف على إيقاع الذكر والتكبير، حتى المسجد. يتكرر الطواف سبعًا حول المقام، ثم يتسلم الكسوة خدم الضريح. يميل — عقب أيام المولد — إلى ضريح سيدي سالم. يطوف حوله ثلاث مرات، التماسًا للمدد، وتجنبًا لإشعاره بالغيرة.

صعد علي الراكشي درجات السلم الرخامية.

لم يعد تردده على الجامع مثلما كان في القديم . انتصر السلطان له على الإمام وجلسائه، لكن الأحوال ظلت كما هي. الحاج قنديل وحده أخذته هيبة الموقف، فغابت — من يومها — شتائمه، وراعى خاطر الله في معاملاته. قصر تردده للصلاة على ياقوت العرش، يؤدي ركعات الفرض والسنة. يجلس إلى جابر برغوت. يسأله، أو يرد على أسئلته، ثم يأخذ طريقه إلى باب الجامع لا يختار غاية محددة. قد يجول في ميدان أبو العباس، أو يطيل التوقف على شاطئ الكورنيش، يرقب قدوم البلانسات والفلايك، وابتعادها في انحناءة الميناء الشرقية. وربما مضى إلى زحام شارع الميدان.

قال له سيد الفران وهو يحاذيه في خطوات الصعود إلى الجامع: الرجل أبو شنب ... لم أكن أراه في الفرن، كما أراه الآن في أيام المولد!

قال الراكشي: كن متكلًا ولا تضعه في مخك.

ثم وهو يشيح بيده: لك الآن تجارتك!

أظهر سيد التصعب: يدهشني تنقله بين الأكشاك والخيام والغرز ... كأنه مسئول عن إعاشة الناس!

تناثر في أرجاء الجامع أفراد ومجموعات، يصلون، ويتلون القرآن، ويستندون إلى الجدران، ويتبادلون الأحاديث. وثمة أعداد لا تنقطع من النسوة، يدخلن الباب المواجه للمقام. يطفن حوله، يهمسن بتلاوات وأدعية.

اجتذبه صوت: أما كنت تعبد الله لو لم يكن هناك خوف من النار وحب في الجنة؟!

نظر إلى الرجل بجانب عينه. جلس في طرف البسطة الأولى من الدرجات الرخامية. الشيخ حماد. قامته الطويلة، وشعره المهوش المنسدل على كتفيه، وعيناه المحدقتان فيما

يصعب تبينه، وفمه المنفرج عن شفتين متدليتين، وأنفه الدائم الزكام، وملابسه التي تداخلت بالسواد في جسده.

هم بالميل ناحية الرجل، لكن قوة غامضة، غلَّابة، رقت به الدرجات إلى داخل الجامع.

في حضرة ياقوت العرش

أخبر أبو العباس المرسي بخليفته ياقوت العرش، يوم ولِد ببلاد الحبشة، وصنع له عصيدة، أيام الصيف بالإسكندرية.
قيل له: إن العصيدة لا تكون إلا في أيام الشتاء.
قال: هذه عصيدة أخيكم ياقوت. ولِد ببلاد الحبشة، وسوف يأتيكم.
فكان الأمر كما قال.

قال النبهاني: «سمي العرش لأن قلبه كان ينظر دائمًا إلى العرش، وليس بالأرض إلا بدنه. ومن كراماته أنه إذا كان قُدم إليه طعام ليأكله وفيه شبهة، وجد عليه ظلمة محسوسة كالمسكنة، فيتركه. وكان يشفع في الحيوان والطير.»

دخل شريف على ياقوت العرش بثياب رثة، فوجده بثياب غالية.
قال له الشريف: أنت يا مقلب الشفاتير يا مشقق الحوافر، بهذا الحال ... وأنا بهذا الحال؟
قال ياقوت العرش: لعلي نهجت نهج آبائك فحسبوني منهم، فأنزلوني منزلتهم.
بكي الشريف، واعتذر له.

حين ظهر لي سيدي ياقوت العرش، اجتذبتني الرهبة.

لم يكن خوفًا، ولا يشبهه. أعرف الكثير الكثير من كرامات سيدي ومكاشفاته. حكايات أتاح لي تثبتها، وروايتها. جلوسي — ساعات طويلة — خلال ما يقرب من السنوات العشرين، في صحن جامع سيدي ياقوت العرش. أرقب — وأجالس — الداخلين والخارجين والمصلين والذاكرين والطائفين حول مقام صاحب الضريح، رضي الله عنه.

كنت أتلو آيات القرآن، وأؤذن للصلاة. أفتح أبواب الجامع قبل صلاة الفجر، وأغلقها بعد صلاة العشاء. سمعت وشاهدت ما لم يغادر خاطري ولا ذاكرتي. جلست إلى العابرين في ترددهم على الجامع. قدموا لأداء نذر، أو لحلول موعد الصلاة وهم بالقرب منه. وجلست إلى دائمي التردد على الجامع من مريدي أبو العباس المرسي، عارفي فضل سيدي العرش في حياته، خادمه، وزوج ابنته، وصفيه، وتلميذه، يلبدون أركان الجامع، وعلى سلالم الأبواب، ولصق الجدران.

دونت ما استمعت إليه، وشاهدته، في أوراق كثيرة. تعهدتها بالتسوية والترتيب، والتنقيح، والتأكد من المعلومة الصحيحة. أخذت ما سجلته من أهل الثقة، وما شاهدته بنفسي. لم أترك لقلمي رواية ما لم أتأكد من حدوثه. ساعدني على ذلك أن الروايات مأخوذة من أشخاص مشهود لهم بالعلم والأمانة. لا أترك التفصيلات، مهما بدت صغيرة. ما يبدو تافهًا قد يبين توالي الأحداث عن أهميته، والشخصية التي لا شأن لها، ربما — في لحظة ما — تسفر عن ملامحها. تمنيت على الله أن يكرمني بالفهم والحفظ حتى لا أنسى كلمة مما قرأت أو شاهدت أو سمعت. حقق الله أمنيتي، فلم يُسقط ذهني أيَّ شيء.

الله — سبحانه — هو الذي يصطفى الأنبياء والرسل والأولياء والعلماء والمصلحين. محمد هو آخر الأنبياء. الرسالة المحمدية هي مسك الختام، والعلماء — كما تعلم — هم ورثة الأنبياء. ما قاله الرسول العظيم، وقال به علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل. حين يجيد العالم السباحة في بحر العلم، فإنه يصبح وليًّا. يضعه علمه على مشارف الحقيقة. ثم يصبح في قلبها. لتوضح كراماته ومكاشفاته ومعجزاته وخوارقه.

التصريف بالمقدرة الإلهية لا يكون إلا لولي. أولياء الله كالشمس الدنيا، والعافية للناس. الأولياء هم الذين آمنوا، وكانوا يتقون. هم الذين قالوا: ربنا الله، ثم استقاموا.

قال الرسول: إن من عباد الله عبادًا يغبطهم الأنبياء والشهداء.

قيل: من هم يا رسول الله؟

قال: هم قوم تحابوا بروح الله على غير أموال وأنساب. وجوههم نور، وهم على منابر من نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس. ثم تلا قول الله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

وقال سيدنا المرسي أبو العباس: معرفة الولي أصعب من معرفة الله — عز وجل — فإن الله تعالى معروف بكماله وجماله. وحتى متى تعرف مخلوقًا مثلك، يأكل كما تأكل، ويشرب كما تشرب؟

وقال المرسي: الأدنى يشرف على الأعلى، ولا يحيط به، والأعلى يحيط بالأدنى … فالأولياء لهم إشراف على مقامات الأنبياء، وما لهم الإحاطة بمقاماتهم، والأنبياء يحيطون بمقامات الأولياء.

كان اليوم شديد الحرارة. وكان جماعة من أصحاب أبي العباس في ضيافته، فقدَّم لهم عصيدة.

قال أحدهم: يا أبا العباس … لا تؤكل العصيدة إلا في أيام الشتاء.

قال أبو العباس: هذه عصيدة ياقوت … ولِد اليوم ببلاد الحبشة.

وظل ياقوت يباع ويشترى، إلى أن جاء إلى أبي العباس. حسبوا عمره، فتأكدوا من نبوءة السلطان.

هو محمد بن سعيد بن حماد بن محسن بن أبي سرور بن حبان عبد الله العرش الشاذلي. يكنى بشرف الدين. من بني حبنون، أحد فروع قبيلة «صهناجة» بالمغرب العربي. نسبه إلى قطب الأقطاب، سيدي أبو الحسن الشاذلي.

اشتراه التاجر رضي الدين إبراهيم الإسكندراني، من أسواق الحبشة، وحمله في مركبه — ضمن ما اشتراه — ليبيعه في موطنه ببلاد المغرب … لكن العاصفة فاجأتهم في قلب البحر، وعلت الأمواج، وهددت المركب بالغرق. فدعا التاجر ربه قائلًا: يا رب … لئن نجيتني، ونجيت تجارتي، لأهبن عبدي ياقوتًا لعبدك الصالح أبي العباس المرسي.

وسكنت العاصفة — حالًا — وهدأت الريح، واستوت المراكب في انطلاقها، وأمن التاجر على تجارته. فلما وصل إلى الإسكندرية، وأراد أن ينفذ ما اعتزمه، فوجئ بأن العبد ياقوت أصيب بقروح في رأسه، فاستحى أن يهب السلطان عبدًا أقرع، بعد أن نجاه الله — بفضل السلطان — من الغرق. وذهب إلى سوق النخاسة، واشترى غلامًا جميل الصورة، وذهب به إلى أبو العباس.

فاجأه المرسي بالقول: أهذا الذي نذرته يا رضي الدين؟

ثم بلهجة يخالطها غضب: ما لك وما له؟ … أتعرف منزلة هذا العبد من ربه، وقربه منه؟

وذهب التاجر، وعاد بياقوت. فاستقبله السلطان بالبشر، وألبسه طاقيته، فشفاه الله.

اتصل ياقوت العرش بأستاذه أبي العباس، وأخذ عنه، وتأدَّب، وقام على خدمته، وصار من أخلص المقربين إليه.

أعلن حاكم الإسكندرية ضيقه، فهو يمر على أبي العباس بين أصحابه. يقف الأصحاب احترامًا، ويظل المرسي في جلسته. زاد من ضيق الحاكم أن أبا العباس كان يقف إذا مر عليه أحد خدمه.

قال الحاكم: كيف تقف لخادمك ولا تقف لي؟

لم يرد أبو العباس، وطلب الخادم.

قال الأصحاب، إنه يجمع فتات الخبز الذي خلَّفه الآكلون!

قال أبو العباس: ليأتِ، ومعه فتات الخبز في يده.

وطلب أبو العباس من الخادم أن يفتح يده التي تقبض على فتات الخبز. فتحها الخادم، فهتف الحاكم في عجب: ياقوت!

وسمِّي الخادم ياقوت. ولزم مجلس السلطان لا يغادره، حتى مات، فدفن في المسجد.

سمِّي العرش، لأن قلبه كان لم يزل تحت العرش الإلهي، وما في هذه الدنيا إلا جسده الفاني. أخذ عن شيخه المرسي في المعارف والعلوم. لازمه فلم يفارقه. تعلَّم على يديه، وتابع حركاته وسكناته، ولاحظ كيف يأخذ أموره: متى ينصت، ومتى يتكلم، وقراءاته، وأحاديثه، وأفعاله. لجأ إليه فيما غمض عليه من أمور دينه ودنياه. ناقشه، سأله، أذن له المرسي بالخوض في بحار الشك، لا يضايقه إن جاوز حدود العقل.

قال ياقوت العرش: كنت بمدينة الإسكندرية. وكنت أتعبد في مسجد بخارج المدينة، فبقيت فيه مواصلًا ثلاثة أيام، فأصابني الجوع، فدخلت الإسكندرية قاصدًا الشيخ أبو العباس، فوجدت في طريقي درهمًا، فأردت أن أشتري به خبزًا وإدامًا، فرأيت في السوق زبيبًا طيبًا. وكنت أعلم أن أبا العباس يحبه؛ لأنه من بلاد الأندلس. وهو كثير ببلاده. فاشتريت الزبيب، وآثرته على نفسي، وقصدت إليه، فوجدته جالسًا في القلعة، لأنه كان يسكنها بعد الشيخ أبو الحسن، فوضعت الزبيب بين يديه، وجلست ساعة. ولما هممت بالانصراف، أمهلني الشيخ، وقال لي: اجلس!

فجلست. فإذا برجل يدخل علينا بمائدة، عليها رقاق طيب وبعض الطيور.

فقال لي الشيخ: كُلْ ... فهذا فتوحك لما آثرتني على نفسك وأنت جائع.

قال: فأكلت حتى امتلأت. ثم أمرني أن أوزع الباقي على الفقراء. وعند قيامي، قال لي الشيخ: احمل الزبيب معك، فنحن قوم لا تحل لنا اللقطة.

حين أراد الناصر بن محمد بن قلاوون، ابن والي مصر آنذاك، أن يخطب مهجة بنت سيدي المرسي أبو العباس لنفسه — وكانت بالغة الجمال — رفض أبو العباس، واختار لها زوجًا، عبده ياقوت، بعد أن اعتقه.

قضى سيدي ياقوت العرش معظم عمره في خدمة سيدي أبو العباس المرسي. تزوج ابنته، وإن لم يصبح خليفته. لا لعيب فيه، وإنما لأن خلفاء أبو العباس هم مئات التلاميذ والمريدين الذين أخذوا على يديه.

تعلم الكثير الكثير من أحوال المرسي. اعتقاداته وخواطره وأسراره ومطالع أنواره ومكاشفاته ومشاهداته ومسامراته وأفعاله.

روى أنه كان في سوق للسمك خارج الإسكندرية، عندما أتى إليه فقير من عند أبو العباس، ليشتري سمكًا. تنقل معه ياقوت العرش بين الباعة، فلم يجد سمكة واحدة.

قال: فاجتمعت بجماعة من الصيادين، وطلبت من رئيسهم أن يصيد لنا شيئًا.

فقال لي: إن هذه الريح يتعذر فيها الصيد (وكان نصرانيًّا).

فقلت له: ادخل على بركة الله، فإن للشيخ كرامة.

فقال: ما يخالف الله العادة.

فعرضت عليه أجره، وأجر رجاله. فقبل، ودخل البحر، ومد شبكته، وجرها إلى الساحل، فإذا بها سمك كثير، ما رأوا مثله من قبل، فتعجب الحاضرون لذلك، فرد رئيس الصيادين، فقال: هذه بركة ... لأدخلن على بركة فلان الراهب.

فدخل بالشبكة، فلم يخرج فيها غير الوطاويط. وهو نوع لا يؤكل ولا ينتفع به.

قال: فرجعت بالسمك. وكان به سمكة كبيرة الحجم. وفي الطريق رآها يهودي، وطلب شراءها، فامتنعت، وأرسلت بالسمك كله إلى سيدي أبي العباس، فما إن رأى السمكة حتى قال: ارفعوا هذه السمكة، وردوها إلى ياقوت يعطيها لليهودي، فإن له زوجة حاملًا، اشتهت السمك، وليس اليوم من سمك.

قال: فرددت السمكة إلى اليهودي، وأخبرته بقول الشيخ، فأسلم هو وجماعة من اليهود، وبعض صيادي السمك، منهم صاحب الشبكة.

روى سيدي ياقوت العرش أن رجلًا قدم له طعامًا، فرأى عليه ظلمة كالمكب.

قال ياقوت العرش في نفسه: هذا حرام!

وامتنع عن الأكل.

ثم دخل على المرسي. وما كاد يطمئن إلى جلسته، حتى ابتدره السلطان: ومن جهلة المريدين من يقدم له طعام، فيرى عليه ظلمة، فيقول: هذا حرام.

وأردف السلطان متصعبًا: مسكين أنت ... ما ساوى ورعك سوء ظنك في أخيك المسلم. هلا قلت لي: هذا طعام لم يردني الله به.

عُرف عنه ميله إلى صوم النهار وقيام الليل، حتى في الأيام التي يرهقه الضعف لمرض، أو لبذل مجهود في العمل. وعُرف عنه الاشتغال بالذكر والعبادة، والغنى عن الناس، والقناعة، والرضا بالقليل من المأكل والملبس، وهجر الشهوات، والمجاهدة، والورع، وقلة النوم والكلام، وعدم مبارحة المسجد إلا لضرورة.

لم يتعمد إظهار الكرامات، ولا خوارق الأحوال، ولا إنشاء البراهين. وكان يغلب على حاله السكينة والوقار، فهو يحسن الإنصات، ويتحدث بقدر المعنى، فلا يستطرد. يخشع في صفات الله: الكبرياء والعزة والقوة والقدرة والجلال واللطف والكرم والعلم المحيط بكل شيء. والتف حوله مريدون وتلاميذ، والتمس الناس — حيث يقيم، أو يزور، أو يمشي — بركاته ودعواته. عرفوا عنه أنه من أهل المحبة الإلهية، ومن أصحاب المكاشفات القلبية. وتخرج عليه العديد من المريدين، في المجاهدة والخلوة. وظل له احترامه وتوقيره بين الطائفة الشاذلية.

حقق خوارق ومعجزات وآيات لا حصر لها، ولا مستحيل أمامها. أضاء نور علمه جنبات الإسكندرية. اشتهر بمواجيده وأحواله. أفاد بكراماته ومكاشفاته أبناء الطائفة الشاذلية، في كل البلاد التي أقاموا بها.

روى الناس عن قدرته. وقيلت عنه خوارق: كان يصيد السمك دون سنارة، أو شباك. يمد يده في الماء. تصعد بالماء والسمك. ينساب الماء من بين أصابعه، ويبقى السمك. وكان يمد يده في الهواء، يلتقط الطعام فيكفي المريدين من الفقراء ويزيد، تنزل عليه الطيور الكاسرة بأجنحتها لا تنفر منه ولا تهاجمه، يعرف كلامها وتعرف كلامه، وضايقته الشمس في زيارة له إلى صديق بصحراء المتراس، فكوَّن الطير سحابة، ظللته في سيره، حتى وصل إلى البيت الذي يقصده.

كان يغمض عينيه. ينظر بخياله إلى قلبه. وقيل إن الله — سبحانه — صرفه في جميع مملكته، وأطلعه على الكثير من علوم الغيب. لم يخلف إنتاجًا مكتوبًا، لكنه خلف شهرة واسعة بخلقه وصفاته.

قيل إنه كان يمتلك مسبحة هائلة الحجم، ينتظم في عقدها ألف حبة في البيضة، صُنعت من خشب الصندل، ذي الرائحة الذكية النفاذة، وقيل إنه كان يبول على الرصاص، فيستحيل ذهبًا، ويبول على الصفيح، فيتحول ماسًا وأحجارًا كريمة بإذن الله.

كان جالسًا في حلقة الفقراء، فجاءته يمامة، وجلست على كتفه، وأسرت إليه شيئًا في أذنه، فقال: باسم الله، ونرسل معك أحدًا من الفقراء.

قالت اليمامة: ما يكفيني إلا أنت!

ركب سيدي ياقوت بغلة من الإسكندرية، وسافر إلى جامع عمرو بن العاص بمصر القديمة، وقال: اجمعوني على فلان المؤذن.

وجاء المؤذن، فقال له ياقوت العرش: هذه اليمامة أخبرتني في الإسكندرية أنك تذبح فراخها كلما تفرخ في المنارة.

قال المؤذن: صدقت ... قد ذبحتهم مرارًا.

قال ياقوت: لا تعد!

قال للمؤذن: تبت إلى الله تعالى.

أنكر الشيخ شمس الدين بن اللبان على سيدي أحمد البدوي، فسلب البدوي علمه وحاله.

توسل الشيخ شمس الدين بجميع الأولياء، فلم يقبل البدوي شفاعتهم فيه.

سار ياقوت العرش من الإسكندرية إلى طنطا. رجا للبدوي أن يطيب خاطره على شمس الدين، وأن يرد عليه حاله. فأجابه البدوي، حبًّا له وإعظامًا لمكانته. زاد ياقوت، فزوج ابن اللبان ابنته. فلما أحس شمس الدين بدنو الأجل، أوصى أن يدفن تحت رجلي زوجته، تقديرًا لمكانة أبيها.

لما وضع مؤلف «التنوير في إسقاط التدبير» كتابه، وضمنه علومًا ومعارف كثيرة، اطلع عليه ياقوت العرش، فقال له: جميع ما قلت مجموع في بيتين، هما:

ما تم إلا ما أراد	فاترك همومك وانطرح
واترك شواغلك التي	شُغلت بها تسترح
... ...	...
... ...	...

للتأكد، تلوت آية الكرسي، وأسماء الله الحسنى.

ظل الجسم النحيل في موضعه، والشعاع النفاذ، الهادئ، ينبعث من العينين الواسعتين، المكحولتين. وكان يرتدي عباءة من الجوخ الأخضر، تحتها قفطان مزهر، به خطوط خضراء، ويحيط وسطه بحزام أخضر وعلى رأسه عمامة هائلة، ودس قدميه في بلغة مغربية.

خنقني الخوف، فتلعثمت. رهبة الموقف أضاعت الكلمات. قرأت — في لهوجة — الفاتحة، وقل أعوذ برب الناس، وقل هو الله أحد. وقرأت آية الكرسي، وعدية يس، لكنه ظل في وقفته.

أخلى — سيدي — وجهه لابتسامة رائقة، طيبة، وقال: من تظنني يا جابر؟

وأنا أغالب الرهبة: سيدي ياقوت العرش.

وهو يغرقني في فيض ضيائه: تلاوة القرآن، أللخوف أم للحب؟

جاهدت حتى لا يشي صوتي بما أعانيه: هو الحب يا مولاي.

قال في ابتسامته الرائقة، الطيبة: غفر الله لك ما أملاه عليك خوفك!

ثم وهو يجري بأصابعه على حبات المسبحة: سأكلفك بما لا تقوى نفسي الضعيفة على احتماله.

همست بالتهيب: وكيف أحتمل ما لا يقوى عليه سيدي؟

روى لي عن اليوم الذي غادر فيه السلطان مرقده. خاطب المترددين على مقامه. عاب الأفعال الخاطئة، وانتصف للائذين بحضرته. ثم ارتخت شدة الغربال.

قال وهو يضم أطراف عباءته: أنا خادم السلطان وتلميذه ... ومن واجبي أن أنفذ أوامره.

قلت في لهفة خائفة: وأنا خادمك يا سيدي ... ومن واجبي أن أنفذ أوامرك.

سبحت نظراته في آفاق غير مرئية: لقد أدى كل منا ما عليه ... والدور قادم على الأنفوشي.

انتزعت السؤال: ماذا؟

أحنى رأسه، ورفعها بالضياء: بل من ... ولي الله الأنفوشي.

أخليت السبيل لجرأتي: هل هناك ولي بهذا الاسم؟

في ابتسامته الطيبة: لأن أمور ديننا استغرقتنا، فقد أوكل إليه السلطان أمور دنيا الناس، فهو أدرى بها.

استطرد موضحًا: سيدي السلطان مشغولياته لا تحد في أمور الدين، بما يصرفه عن أمور الدنيا.

ثم وهو يهز رأسه في تأثر: هذا حالي، وأحوال أولياء الحي.

ودس المسبحة في جيب العباءة: اسم ولي الله الأنفوشي — كما تعلم — على معظم الحي.

وضغط على الكلمات: الجأ إلى ولي الله الأنفوشي!

قلت في لهجة متذللة: أنا لا أصلح لهذه المهمة ... ورائي تبعات بيتي وأولادي.

قال سيدي ياقوت العرش: هذا أمر سيدنا المرسي ... ولا بد لك منه!

رنوت إليه بنظرة مستغيثة: وأين أجد سيدي الأنفوشي؟

كان قد اختفى.

عاد المكان إلى مألوف هدوئه، وذوى الضوء الباهر الذي غشيني، وإن ظل يملأ قلبي. واستقر المقام في وضعه، كأنه لم يغادره أحد. ثمة الصحن، والأعمدة، والمنبر، والحصير، والسجاد، والعقود المحملة بالجفوت والخناصر والميهات والزخارف الجصية، والمبخرة يتضوع منها بخور اللبان والجاوى والمستكة، والأضواء الخافتة.

عرفت أن سيدي أبلغني الرسالة، ومضى. مشغولياته — وأولياء الله الصالحين — لا تحد في أمور الدين، بما يصرفهم — غصبًا — عن أمور الدنيا.

واجهت السؤال، في اللحظة التالية: أين سيدي الأنفوشي؟

أقول هذا، وأختمه، بالحمد لله رب العالمين، وأستغفر الله العظيم، وسبحان من بيده الأمور، ومصائر البشر. يحيي ويميت، ويعز ويذل، وهو على كل شيء قدير.

الزفاف

دخل حمام الأنفوشي، للمرة الأولى منذ زواجه. توقع الإيماءات والمعايرة. حشد نفسه، وقرر الإجابة بما يؤذي. فاجأه ترحيب الجميع وكلماتهم المعجبة. لم يتحدثوا عنها باسمها. هي الست والبيت الجماعة. حتى محمود الخوالقة، لم يحاول فضح سيرتها، ولا مجرد ذكر. الباب المفتوح أغلقه زواجها من سيد. لم يسألها عن أهلها، ولا حاول أن يتعرف إلى ماضيها. هي التي روت له عن أمها وأبيها وإخوتها وقرية سحالي القريبة من دمنهور. أهداهما صابر الشبلنجي هدية أرسلتها له أمه من رشيد. فسيخ وسردين وليمون وبلح زغلول. ضوع عم. ب داخل الحمام — للتبرك — بخور المستكة، ورفض تقاضي المقابل صابونة لم يسبق استعمالها. وحلق سيد شعر رأسه، وإن ظلت الخصلة على تهدلها، وقلَّم أظافره، ونتف تحت الإبطين، وأزال العانة.

هتف فؤاد أبو شنب للنبأ: هل خلت الدنيا من النساء؟!

قال سيد في هدوء: أنسية لا يعيبها شيء.

تحسس أبو شنب طرف شاربه، وغمز بعينه: لكنها مومس!

داخل صوته تهدج: لا داعي للغلط يا ريس ... البنت ستصبح زوجتي.

أطلق ضحكة من أنفه: بنت؟!

وعلا صوته: ماذا تقول يا مغفل؟! ... إنها عشيقة كل رجال بحري!

قذفه سيد بمقص، وتهيا للعراك.

قال له قاسم الغرياني: كان اسمك سيد الفران ... فماذا أسميك الآن؟

قال سيد: قل لي يا سيد كما كنت تدعوني.

قال حمودة هلول: فلنسمه سيد الكشك. هذه هي التسمية الأنسب!

قال خميس شعبان: هو سيد الفران ... الخبازون أصل الإسكندرية!

فاجأه حمادة بك بحضور عقد القران. تبعه فؤاد أبو شنب. هنأه حمادة بك، وأعطاه نقودًا، ووقع شاهدًا على العقد. وقع أبو شنب — بالحرج — شاهدًا ثانيًا.

لما مد سيدي ياقوت العرش يده من داخل المقام، وأخذ العهد عليها، ونصحها بالذهاب إلى كمال مصباح تاجر المنيفاتورة بشارع الميدان، همست بالقول: حمادة بك أهمل طلب سيدي السلطان ... لماذا لم يعاقبه؟

قال سيد: ألم يتركك الرجل في البيت المهجور ... فهل يطالبه السلطان ببيت جديد تتزوجين فيه؟!

ثم وهو يغتصب ابتسامة: فلنكفِ على كل ما مضى ماجورًا، وننساه.

حين أعد نفسه لترك قهوة كشك إلى بيت البلقطرية، أشفق رواد ليل القهوة من أن تتم الدخلة بلا فرح. أذن المعلم كشك، فسهروا، ورقصوا، وغنوا. بيومي جلال يقذف بالطبلة إلى أعلى، ويتلقفها. صابر الشبلنجي يساعد بالنقر على الطاولة. مصطفى حجازي يغني، وهم يرددون:

يا لي على الترعة حود ع المالح
مالح يا مالح يابو الموالح
شعري بيوجعني ...
من إيه؟
من مسك امبارح.
يا لي ع الترعة حود ع المالح
مالح يا مالح يابو الموالح
رجلي بتوجعني ...
من إيه؟
من مشي امبارح.
يا لي ع الترعة حود ع المالح
بُقي بيوجعني ...
من إيه؟
من بوس امبارح.
يا لي ع الترعة حود ع المالح.

شارك المعلم كشك بدعابات، وأوصى سيد بأنسية، فأظهرت تأثرها وامتنانها. وفاجأ هشام كشك الجميع بحضوره. في يده هدية مغلفة للعروسين. زجر صابر الشبلنجي لما حاول فتحها. قال: كنت أسبق الكل إلى معرفة زواج سيد وأنسية.

أضاف لنظرات الدهشة المتسائلة: رأيتهما يتنزهان على الكورنيش.

دارت أنسية وجهها براحتها.

تعدد سيرهما على الكورنيش، وفي حدائق الشلالات. ألفت الأشجار والنخيل وسحن دائمي التردد وهدير الأمواج المترامي من ناحية البحر وانحدار المياه من مرتفع عالٍ إلى مجرى منخفض. وألفت وابور المياه ومدرسة محمد علي الصناعية والمستشفى الأميري والاستاد والنادي الأولمبي.

رفت ابتسامة على شفتي هشام: عرفت يومها أن سيد أفلح في الصيد.

فاجأ حمادة بك «هشام» بالسؤال: هل أنت مقيد في جداول الانتخاب؟

ارتعشت رموش هشام بالارتباك: لا أعرف!

قال حمادة بك: كيف؟ ... ألم تقيد اسمك؟

قال المعلم كشك: هشام لم يبلغ العشرين.

قال حمادة بك: من حقه القيد في جداول الانتخاب.

أردف بلهجة آمرة: يهمني هشام والشبان من أصدقائه وزملائه.

تظاهر سيد بالإنصات لنصائح قاسم الغرياني، وكتم السؤال: هل غابت عنه علاقته القديمة بأنسية؟

فاجأ نفسه حين فاجأها بالسؤال: هل أحببت أحدًا من قبل؟ ...

إذا كان ما تشعر به نحو سيد هو الحب، فإنها أحبت سيد. كان يشغل بالها، وصورته دائمًا أمام عينيها. يضايقها غيابه، وتفرح لقدومه. تشفق للخجل الذي يتملكه وهو يحني رأسه إلى أسفل، وهو يزيح خصلة الشعر من جبهته، وهو يضغط على شفته السفلى بسنتيه الأماميتين. تسترجع — في جلوسها مع نفسها — تصرفاته، وقفاته وسكناته وكلماته. حتى الملاحظات التي يؤكد بها فحولته، لم تعد تضايقها.

وهي تخفض رأسها: أنا أحبك.

– قبلي ... وغير ...

لجأ إلى يديه، يحاول التوضيح. ثم سكت.

احمرت أذناها: أنا لم أعرف هذا الأمر.

ودع أصدقاءه قرب الفجر إلى حانطور، قاده صابر الشبلنجي إلى البلقطرية بيت سيدي داود.

كانت أنسية تنتظر.

صعدت وراء الكبود. وانتقل سيد جوارها، ومضى الحانطور إلى البلقطرية.

قال صابر: لو أن الظروف ساعدتني ... كنت زينت الحانطور بالشيلان الكشميري والورود.

سارت وراء جهازها من العطارين إلى البلقطرية.

نقل صابر الجهاز على عربة كارو من الإسطبل. سرير وبوريه وصندوق وترابيزة وستة كراسي ومرتبة ولحاف ومخدتان ومرأة في إطار ووابور بريموس ومطبقية وأربع حلل وإبريق وطشت وستة أطباق وطبلية وستة أكواب للشاي. لم تهمل حتى كرسي الحمام وصفيحة الماء والكوز والقبقاب. وأهداها التاجر كمال مصباح ثلاث فوط.

حلمت بحفل كالذي أقامه الحاج قنديل لابنته، أو الذي أقامه المعلم عباس الخوالقة لمهجة؛ ليلة الحنة وثوب الزفاف والصهبة والزغاريد وبدرة الملح والعوالم والنقوط والأعمدة الخشبية والرايات الحمراء ذات الهلال واللمبات الكهربائية الملونة.

البيت من ثلاثة طوابق. أسقفه خشبية، وجدرانه متآكلة، وإن بدا سكانه في حالهم، فلا زعيق ولا نداءات، والنوافذ مواربة، أو مغلقة. الشقة في الطابق الأرضي، إلى يسار السلم، تطل على الشارع من نافذة عالية، ذات ضلفتين.

أصر أن يحملها بين ذراعيه، ويتخطى بها عتبة الشقة.

– ماذا يقول صاحبك ... والجيران؟

اهتز جسمه بالانفعال: طظ في الكل! ... أنت الآن زوجتي بالورقة والقلم!

لم تطل تأمل معنى العبارة. قالت: هذا تصرف العرسان للتغلب على سحر يوضع في عتبة الباب.

وتنهدت: من يفكر في السحر لنا؟!

احتواها بعينيه: أنت سحرتني ... وسأحملك لأقضي على سحرك!

شغله السؤال، وإن كتمه، حتى طردت أنسية القلق من نفسه: أصحابك طيبون.

ثم وهي تضغط على الكلمات: هذه أول مرة أراهم.

قال في صوته المتهلل: إنهم زملاء القهوة.

استطرد متذكرًا: صابر الشبلنجي وحده يعمل في إسطبل السيالة.
قالت: لم آخذ بالي منه.
وهزت رأسها: أرى أنهم جميعًا طيبون.

النوة

سحب الجد السخاوي كرسيًّا، وجلس في مواجهة الشمس. كان يتحرك بكرسيه مع أشعة الشمس، لا يتركه إلا بعد أن تمتد الظلال.

أخرج من جيب الصديري علبة سجاير. سحب منها سيجارتين، قدم واحدة إلى شحاتة سليط، ووضع الأخرى بين شفتيه. حك عود الكبريت في القداحة، وداری عليه حتى أشعل سيجارة شحاتة سليط، ثم أشعل سيجارته، ونفض المتبقي من عود الكبريت حتى انطفأ، ثم طوح به.

قال محيي قبطان: الشمس حامية.

قال في تهوين وثقة: إنها تنشط الدورة الدموية، وتغذي الأعصاب، وتحيي الأنسجة.

استطرد وهو يهز أصبعه: شريطة أن تتجنب حرارتها الزائدة.

ثم وهو يعتدل في مواجهة محيي قبطان: الشمس تفيد في أمراض الكبد والضغط المرتفع والقلب وتصلب الشرايين ... والمشي حافيًا على الرمال الساخنة، علاج للأعصاب والصداع.

شكا شحاتة سليط إلى الجد السخاوي من آلام في الرأس، بعد أن غاص إلى عمق أربعة أمتار.

قال الجد السخاوي: أنت تعاني نزلة برد ... أو أن أسنانك تتطلب حشوًا.

قال شحاتة سليط: اللؤلؤة التي أثنيت عليها ... ذهب لمعانها.

صرخ الجد السخاوي: غبي! ... دائما توقد نارك في الناحية البحرية.

ثم وهو يعيد إليه اللؤلؤة: اللؤلؤ يغسل بالماء فقط، ثم يلمع بقطعة جلد ناعمة.

بحلقت عيناه: تقصد أني أتلفت اللؤلؤة.

– طبعًا.

قال شحاتة سليط: وهذه؟

وأخرج من جيب السيالة لؤلؤة في حجم البيضة الصغيرة.

قربها الجد السخاوي من عينيه: ينقصها الاستدارة، ومليئة بالبقع اللونية والحفر.

– لكنها عالية الشفافية.

أعادها الجد السخاوي إلى الطاولة: اللؤلؤة الجيدة شفافيتها قليلة.

قال شحاتة سليط في أسف: هل أعيدها إلى البحر؟

قال الجد السخاوي: بل اطلب فيها سعرًا مناسبًا.

ارتفع حاجبا عم محجوب بالدهشة: تطلب سلفة في عز الصيف؟!

قال محيي قبطان: أصر الخوالقة وقنديل وكل المعلمين على أن ندفع ما اقترضناه في الشتاء.

هز عم محجوب رأسه: هذا حقهم ... ادفعوا مبلغًا من السلفة في كل طلعة.

قال محيي قبطان: إنهم يأخذون الإيراد بعد كل رحلة ... يريدون الكراسة بيضاء، دون أن يشغلهم تأثير ذلك على بيوتنا.

اتجه الجد السخاوي إلى خميس شعبان بنظرة مشفقة: لا تحزن يا خميس ... فلو أنك فتشت وراء هؤلاء الغجر، فستجد في بيت كل منهم فضيحة!

روى ما حدث لقاسم الغرياني، وطالبه بألا يفشيه ... لكن الغرياني فاجأه — وفاجأ الجالسين — بإعادة الحكي. أضاف ألوانًا وظلالًا وتفصيلات. اشتكى للحاج محمد صبرة من سرعة القذف. هل هي الشيخوخة؟ ... طمأنه الحاج محمد. أعد له دهانًا يستعمله قبل النوم. تثاءبت المرأة، فأسرع إلى الحمام. طال قعود المرأة. دعاها إلى النوم. اعتذرت بانشغالها في رفو ملابس الأولاد. لزم مكانه، يعاني فلا يستطيع التكتم. يتكلم، ويتقلقل، ويحاول المداراة. طلب من المرأة شايًا. دخلت المطبخ، فارتفع صوته، يطلب الشاي في حجرة النوم.

قال حمودة هلول: ما أبدع العادة السرية لشيخ في الستين!

قال محيي قبطان: هل أفادك علاج الحاج محمد؟

قال خميس شعبان: لست مريضًا لأعالج.

قال محيي قبطان: لماذا الدهان إذن؟

قال الغرياني: هددته المرأة، فخشي الفضيحة!

وشي صوت إسماعيل سعفان بالضيق: وطوا أصواتكم!

تغيرت طباعه منذ موت وحيده البهاء. دخل الغميق في الأنفوشي فغرق، اجتذبته الأمواج. غيبت جسمه وصرخاته. ظهرت الجثة تحت قلعة قايتباي. دفعتها الأمواج أسفل الكتلة الخرسانية، منتفخة، مشوهة، نهش فيها السمك. يعاني — من يومها — مطاردة الضوضاء. ضوضاء هائلة، عنيفة. زعيق وصراخ وشتائم. أسوأها الميكروفونات التي لا يدري مصدرها. تحاصره في كل مكان: في الطريق، في بئر السلم، في حجرة النوم، في دورة المياه. ينتفض لها، يتألم، يتكور على نفسه. يصر على أسنانه، فلا يتعالى الأنين.

هؤلاء الذين لا يعرفهم، يتآمرون عليه، يحاصرونه، يخنقونه بصراخهم وزعيقهم وصخبهم الذي لا ينتهي.

نذر للمرسي أبو العباس إن رُزق بولد، بعد عقم خمسة عشر عامًا. ألف التردد على مقام السلطان بعد أن حقق له المدد. يقرأ الفاتحة، ويوزع الفول النابت، وشطائر اللحم.

لما ابتلع الهدم زوجته بسقوط البيت، ترك الفدادين الستة في عهدة شقيقه الأصغر. وسافر إلى الإسكندرية، ليحيا بالقرب من أولياء الله.

اختطف البحر وحيده البهاء، فعزاه الناس بمصاب المؤمن.

أكد محمد علي الراكشي أنه رأى عروس البحر تختطف الصغير لتجعله ابنًا لها في مدائن الأعماق. كان محمد يسبح بالقرب منه. وكانا يعبثان، ويضحكان، ويصرخان في نشوة، عندما أتت الموجة، فأبعدت بينهما. غطس البهاء، وقب، وغطس، وقب، وصرخ، واستغاث بيديه اجتذبته من داخل الموجة يد امرأة، تيقن محمد أنها عروس البحر. أطلق البهاء ثلاث صرخات، وصخب الموج من حوله. ثم اتسعت الدوائر الضيقة، حتى اختفت. وهدأ الموج، وحل الصمت. كأن الموج علا ليبتلع الولد، لتنفذ يد عروس البحر من داخله فتأخذه إلى دنيا الأعماق.

هل هي عروس البحر كما قال محمد الراكشي؟ اختطفت الولد كما اختطفت سواه من قبل. أو أن ساعديه خذلاه؟ أو دفعه ولد من أصدقائه؟ ... أو أن الأقدار ابتلته بما لم يقوَ على رده؟

قيل إن الرجل عدل عما اعتزمه من أمر خطير حين ظهر له السلطان في المقام، وأخبره أن الله أخذ الولد ليمتحن صبره، وبشر الصابرين.

حل على الرجل — من يومها — هدوء وسكينة. يقضي يومه في التنقل بين أضرحة الأولياء، والجلوس على قهوة الزردوني — يخفض الجرسون ياقوت صوت الراديو عند اقترابه من القهوة، يتوقع ضيقه من ارتفاع الصوت — والخلو إلى المصحف ودلائل الخيرات، في شقته الصغيرة — حجرة واحدة وصالة — المطلة على شارع سيدي كظمان.

وكان يحب المشي لمسافات طويلة، وتناول الشاي بكثرة، وسماع تلاوة الشيخ محمد رفعت، والجلوس على سور الكورنيش، يتأمل ما لا يراه أحد. حتى ظروف غرق البهاء لم يعد يشير إليها، ولا إلى حزنه على الولد، وإن تيقظ في داخله قلق للأصوات المرتفعة. تصاعدت، وتلاحقت، حتى حاصرته تمامًا. وكان يشغله السؤال: لماذا تعلو أصوات العصافير في الصباح الباكر، وعند الغروب؟ لماذا تصخب في هذه الأوقات بصورة لافتة؟ … وصدمه مولد أبو العباس — في اقترابه من ميدان المساجد — بتضخم الأصوات، فعاد إلى السيالة.

كان يجلس على سور الكورنيش، أو على هيكل فلوكة قديمة. يتطلع إلى الأفق، كمن يتوقع شيئًا. لا يتكلم عن ترقب عودة الولد، ولا ما إذا كان مات ميتة ربه، أم أن عروس البحر اختطفته بالفعل. إذا سمع تحية، رد بهزة من رأسه، وعيناه تتجهان إلى الأفق. يسلم نفسه لشرود حزين وينصرف تمامًا عن كل ما حوله.

همس محيي قبطان: الرجل معذور، فالولد وحيده.

قال عباس الخوالقة: من كان يتصور أن يترك عبد الرحمن الصاوي الإسكندرية ليقيم في القاهرة مع أبنائه؟!

تعددت زيارات سلامة في الأشهر الأخيرة. يئس من إقناعه بالذهاب إلى القاهرة، فانقطعت زياراته. تردد بالشيخوخة والقرف وتوالي الأيام، وعدم رغبته في فتح جراح جديدة، في الذهاب إلى القاهرة. ترك للأيام فرصة إنهاء كل شيء، ثم فاجأ الجميع باعتزامه تصفية عمله، والسفر إلى القاهرة.

ملأ السلطان حجرة نومه. لاحظ خوفه، فقال في صوته الهادئ: إنما أتيت للنصيحة.

ثم وهو يهز أصبعه: لا يكفي أن يُرضي المرء نفسه … عليه أن يُرضي الآخرين.

ثم وهو يذوب في الجدار: جريمتك قديمة، وتصر على الفرار منها!

تباعدت أوقات جلسة العصر. توالى الغياب والاعتذارات. ووجد الحاج محمد صبرة نفسه — ذات أصيل — بلا جليس يحادثه.

قال ياقوت وهو ينثر نشارة الخشب في أرضية القهوة: أهلا بالبطل الصغير!

كان قد نسي الصفة. لم يعد أحد يناديه بها. عاش أيامًا من الاهتمام والإكبار. في القهوة، وفي الحلقة، وفي المدرسة. حتى نظرات أبيه. كان يفجؤها وهي تتسلل ناحيته بالإعجاب الصامت. أم محمود — وحدها — اعتبرت ما حدث مصيبة، ودعت على الملك والحكومة، وعلى مصطفى لأنه كاد يحرق قلبها.

نُسبت إليه أفعال كثيرة.

قيل إنه أشعل النار في سيارة بوليس، فاضطر من بداخلها إلى الفرار. وقيل إنه تصدى لضابط أراد أن يضرب بنتًا، لم يتركه حتى أعلن أنه امرأة. وقيل إنه أعاد القنابل المسيلة للدموع، فآذت العساكر، واضطرتهم للفرار.

ثم نسوا ما حدث، وانشغلوا بشئونهم.

شارك — بالإنصات — في أحاديث عن الإضرابات والمظاهرات التي لم تشهدها الإسكندرية من قبل. انضم إليها ضباط بوليس وكونستبلات وصولات وجنود. كانوا يواجهون مظاهرات الطلبة والعمال ... من يواجههم؟ ... حتى الضابط نبيل قرة مأمور نقطة الأنفوشي، تغيب منذ يومين عن مكتبه، وإن أكد عبد الوهاب مرزوق أن الجيش سينزل إلى الشوارع غدًا لفرض النظام.

قال الغرياني: إذا جاء الخير ... فسيجني ثماره الجميع!

قال الجد السخاوي: ماذا جرى للبلد؟ ... الإضرابات والمظاهرات تتوالى ... حتى ضباط البوليس شاركوا في الإضرابات.

قال الغرياني: ما يعنينا إلا أن يضرب السمك عن الدخول في الشباك!

المجاهدة

قال أبو الحسن الشاذلي: «من آداب مجالسة الصديقين، أن تفارق ما تعلم؛ لتظفر بالسر المكنون.»

«إنما هما كرامتان جامعتان محيطتان: كرامة الإيمان بمزيد الإيقان وشهود العيان، وكرامة العمل على الاقتداء والمتابعة، ومجانبة الدعاوى والمخادعة، فمن أعطيها؟»

«وكل كرامة لا يصحبها الرضا عن الله، ومن الله، فصاحبها مستدرج مغرور، أو ناقص أو هالك أو مثبور.»

سبقه جابر برغوت إلى المخزن الصغير الملاصق لحجرة الإمام. اطمأنا إلى جلستهما بين السجاجيد والحصير والمقشات وأسلاك الكهرباء وزيوت الإضاءة والشموع والبخور والصناديق والكتب القديمة.

مال الراكشي إلى جابر برغوت. استهوته صحبته، أنصت إلى آرائه، وتأملها. استولى على قلبه بالمحبة. شعر أنه يعلم من علوم الدين والتصوف أكثر مما يعلمه الشيخ يوسف بدوي. هو الآن أرقى حالًا من الشيخ الذي كان يتعلم منه. وشعر بالروحانية في نفسه، والربانية في روحه.

قال علي الراكشي: الشيخ أمين عزب زعلان مني.

– لماذا؟

– يتصور أني أمشي في طريق الشيخ حماد.

غلبه التأثر حين طارده الأولاد في شارع إسماعيل صبري، فلاذ بمجيرة عم سعد. اختبأ وراء الكشك الصفيح المطل على سيدي علي تمراز، حتى طرد عم سعد الأولادَ.

قال جابر برغوت: وهل تفعل ذلك؟

التمعت عيناه بحيرة: أنا لا أعرف الشيخ حماد؟

واعتدل في جلسته: يقولون إنه رجل صالح.

أمن جابر برغوت بهزة من رأسه: هذا صحيح ... وأنت رجل صالح ... سر في طريقك ولا تلقِ بالًا لأحد.

تشاغل علي الراكشي بتأمل القبة الضخمة — من انفراجة الباب — تتوسط صحن الجامع، تحيط بها نوافذ زجاجية ينداح منها الضوء إلى الداخل، ويشكل تكوينات وظلالًا على الأرض والجدران.

هذا هو المكان الوحيد الذي يجلس فيه إلى من ألقي حبه في قلبه، يحاوره، يأخذ ويعطي، يسأل ويجيب. يدرك في مجلس جابر برغوت معنى القول إن الصوفي لا يتنفس إلا بين إخوان. هذا الرجل أخوه. هو الأقرب إليه لأنه يفهمه، لا يضايقه ولا يزجره ولا يثور عليه. دنياه القرآن والدعوات والابتهالات والأذان والبخور والخدمة في الجامع. تيقن من آثار ربه في قلبه، فاعتزل الناس، ولزم الجامع لا يفارقه إلا لضرورة.

فاض المكان بالصمت، صمت سادر، جياش بالصفاء والسكينة.

– ما أخبار الشيخ يوسف بدوي؟

أحنى راسه: لم أعد مريدًا.

ثم بصوت ممتلئ: كل ما يعلمه ... أعلمه.

كثرت طاعاته، وكثر إخلاصه. أخذ بالحقائق، واليأس مما في أيدي الناس. رآهم من حوله بعين النقص. انقطع إلى الله من البشر. ولَّى وجهه نحوه فلم يتحول عنه. صار معه بلا علاقة. صفَّى نفسه من كل ما هو فانٍ، متناهٍ، محدود. فني عن آفات الدنيا، فلم يرجع إليها. لم يعد يشتغل بغير الذات الإلهية، فتحققت — في داخله — الولاية. سلك في مدارج العارفين إلى حيث بلغ مرتبة العرفان، وانكشفت له الحجب، وشهد من علم الله ما لا يشهده غيره. عرف السر وأخفى. بحره يغوص إلى حيث لا أعماق، وتمتد آفاقه إلى حيث لا نهاية، وثمة أصوات خفية تنبعث من داخله، تدعوه إلى السمو والارتقاء فوق الحجة والرغبات، والتحليق في آفاق الطير بلا أجنحة.

عظمت الأحوال، وعلت المقامات: تفتح أبواب السماء، وتسطع الأنوار، وتبين الملائكة عن صورها، وتتألق مشاهد الجنة بدورها وقصورها وحورها وأنهارها وأشجارها وثمارها

ومنازل الأنبياء والأولياء والشهداء والصديقين. يسير في الملكوت، ويمضي في الطريق إلى الغاية القريبة: ينكشف له الأمر، ويتعرَّف إلى الأحوال الرفيعة، وتجليات الذات والصفات. يتخفف من الأحمال السيئة، ويرقى في مقامات النور. يغني في كون اللاهوت، وينهل من التوحيد والحقائق، ويفيض على صدره النور، ويتصرف في الأطوار القلبية، وتتوالى فيوض التجلي، لا يتخللها ستر ولا انقطاع.

– قوَّى الله إيمانك.

بدا عليه التردد.

قال الراكشي: هل هناك ما تريد أن تكلمني فيه؟

وهو يغمض عينيه: لا تشغل بالك.

اتجه إليه بنظرة اهتمام: نحن أصدقاء.

ربت ركبته بأصابعه: نعم الصديق أنت ... وأنت كذلك شيخ مبارك.

ثم بصوت هامس: الحكاية يا أخي علي أن سيدي ياقوت العرش ...

داخل التهدج صوته، واختلطت الصور، وتشابكت، وشحبت، وتشكلت تكوينات، وغاب الزمان والمكان، وتواصلت لحظات السكينة والصفاء، وانداحت حزم الضوء من النافذة العلوية، وحلقت في صحن الجامع عصافير وحمائم، وتضوع المكان ببخور لم يشم أريجه من قبل، وسرت تلاوات من القرآن وقصائد صوفية وموسيقى جميلة، وأصوات تسبِّح بلغات كثيرة، متداخلة، وتناغمت التكبيرات والأذكار والابتهالات، وارتفع الأذان في غير موعد، واهتزت البيارق، ورفرفت البنود والأعلام الخضر، وتطوح الذاكرون في طاقات النور، وانفتح باب الخوارق عن فيوض لا نهاية لها، وتلاحق مد البحر وجزره، في إيقاع منغم، وتعالى هسيس النخيل على شاطئ الكورنيش، واستطال المحيط الأخضر، فلا يحده أفق.

قال الراكشي: ولكن من هو سيدنا الأنفوشي؟

التمعت عيناه بحيرة: اختفى سيدي ياقوت العرش دون أن أعرف من هو ولا مكانه.

قال الراكشي: وكيف ستتصرف؟

وعلا صوته فجأة: أقم مولدًا للإمام الأنفوشي.

– من؟

أعاد قوله: أقم مولدًا للإمام الأنفوشي.

وهو يغالب حيرته: أنا لا أعرف من هو ... مضى سيدي ياقوت العرش ... غاب عن المكان فلم أعرف إلا أن سيدي الأنفوشي أحد تلاميذه.

اطمأن إلى أن سيدي الأنفوشي ليس في مرتبة الأقطاب. لا يرقى إلى مرتبة الشاذلي وأبو العباس وياقوت العرش والبوصيري والأقطاب الصالحين، لم يعد لديهم الوقت الذي ينفقونه في أمور الحياة الدنيا. الحياة الآخرة شاغلهم. فوضوا أمر الناس ومشكلاتهم الدنيوية إلى سيدي الأنفوشي. ولي له كراماته، وإن لم يحقق من المكاشفات ما يجعل له مكانة الأقطاب. هو المريد والتابع والتلميذ الذي ينفذ الأوامر.

لم يكن قد التقى بسيدي الأنفوشي، ولا ظهر له في صحو أو منام، لكن طيف سيدي ياقوت العرش ظل ماثلًا أمامه، وإن غابت عنه رؤيته منذ ظهر له في صحن الجامع. يشعر أنه يصبِّره ويدفعه إلى المواصلة. لولا هذا الشعور الذي تملكه، ما استطاع أن يظل على أمله في أن يلتقي بسيدي الأنفوشي، يراه، وينصت إلى نصائحه وتعاليمه.

عرف أن عليه أن يجاهد نفسه وأهواءه وميوله، حتى يرضى عنه أولياء الله الصالحون. مشوار الراكشي طويل، لا يقاس به قراءاته القليلة وإنصاته المتعجل لخطب الجمعة ودروس المغرب، والأحاديث التي تدور في الجامع. أكثر الراكشي من الطاعات والإخلاص، فبلغ مرتبة من الورع لا يبلغها سوى العارفين الواجدين، المبتعدين كلية عن مشاغل الدنيا وهمومها، فهم قد تنبهوا وانشغلوا بالله وحده. اقترب الراكشي من الحضرة الإلهية. حصلت الولاية، وبلغ مرتبة العرفان. انكشفت له الحجب، وشهد من علم الله ما لا يشهد سواه. ظل هو مريدًا يرغب في القربى.

تبدلت — من زمن — صورة علاقتهما. ينصت، فتفيض الأقوال والرؤى. اعتبر من تشريف الراكشي له، عندما اقتنع بالذهاب معه إلى حمام الأنفوشي، وترك له جسمه. ينال بركة تحميمه بيديه. لو أنه أعلن الولاية، ما تردد في أخذ الطريق عليه. عاش بالأمل، وتمنى وصول النفس إلى القرب والحب والإخلاص، والائتناس بنور الرحمة الإلهية. اجتهد في قطع الأمل. مال إلى العزلة، واستعد للرحلة. أولياء الحي نجوم الهدى، يضيئون له طريقه. أزال صدأ القلب بدوام الخلوة والصوم والطهارة ونفي الخاطر والربط. شفَّت البصيرة، ونشطت مداركها إلى مصادر استقبال فيوضات النور الإلهي، وما تنزله الملائكة من الغيب بالهداية والنور.

قال جابر برغوت في تنبه: أسأل نفسي الآن: هل يجب أن أتوقف عن عمل الأحجبة وفك السحر؟

قال الراكشي: لماذا؟ ... أنت لا تؤذي أحدًا.

ضايقه ما تناقله الناس من أنه قد خاوى جنية، تتيح له معرفة الغيب وقراءة الطالع وشفاء الأمراض، وإخراج الجن من العين والأنف وأصبع القدم.

اكتفى — في الفترة الأخيرة — بترديد ما حفظه من كتب السحر: آيات القرآن والأحاديث النبوية والرقى والتعاويذ، لا يجاوزها إلى استخدام أحشاء الطيور، أو أقدامها، ولا الكتابة المؤذية.

عندما طلبت منه هنية زوجة خميس شعبان أن يصنع لها عملًا تضعه تحت وسادة ضرتها، أو عند عتبة بيتها، نفض رأسه في غضب. قال إنه يصنع الأحجبة للخير، ويرفض المكر السيئ.

وهو يغالب قلقًا واضحًا: ربما لا يُرضي ما أفعله سيدي ياقوت.

أعاد الراكشي القول: أنت لا تؤذي أحدًا.

بدا هادئًا، ساكنًا، على غير الصورة التي اعتاد الناس رؤيته فيها يحسن الإنصات، وتقصد كلماته المعنى، وتغيب الجذبة في حركاته وتصرفاته. كان يفعل ما يفعله عفو الخاطر، ودون قصد. تنتابه حالة الوجد. تدفعه إلى حالة الفناء، يحدوه الحنين والشوق والمحبة والطيران، وينغمس في بحر التعبد. يبدو غريبًا بين من لا يفهمون معاني كلماته، وما يحياه. إيماءات تفيض عليه بأحوال السكر والفقد والفناء، يشطح بما لا يتبينه هو نفسه، ويستنكره الناس. ما يفعله لا يفهمه من تغيب عنه المشاركة في الأذواق والمواجد. ثم يعود إلى حالة الصحو، يصبح سويًّا بعد الجذب، يعي ويدرك، ويتنبه. يصر الناس على رؤية الجذب حالة دائمة. لم تكن تثيره حتى مضايقات الأولاد له.

ماذا يعرف أهل الظاهر والرسوم من أحوال أرباب الحقائق وأهل الباطن؟

آثر الصمت، وانصرف إلى أحواله ومواجيده، فني عن نفسه، وعن دعوة الخلق له، سكن إلى الله، وفر من الناس، يخضع للعلم الذي لا يتبدل ولا يتغير ولا يخطئ، يحيا في قلب الحب والتسامح والصبر. يعنيه أن يخرج من الدنيا مثلما دخل فيها: طاهرًا من الذنوب، نقيًّا من الشبهات، فيظفر بقرب الحبيب. لا يأذن لأي قول أو تصرف، أن يصرفه عن الحياة التي أرادها. صفَّى نفسه من كل ما هو فانٍ متناهٍ محدود، فهي لا تنشغل بغير الذات الإلهية. مضى إلى الأنس وروح الفؤاد والرجاء والمؤنس. ارتقت النفس إلى المعارج القدسية، في رحاب مسيرة الأيام، وتقلب آيتي الليل والنهار. أنس بالأنوار. تراءت له كشمس مبهرة بالضياء. واطمأن إلى نهاية الارتقاء والوصول: المنن والفطن، للعلم والحكمة، النعم والفضل. تنجذب القلوب له، بالمحبة والقول. لا يشق عليه — بالفيوضات الإلهية — أن يحيط بالسماء والأرض، النهار والليل، الجبال والأودية، المياه والأنهار. يعلم ما لا يعلم الناس، ويقول ما يغيب عن الناس. يفهم أسرار الجماد، ويعرف ما في باطن الأرض وقاع البحر من خيرات. يختفي أمام الناس فلا يراه أحد.

زنقة الستات

لسنا نذكر متى تنبهنا إلى البيت، ولا إلى الحكايات التي تروى عنه. وكنا نتهامس بحكايات العفاريت والأرواح الشريرة، والأولاد الذين فُتح الباب واجتذبتهم يد إلى الداخل، ثم أغلقت الباب.

قال محمد علي الراكشي: عرفت أن هذا البيت يسكنه عفاريت.

قال عادل عبد الوهاب مرزوق: من قال لك؟

قال محمد: سمعت أمي تكلم جارة الطابق الأرضي.

شطحنا في تصور العفاريت: ما شكلها؟ ... كيف تحيا؟ ... ماذا تفعل إن وجدت أحدًا في طريقها؟

قال محمد: تأكله!

قال علال: كذب! ... إنها تسخط الإنسان فيصبح مثلها!

تأمل مصطفى عباس الخوالقة نفسه، وهمس: هل أصبح عفريتًا؟!

كانت أجسامنا تتقارب، ونهمل ارتعاشاتها، ونحن ننصت إلى حكايات عم محجوب عن أفعال الجان في البشر.

أصبحنا نخاف الوقوف — منفردين — أمام باب البيت. نتخيل ما يضمه من عفاريت وجان ومخلوقات تنتمي إلى عالم غير عالمنا. كل منا يعيد ما سمعه على الآخرين، فيزداد خوفنا مما بداخل البيت، وإن لم نتردد في شتم أنسية، حين أطلت من الباب الموارب، وامتدت أيدينا إلى قطع الحجارة، قذفناها بها، حتى أغلقت الباب.

كنا نقضي أوقات الفسح حول المقام الذي يتوسط واجهة مدرسة البوصيري. لم نعد نثير الأسئلة حول الشيخ صاحب المقام: هل هو سيدي البوصيري، وأن المدرسة — كما قال عادل — بُنيت على قبره ... أو هو — كما قال عم جابر برغوت — سيدي الأنفوشي،

أصل الإسكندرية وأسبق أولياء الله في تعطير بحري ببركاته ... أو هو ولي مقطوع نذره، فلا أحد يدري اسمه، ولا طريقته، ولا بركاته ومكاشفاته، فلا يقام له مولد، ولا يطلب شفاعته مريدون وزائرون. كررنا الأسئلة والأجوبة، فلم تعد تثيرنا أو تشغلنا. نتكئ بمرافقنا على المقام، ذي القماش الأخضر الباهت. نحدد مواعيد لقاءاتنا بعد العودة إلى البيوت.

نلعب — حتى العصر — أبونا ضربونا، البحر المالح، القط والفار، عسكر وحرامية، كيكا ع العالي، يا عم يا جمال، برلا برلا، المساكة، ونلعب البلي والدوم والطيارات الورقية وأولها إسكندراني، وتلعب الكرة في الساحة المجاورة لحلقة السمك، ونتردد على حمام البلدية، ونتسلى بمراقبة الصيادين في الميناء الشرقية. وننصب الفخاخ، وشكل للبيع. وكان مصطفى الخوالقة يجيد تقليد أصوات الحيوان والطير، وحركات وطريقة كلام آبائنا، والمعروفين في السيالة.

نهمل التحذيرات، والأوامر، وعبارات التهديد والشتم. نخترق الشوارع الضيقة إلى شاطئ الأنفوشي، نجمع القواقع والأصداف. تغوص أقدامنا الحافية في الرمال. نبني البيوت، ونهلل حين يجرفها المد. نحفر حتى تظهر رغاوى الماء المالح. نلعب نطة الإنجليز. ننزع ملابسنا، ونجري نحو البحر، لا نتوقف إلا عندما تلامس الأمواج رءوسنا. تطول لعداتنا في ظل هياكل المراكب. نطارد طيور النورس، أو السمان مسافات قصيرة، ثم يحل بنا التعب، فنتوقف.

إذا مالت الشمس في الأفق، أسرعنا بترك الشاطئ، فلا تفاجئنا — أو أحدنا — عروس البحر. تطلع من داخل الماء. تمارس عادتها في اصطحاب الرجال إلى الأعماق التي لا عودة منها. رويت حكايات عن الذين اجتذبتهم العروس إلى قاع البحر، فلم يعودوا: البهاء إسماعيل سعفان، وسباعي سويلم، وحودة التيتي، والمليجي عطية، وجمعة العدوي. اجتذبتهم عروس البحر، فلم يعودوا أبدًا. وقال مصطفى الخوالقة إنه رأى عروس البحر تمشي على سور الكورنيش، تقفز فوق السور، رأسها لامرأة، وذيلها لسمكة.

نتجه — قبل أذان المغرب — في أيام كثيرة، إلى سوق الخيط.

يمسح مصطفى بوز حذائه بأصابعه، ويسبقنا: تعالوا نحب!

نتبعه.

في أعماقنا مشاعر يصعب تحديدها. تدفعنا الرغبة في ملامسة البنات. نهمل تصور ما يلي الاحتكاك بالذراع أو الساعد. حين امتدت أصابع مصطفى إلى ثدي بنت، لم نصدقه

في البداية، ثم توالت الأسئلة، ترافقها، وتلاحقها، صور غير واضحة الملامح، وإن تيقنا من جمالها المؤكد.

نحاذر السير أمام زاوية خطاب. نهاب الشيخ أمين عزب. لا يرتدي الجبة والكاكولا والعمامة، لكنه يؤم المصلين في الزاوية، ويلقي الدروس، ويلجأ إليه الناس لحل مشكلاتهم. إذا مر بنا في طريقه بين البيت والزاوية، وكنا جلوسًا، وقفنا. وإذا كنا نلعب، توقفنا عن اللعب. وإذا كنا نتحدث، خفتت أصواتنا. له مهابة تفوق ما عند إمام أبو العباس، أو عند آبائنا. لم ينظر إلينا بغضب، ولا عاب علينا تصرفًا، ولا شخط، أو نطر. يمضي في طريقه، لا يلتفت، لكن الحكايات التي استمعنا إليها، رسمت له في أذهاننا صورة نهابها.

نخترق الحواري والأزقة إلى الحجاري، ومنه إلى شارع رأس التين، فشارع فرنسا. بعد مسجد ترانديل نميل إلى سوق الترك. تأخذنا روائح العطارة: الفلفل الأسود والشطة والحبهان والشيح والفلفل الأحمر. تتآلف الروائح، فتصنع مزيجًا ثابتًا لا يتغير. تتعالى ضربات الدقاقين.

نخترق أسواقًا تالية، صغيرة: العقادين والخراطين والصيارفة والمغاربة، حتى نصل إلى سوق الخيط. الدكاكين الصغيرة، المتلاصقة، والممر الضيق، والأسقف الخشبية، اقتربت فكادت تتماس. تحمي المارة وأهل السوق من حرارة الشمس والأمطار، وإن أذنت بدخول الضوء.

البنات يمشين، أو يتوقفن، فلا تأذن المسافة إلا بأن يحتك الكل في الكل.

نمضي في السوق إلى أوله وآخره، ونعود. لا يشغلنا النظر إلى ما بداخل الدكاكين، ولا إلى ما في الممر نفسه، ولا إن كانت البنت التي نحتك بها سمينة أو نحيفة، صغيرة أو كبيرة. مجرد أن تحتك أجسامنا بالأجسام الواقفة والماشية. يتباهى كل منا — في طريق العودة إلى السيالة – بما حققته الأجسام التي احتك بها — في نفسه — من نشوة. ربما لمس كوع أحدنا نهدًا منتصبًا لفتاة، تشتم أو تصرخ أو تتأوه، أو يدفعها الحياء للإسراع في خطواتها. إذا لامه تاجر، أو عابر سبيل، فإن الزحام وضيق المكان عذر من السهل تأكيده ... وحلف لنا مصطفى الخوالقة — مرة — إن ساعده العاري احتك بالثدي العاري لفتاة. لا يدري كيف فز الثدي، ولا كيف حدث ما حدث، لكنه أحس بملمس الثدي العاري، في ساعده العاري.

كان مصطفى الخوالقة أكبرنا، وأكثرنا معرفة بالبنات. يترددن على حلقة السمك، يلاغيهن، يأخذ ويعطي، ويفهم ما لا نفهمه. ودخل — بمفرده — عوالم من السحر،

نكتفي بما يرويه عن غوامضها وما نخفيه. وكان يروي لنا حكاياته مع بنات المدارس في شارع حسن باشا عاصم. له طريقة في تحوير الحكاية. يثير فينا مشاعر الفضول والمتابعة. يحذف، ويضيف، ويختصر، ويتوقف، ويستطرد — ربما — إلى حكايات أخرى. يرفق سكناته بالقول: واخد لي بالك؟ وعرفنا منه ما لم نكن نعرفه. نصنع مما يرويه قصصًا لنا، نتخيل أننا نحياها. وكنا ننصت إلى أحاديثه عن بنت يحبها، ويؤكد أنها تحبه. ينوي التقدم لخطبتها.

سأله عادل عبد الوهاب: ما اسمها؟

احمرت أذنا مصطفى، وشاب لهجته ارتباك: سر بيني وبينها.

قال عادل: تلميذة؟

رماه بنظرة مؤنبة: طبعًا ... هل أحب لمامة سبارس؟!

قال محمد: حلوة؟

قبل أصابعه المضمومة: فلقة قمر!

قال عادل: هل تصرف عليها من جيب أبيك؟

قال مصطفى: بل من جيبي ... فأنا أساعد أبي في عمله.

قال محمد: تلميذ في البوصيري الأولية يتزوج؟!

قال مصطفى: وما له؟ ... لما تزوج أبي كان أصغر مني.

قال محمد: زمانهم غير زماننا ... ولم يكن تلميذًا.

قال مصطفى: إذا كنت تعجز عن الإنفاق على نفسك، فهذه مشكلتك!

نجلس — قبل العودة إلى بيوتنا — في قهوة النجعاوي. السلمات الثلاث تصعد إلى المصطبة الواسعة، المفروشة بالسجاد. تناثر فيها مقاعد مستديرة من الجلد المنقوش. النصبة في نهاية المكان. فوقها الرمالة وأكواب الشاي وفناجين القهوة والنراجيل الملونة، وعلى الجدران رسوم وزخارف ونقوش خزفية ومعلقات سجاد وآيات من القرآن. وثمة مبخرة — أوسط المكان — يتصاعد منها بخور اللبان والمستكة والجاوى والفاسوخ.

نتأمل مصطفى وهو يأخذ النرجيلة من الجرسون. يضعها أمامه. يجذب اللي ناحيته. يمسح المبسم بباطن يده. يضعه في فمه. يسحب أنفاسًا متلاحقة. ينفث الدخان من أنفه. نثق أن ما يفعله لا نستطيع فعله. حاول عادل تقليده. أصابته نوبة سعال، نفضت جسمه، وكورت وجهه ودفعت الحمرة إلى عينيه. خفنا على أنفسنا، فاكتفينا بالمراقبة.

يمضي بنا مصطفى بعيدًا عن بحري. نتفرج على إعلانات الأفلام والدكاكين والقهاوي والكازينوهات في منطقة الرمل. نركب الطابق الثاني في الترام. يقلنا إلى نهاية الخط، ويعود.

استوقفنا — ذات مساء — بائع في ناصية السوق، وقال: أنتم لا تشترون!

كيف لاحظ في الزحام الخانق؟

قال مصطفى الخوالقة: نحن نشتري من الداخل ونعود.

قال البائع: فماذا اشتريتم؟

قال مصطفى في تحدٍّ: هذا شأننا.

قال الرجل: معاكسة بنات الناس ليست من شأنكم!

وخالط لهجته وعيد: إذا عدتم إلى هنا، اتهمتكم بالسرقة.

قال مصطفى: نحن لا نسرق.

– تحتكون بالنسوان وتقاوحون؟!

قال مصطفى في مكابرة: نحن لا نعرف ما تتحدث عنه.

قال البائع: إذا عدت ثانية، لن أتركك إلا في القسم!

وفاجأ مصطفى أباه — ذات صباح — في مجلسه بحلقة السمك. من حوله الطبالي والمشترين والمساومات والنداءات والصياح وتقافز القطط.

أطال الوقوف حتى تنبه.

حدجه عم عباس الخوالقة بنظرة متسائلة.

انتزع مصطفى الكلمات: أريد أن أتزوج.

أسند عم عباس الخوالقة مبسم الشيشة على المقعد أمامه: ماذا؟!

قال مصطفى: أريد أن أتزوج.

وشت نظرته بسخرية: لأنك يا دوب بلغت ... تحسب نفسك رجلًا؟!

قال مصطفى: أريد أن أتزوج.

– هل ستأخذها معك إلى المدرسة؟!

– أنا أعمل معك في الحلقة ... فلماذا أذهب إلى المدرسة؟!

ارتفع صوت الخوالقة بالأسى: أولاد الحاج قنديل تخرجوا في الكليات ... وأنتم ترفضون حتى الحصول على الابتدائية.

ثم بنبرة ساخطة: الله يلعنكم!

وزفر في نفاد صبر: ماذا أفعل لك؟

– أريد موافقتك.

تحشرج صوت الخوالقة بالغضب: وهل هذا وقته؟!

قال مصطفى وهو يمضي خارج الحلقة: أريد موافقتك أولًا!

أسواق من النور

قال رجل لأبو الحسن الشاذلي: ما لي أرى الناس يعظمونك ... ولم أرَ لك كبير عمل؟
قال أبو الحسن: بسنة واحدة افترضها الله على رسوله، تمسكت بها.
قال الرجل: وما هي؟
قال الشاذلي: الإعراض عنكم، وعن دنياكم!

من حزب الشاذلي:
نسلك الفقر مما سواك، والغنى بك، حتى لا نشهد إلا إيَّاك.

يا ذا المن ولا يُمَن عليه. يا ذا الجلال والإكرام. يا ذا الطول والإنعام. لا إله إلا أنت. ظهر اللاجئين، وجار المستجيرين ومأمن الخائفين.
إن كنت كتبتني في أم الكتاب شقيًّا، فامحُ عني اسم الشقاء، وأثبتني عندك سعيدًا، موفقًا للخير. فإنك تقول في كتابك الذي أنزلت: ﴿يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾.

فاجأ علي الراكشي الحلقة.

كان قد مضى زمن، يعبر الحلقة دون أن يدخلها. يدعوه الصيادون والفريشة، يغمغم بما لا يتبينه أحد، ويواصل السير.

دخل هذه المرة من الباب الواسع. جاوز الطبالي، ومستطيلات الثلج، والباعة والمشترين والزحام، والمياه الآسنة. كانت التعليقات متشابكة، صاخبة، حول جنوح باخرة عند البوغاز.

دنا من الحاج قنديل والمعلم أحمد الزردوني في جلستهما بركن الحلقة.

كان الزردوني يفضل الشراء من الحلقة. يروقه منظر السمك وهو يلعلط في الطبالي. الخياشيم تنفتح، وتنغلق، والنيل يهتز، فيهتز الجسم كله، ورذاذ الماء يتطاير. يلتقط بأصبعيه سمكة من الطاولة. يشمها، ثم يبدأ في الفصال. إذا تغيرت رائحة السمك، فهو قد تعفن.

أشار الحاج قنديل إلى كرسي بجانبه: تفضل يا مولانا!

قال الراكشي بلهجة آمرة: جاءني سيدي السلطان في المنام.

وزغد الحاج قنديل بأصابعه في كتفه: إنه يدعوك لتكسية مقامه بقماش جديد.

ثم بصوت زاعق: ويأمرك أن تعطيني مما أعطاك الله.

وهرش عنقه بأظافره. التقط بأصبعيه أجسامًا صغيرة، تأملها لحظة، ثم قذف بها.

رمى الحاج قنديل بنظرة مؤنبة: هاتِ خاتم الذهب من فم السمكة الميتة.

وداخل لهجته وعيد: هاته ... وإلا ستفقد الطريق إلى بيتك.

لاذ الحاج قنديل بصمت، فعرف الرجال أن كلمات الراكشي فيها معرفة باطنية، أدرك الحاج معانيها. تنبه لما تحمله من وعيد، فسكت.

اعتاد الرجال تغير أحوال الحاج قنديل. يطيل ذقنه، ويحلق شاربه، ويكر بأصابعه حبات المسبحة. يُعنى بالأحداث السياسية، يتابعها، يلح في تحويل مؤشر الراديو حسب مواعيد نشرات الأخبار، يخلص للقراءة: جرائد ومجلات وكتب، يأتي بها من مكتبة حمامة النن، يلزم صحن أبو العباس، لا يغادره إلا وقت العمل في الحلقة، أو للذهاب إلى البيت، أو لزيارة ابنته.

ضرب الراكشي على الترابيزة بقبضته: لا وقت عندي ... أريد نقودًا.

دس الحاج قنديل يده في جيب السيالة. قبض الراكشي على ما أخذه، ومضى خارج الحلقة.

ثمة أسواق أخرى يعرف طريقه إليها، لا شراء فيها ولا بيع. يجتمع الناس حلقات، يتذاكرون كيف كانت الدنيا — هل يتنكر الحاج قنديل، أو أن النعيم ينسيه؟! — وكيف كان العمل بفرائض الدين، وكيف كان فقراء أهل الدنيا، وكيف كان الموت، وكيف صاروا بعد طول البلاء إلى الجنة. تختلف عن هذا الزحام المتلاغط. تحف بها الملائكة. فيها ما لم تنظر العيون إلى مثله، ولم تسمع الآذان، ولا خطر على قلب بشر. لا يباع ولا يشترى، إلا الصور من الرجال والنساء، إذا اشتهى الرجل صورة، دخل فيها، ولا ينزع ثمرة إلا نبتت مكانها مثلاها، قبل أن تصل إلى فمه. يأكل من ألوان الطعام، يجد لآخرها ما يجد لأولها.

يقوم بالخدمة سبعون ألف ملك شبه اللؤلؤ. بأيديهم أواني الفضة وأباريق الذهب. فيها أشربة ليس فيها لون على لون الآخر. ويرتدي سبعين طاقًا من الحرير الأخضر، ومن السندس والإستبرق مختلفة الألوان. يقدم الخادم كأسًا فيه ماء وخمر ولبن وعسل، لا يختلط بعضها ببعض. يأخذها ولي الله، فيرى ما خلفها مسيرة ثلاثة أيام، فيتركها على فيه مقدار سنة، لا يمل الشراب، ولا الشراب ينفد.

لم يغضب من المعلم أحمد الزردوني، ولا رد عليه. عاب عليه رائحة جسده: يا أخي ... حمام الأنفوشي بالمجان!

تيقن أن ما قذف به الله في قلبه، هو علم الباطن، وإن لم يحاول السؤال ولا الفهم، فالله لم يطلع عليه ملك ولا بشر. صفا قلبه لله، وسكن إليه، وفر من الناس. أهمل الظاهر، وعُني بالباطن. تخلص من أثقال الدنيا، وقاطع من وصلهم أيام غفلته، وارتحل إلى الآخرة بقلبه، وتهيأ للوصول. الشوق في داخله لن يطفئه سوى الوصول واللقاء، يرنو إلى يوم يرشح عرقًا كالمسك. لا يبول فيه ولا يتغوط ولا يمخط ولا يبصق ولا يمسه تعب. يرد الله وجهه كالقمر ليلة البدر. تغيب الحرشفة من ظاهر يده، صنعها تآلف الملوحة والشمس. ينعم، ولا يبؤس، ولا تفنى ثيابه، ولا يبلى شبابه. يدخل عليه الملك ومعه ألوان الحلل مطرزة بالذهب، مكتوب عليها أسماء من أسماء الله الحسنى. يقول: انظر يا ولي الله إلى هذه الحلل. إن أعجبتك فهي لك، وإن لم تعجبك انقلبت إلى الشكل الذي تريده. يرتدي ملوك الدنيا الأساور والتيجان. يرتدي — حيث تضعه العناية الإلهية — طوق ديباج يتلألأ من نور، ويضع في يديه ثلاثة أساور: سوار من الذهب، وسوار من الفضة، وسوار من اللؤلؤ، ولرجليه خلخالان لا صدى فيهما. قد يرتدي حلة ذات وجهين. يقول الذي يلي جسده: أنا أكرم على ولي الله منك. أنا أمس بدنه وأنت لا تمسينه. ويقول الذي يلي وجهه: أنا أكرم على الله منك. أنا أرى وجهه وأنت محجوبة لا ترين وجهه. قرأ عن مراكب الياقوت. كل مركب ياقوتة واحدة، تجري بلا شراع ولا موتور. بحرها من السلسبيل في بياض اللبن الخالص، مرتفع بلا أمواج، رائحته أذكى من العنبر، على شاطئه نخل يختلف عن نخل الكورنيش، فهو من ذهب، بدنه وسيقانه وفروعه وأوراقه. حتى ثماره فهي في لون الذهب، وإن كانت ذات مذاق أحلى من الشهد، ومن العسل إذا أراد صيد الحيتان — لها رائحة أشد من المسك، وطعم أحلى من الشهد — وقف على المركب، أو حتى على ساحل البحر، فيأتي الحوت مطبوخًا ومشويًّا. ويقول: كل يا ولي الله. إذا أكلت منه، فسيرجع إلى البحر مسبحًا، مفتخرًا، بأن ولي الله أكل منه. يصيد الغزلان بدلًا من السمك ليس صيدًا مما اعتاده الناس. ولي الله يسعى في أثر الغزال، بذلك السعي. لا خوف يصيب الغزال، ولا

وجع في الإمساك به، لا تخويف ولا جرح ولا كسر ولا قتل. إذا قبضتها، فإن شاء رجعت له لحمًا مطبوخًا أو مشويًّا. لا ذبح ولا نحر ولا كسر ولا سلخ ولا دم يسيل. يسكن كل ولي قصرًا، سقفه عرش الرحمن، له أربعة آلاف باب، وسبعون ألف غرفة من الذهب، مرصعة بالزبرجد. يتزاور مع الآخرين على نجائب بيض كأنهن الياقوت. وثمة قبة من الدر الأبيض، أُسست على سطح من الزمرد الأخضر، تُرى من مسيرة مائة عام. ركبت في أعلاها جوهرة بيضاء، يلمع فيها نور، ينعكس شعاعه على امتداد الأفق. ليس لها معاليق من فوقها، ولا عماد من تحتها.

قال حسان عبد الدايم وهو يتابع انصراف الراكشي بنظرة مشفقة: الراكشي ليس مجنونًا ... أسرف في التعلم، فتشوش مخه!

قال خميس شعبان: عالجه يا حاج ... تأخذ ثوابًا.

قال الحاج قنديل: الرجل أصح منا ... وهو — بإذن الله — طبيب نفسه.

أطلق قاسم الغرياني ضحكة عصبية: أيوب السكندري!

قال الحاج قنديل: لا تسخر من الرجل فهو بركة!

قال قاسم الغرياني: فلماذا لا تحل بركته على بيته؟ ... المرأة تنفق على أولادها من مساعدات أهلها.

قال الحاج قنديل: شدة وتزول!

وأهمل الشيشة في يده، وسرح إلى بعيد: قد يكون علي الراكشي في حياتنا وليًّا جديدًا!

كانت الكلاب والقطط تسكن لمرآه، لا تنبح أو تموء، ولا تمارس الفعل. وأكد خميس شعبان أنه رآه يخوض المياه العميقة، وراء قلعة قايتباي، فلم تصل المياه إلى ركبتيه. واستمع إليه عبد النبي شعرة، خادم أبو العباس، يكلم من لا يراه داخل مقام السلطان، وصوت — من داخل المقام — يبادله الكلام بعبارات واضحة. وعرف بأنه ينطق بما يجريه الله على لسانه، لا يختار كلماته، ولا يتدبرها، ولا يتوقع تأثيرها في نفس محدثه. وكان — في بعض الأوقات — لا يعي ما حوله، ولا يعرف من يعيشون حوله، ولا يستطيع التعبير. يلجأ إلى يديه، وهز رأسه، ونوبات من الصراخ.

فاجأ الناس في مولد سيدي نصر الدين بسيف من الخشب، رفعه، وهزه، وأطلق صيحات متوالية.

ثمة قوة غامضة، مسيطرة: تجتذبه إلى حيث لا يدري. تدفع قدميه فلا يستطيع التوقف. تمنعه حتى من إطالة الوقوف أمام الدكاكين والقهاوي. لا تهدأ نفسه إلا عندما

يدخل أبو العباس أو ياقوت العرش أو البوصيري أو مساجد الحي الأخرى. يتوضأ، ويصلي، ويخلو إلى نفسه بأدعية وأذكار حتى يهم الخادم بإغلاق الجامع، فيخرج.

أشرقت في داخله أنوار الخدمة والمحبة والمعرفة. انشغل باختراق الحجب التي تمنعه من رؤية المستور. أخلص في عبادة الله، والتجرد لذكره، والزهد في طلب الدنيا، والإعراض عن مباهجها. فني عن نفسه، وأقبل على حياته بخضوع من ينفذ إرادة إلهية. انصرف إلى أعمال القلوب: المحبة لله ورسوله، والتوكل، والخوف، والرجاء، وغير ذلك من المقامات والأحوال. حب إلهي يفيض بالأهوال والأشواق. دنيا لا يزاحمها وهم، ولا يخالطها شك، ولا يصحبها اضطراب. تطير به الخيل في ساعة من ساعات الدنيا مسيرة ألف عام. يصل روضة، هي الدرجة الرابعة من الفردوس، من الكافور الأصفر، نباتها الزعفران، وترابها المسك الأذفر، وحصاها من الدر والجواهر، تجري فيها أنهار الماء والعسل والخمر. على حافاتها أشجار، أصولها من الزبرجد الأخضر، وقضبانها من الذهب، وأوراقها من اللؤلؤ، وثمارها لا يعلمها إلا الله. تخفق فيها رياح الرحمة، وتنفخ فيها روائح المسك والعنبر. يخرج إليها — فيما بعد — متنزهًا، كما يخرج الملوك من قصورهم. بها خيمة من لؤلؤة مجوفة عرضها ستون ميلًا. في كل زاوية منها أهل للمؤمن ما يرون الآخرين. يطوف عليهم المؤمن في كل زاوية. إذا حل ولي الله بالخيمة، انصدعت له عن باب، فيعلم أن أبصار المخلوقين من الملائكة والخدم لم يأخذها، فهي مقصورة، قد قصرها عن أبصار المخلوقين. يؤذن في يوم الجمعة من أيام الدنيا، ليزوروا الواحد الأحد. يبرز العرش. يتبدى في روضة من رياض الجنة. توضع للصالحين مثله منابر من نور، ومنابر من لؤلؤ، ومنابر من ياقوت، ومنابر من زبرجد، ومنابر من ذهب، ومنابر من فضة. يجلس أدناهم، وما فيهم من دني، على كثبان المسك والكافور. سئل رسول الله: هل نرى ربنا؟ قال: نعم. هل تتمارون في رؤية الشمس والقمر ليلة البدر؟ قيل: لا. قال: كذلك لا تتمارون في رؤية ربكم، ولا يبقى في ذلك المجلس رجل إلا حاضره الله محاضرة.

اعتادت أم محمد غيابه عن البيت يومًا بليلة، أو يومين بليلتين يجلس — بين أوقات الصلاة — في صحن مسجد المسيري. يُلزم نفسه بخدمة المصلين، ويكنس المسجد بنفسه، وينظف دورات المياه. يمشي في الشوارع والأسواق حاسر الرأس، حافي القدمين. عاريًا إلا من قطعة خيش تغطى صدره وحول بطنه.

تركت المرأة — ليلة — حجرة نومها مع الأولاد. دفعت باب حجرته الموارب. أعادت التثبت من حمالتي القميص الستان الأحمر فوق كتفيها.

كان قد تمدد على بطنه، ودس يديه تحت المخدة، وتعالى شخيره.

داعبته بأصبعها في بطن قدمه، فانتتر مذعورًا. كان قد انفرد عن المرأة والأولاد. تخلَّى للعبادة، وانقطع إلى الله تعالى. ضعفت أحوال الحس، وقويت أحوال الروح بعاقل العبادات والذكر، وغلب سلطانها، وتجددت النشوة الربانية. مضى إلى النهاية في الرياضة والمجاهدة.

فوجئ بوقفتها الخائفة.

دفعها بقدمه في صدرها: امشي!

جرت — بظهرها — إلى الباب المغلق. فتحته، وانحطت — تلملم نفسها — على كنبة الصالة.

لم يعد يلتفت إلى ما تراه عيناه. هو يكتفي بالنظر إلى ما بداخله، ما يشغله، ويلح عليه، يضنيه. انطلق من ضيق المحسوسات إلى لا نهائية الحضرة الإلهية. حرم على نفسه النوم إلى جوارها، منذ عرف طريقه. ضجر من صحبة الأغيار، وآثر الزهد. انقطع للعبادة. جاوز سجن عبادات صفات النفس إلى الصفات الروحية في عالم الأمر. محبة الله لا تدخل القلب، ولا تستقر فيه، إلا إذا خلا القلب من حس سواه. تكشفت الأنوار الإلهية، فاحتجبت المحسوسات. خرج عن حظوظ النفس بالمجاهدة والمكابرة. اشتغل بالله تعالى، وتجرد من أسباب الدنيا، ورغب في الآخرة. محا أسرته من قلبه، لا يستقر فيه إلا الذات العلية. تحمل نار المعاناة، ليتذوق حلاوة القرب، ويشرب من خمر المعارف الربانية، الأزلية، وينغمر في بحر النور. تلبسته الخشية من الصد والهجر وعدم القبول، ففتح أبواب الشدة، والذل، والجهد، والسهر، والفقر، والخوف. قطع المنازل والمقامات. كشفت سجوف الظلام عن عالم الملائكة والوعد والجنة والأشجار وأنهار اللبن والعسل والسقاة والحور العين. أحب الأشياء حين يخلو إلى نفسه: كيف يشرق نور قلب، صور الأكوان منطبعة في مرآته؟ كيف يرحل إلى الله وهو مكبل في شهواته؟ كيف يطمع أن يدخل حضرة الله دون أن يتطهر من جنابة غفلاته؟ كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار قبل أن يتوب من هفواته؟

خطر له أن يؤمها في صلاة الفجر. يئس من ردها على ندائه. نضح في وجهها الماء، وقال لارتعاشتها الخائفة: من استيقظ في الليل وأيقظ امرأته، فصليا ركعتين ... كُتبا من الذاكرين الله كثيرًا والذاكرات.

رآه أمين عزب يطير وراء أولاد يعاكسونه في شارع أبو وردة. يقذفونه بقطع الحجارة الصغيرة، وقشر البطيخ، وهو يتقي بيديه، ويصرخ.

زجر أمين عزب الأولاد. تصعب للمشهد وهو يتجه إلى باب الجمرك. جرى الأولاد بالخوف من مكانة أمين عزب في نفوس آبائهم.

– ثم ماذا يا علي؟

علا صوت الراكشي: من يريد الله ... لا يريد سواه!

رماه أمين عزب بنظرة غاضبة: هل أفقدك يوسف بدوي عقلك؟!

جزيرة السحر تبوح بسرها

اقتحمت أنفه رائحة الدخان والأنفاس، ولاحقته الأصوات المنادية، والمتسائلة، والداعية.

كان يغالب الارتباك، وهو يتلفت حوله. ربما فاجأه صديق لأبيه، أو أحد الجيران.

لجأ إلى خياله. اختلق الروايات. ضمنها حكايات للرجال في الزردوني والبحر ومخيمخ، أنصت إليها. نقلها للأولاد بإضافة وحذف، وجعل نفسه فيها. بدا له كوم بكير دنيا غريبة، ساحرة، تاق لرؤيتها.

واجه محمود همسه بغضب لم يعهده فيه: لكنك تذهب إلى هناك.

قال بصوت متوجس: من قال لك؟

واجه عينيه: أنت قلت في القهوة.

هز محمود قبضته: أنا أكبر منك.

داخل صوته ارتعاش، كمن يهم بالبكاء: لم أعد صغيرًا.

هتف محمود في لهجة باترة: لو ذهبت إلى هناك ... سأريك شغلك!

سكت، وإن ظلت الفكرة في داخله. تلبسته، فلم تعد تفارقه. هو لا يفترق عن الأولاد إلا بالروايات المختلفة. الذهاب إلى كوم بكير يعود بحكايات حقيقية لا تنتهي.

احتفظ بخمسين قرشًا من إيراد شروات الصباح في الحلقة. استقل الترام إلى ميدان المنشية. مضى في شارع السبع بنات. بوصلته حكايات الرجال، والأخيلة المجنونة تناوش ذهنه، وتدفعه: لما ذهبت إلى كوم بكير ... رأيت في كوم بكير ... لي صديقة أتردد عليها، كل مساء، في كوم بكير ... لن ألعب معكم، وقتي — بعد الحلقة — أقضيه في كوم بكير ... نصف نساء كوم بكير يحببنني ... كوم بكير دنياي المفضلة ... يصعب أن أصحب أحدكم إلى كوم بكير، فلا يتردد عليه إلا الرجال.

لم يكن يخشى إلا أن تلمحه عين من السيالة: قاسم الغرياني أو المعلم التميمي، وغيرهما، ممن يداومون التردد على كوم بكير. سكت أبوه عن الكثير من تصرفاته، لكنه — بالتأكيد — سيجد في فعلته الجديدة، ما يدعو إلى المؤاخذة القاسية. قد يضربه، أو يطرده من البيت.

طالعه الحي بما لم يتصور أنه يراه. ما يختلف تمامًا عن كل الحكايات والروايات التي أصاخ إليها سمعه، ودفعته إلى محاولة التعرف. الأغنيات تتصاعد من كل مكان، تختلط فلا تبين كلماتها ولا ألحانها ولا مصدرها. الأعين المتسائلة، والمتوجسة، والداعية، ورائحة الطعام، والحشيش، والخمر، والوجوه المصبوغة، والنبرة المتكلفة، والعرق، والنداءات، والضحكات، والآهات، والغمزات، والأنفاس اللاهثة.

مع أنه كان قد أعد نفسه لما رآه، فقد أذهلته نساء اكتفين بوضع غلالات شفافة على أجسادهن. يبدو الصدر والبطن والصرة وما تحت البطن. حتى الحسنات والوحمات يبين لونها الداكن من وراء الغلالة.

واجهه رجل مجدور الوجه، يحيط برأسه شعر مشعث منكوش. في حوالي الخامسة والأربعين. يرتدي جلبابًا مقلمًا من الكستور، ويضع فوق رأسه طاقية من نفس قماش الجلباب، ويحرك بيده عصا معقوفة، لامعة.

– ماذا تريد؟

غالب ارتباكه: أتمشى.

في لهجة مرغبة: هل تريد شيئًا محددًا؟

– لا ... أنا أتمشى.

فاجأته المرأة بالقول، وهي تشير إلى قامته الممتلئة: أنا التي تتحمل عافيتك ... تعال!

في حوالي الخامسة والعشرين. ذات وجه قاتم السمرة، وشعر أسود أكرت. ترتدي قميصًا من الساتان الأحمر، يطل نهداها من فتحة الصدر الواسعة، المشغولة بالترتر.

أذهلته الكلمات، وأرضته.

ترك ساعده ليد المرأة، تقوده إلى داخل الحجرة.

في الركن سرير نحاسي مرتفع، مفروش بملاءة متسخة، وإن بدا لونها أقرب إلى الزرقة. تحته كرسي حمام ليتيح الصعود عليه. وفي الجانب كومودينو صغير، وحامل خشبي، عليه فوطة متداخلة الألوان، وفي الركن المقابل تسريحة بمرآة، صُفَّ عليها زجاجات عطر، وكيس قطن، ومشط متآكل الأسنان، وقطعة من الجلد، أشبه بعصا رفيعة سوداء. وعُلِّقت — على الجدران — صورة من مجلة لتحية كاريوكا ببدلة الرقص،

وصور صغيرة لبحارة ذوي سحن أجنبية، بينما تدلت من السقف مروحة ساكنة، وفُرشت الأرض بسجادة مضفرة من أقمشة قديمة.

– هل أنت خائف؟

التفت إلى المرآة وراءه. راعه الشحوب الذي كسا وجهه.

وهو يبتلع ريقه: لا.

نطت على السرير. عادت أصابعها — من تحت المخدة — بعلبة سجائر. أخذت أنفاسًا متوالية. أطفأت السيجارة في الطبق الخالي على الكومودينو المجاور.

– ما اسمك؟

– مصطفى.

– من الإسكندرية؟

– من بحري.

– أول مرة؟

هز رأسه: نعم.

أعادت السؤال، وهي تواجهه بنظرة مشفقة: خائف؟

اهتز بالانفعال: لا ... لست خائفًا.

أطلقت ضحكة عابثة: من له جثتك لا يخاف إبليس!

ثم وهي تنزل من السرير، وتمضي وراء الستارة المسدلة: استرح حتى أعد نفسي.

ظل في وقفته وسط الحجرة، يتأمل ما حوله. وثمة راديو قريب يتناهى منه صوت منيرة المهدية:

فيك ناس يا ليل بتشكي لك مواجعهم
بالله يا ليل ما تبقاش تواجعهم
أجريت يا ليل على الخدين مدامعهم
باتوا سهارى بطول الليل نواحين
من خوف يا ليل ... ليطول المدى معهم

علا صوت المرأة من وراء الستارة: اخلع ملابسك!

تبينت عيناه خطًّا طوليًّا ضيقًا، يفصل بين الستارة والمكان الذي دخلت إليه المرأة.

مد رأسه بعفوية.

غمض ما تفعله المرأة، وإن فاجأته بما لم يتوقعه. ما تصور أنه يعرفه اختلف عما رآه خلف الستارة المسدلة، وصدمه. كل ما رواه للأولاد صنعه خياله، غذته الصور التي تشكلت من حكايات قهاوي الزردوني ومخيمخ والبحر، ومن الصيادين والسماكين في الحلقة.

صعد القرف بالغثيان في حلقه. وضع يده على فمه — بتلقائية — يمنع انفلات القيء.

اهتزت الستارة الخشبية، الملونة، في اندفاعه إلى الطريق.

وكان نداء المرأة يلاحقه.

قبل موسم السردين

قال المعلم ناجي التميمي: ماذا حدث؟

قال صابر الشبلنجي وهو يشير إلى السيدة على باب الإسطبل: الست تريد أجزاء من حافر البغلة.

– لماذا؟

غالب صابر تردده: قيل لها إن أجزاء الحافر إذا وضعت في الطعام، ينقطع حيض من تأكله وحملها.

لم يبدُ على التميمي مشاعر من أي نوع. لا دهشة ولا تأثر ولا غضب. قال وهو يتجه إلى الداخل: كل شيء هنا بالفلوس ... فهل تملكين ثمنها؟

نطقت الاستجابة في عيني السيدة ذات التايير الرمادي، والنظارة الطبية.

مال التميمي إلى يمين الإسطبل. اطمأن إلى عليق الخيل: الشعير والذرة والفول والتبن والبرسيم. عُلقت على الجدران سست وقضبان حديدية وعجلات وروملمان بلي.

اتجه إلى سلم البيت.

مبنًى من الطوب الأحمر. نوافذه خشبية من ضلفتين. بابه الرئيسي في شارع سيدي كظمان، الخلفي. استأذن من حمادة بك — بعد أن استأجر منه الإسطبل، فأغلق الباب الرئيسي — واكتفى بباب شارع السيالة. نوافذ للطابق الأول تفتح على الإسطبل. أما الطابق الثاني، فنوافذه تطل على شارع سيدي كظمان.

قال التميمي: علينا مجاملة المعلم عباس الخوالقة في حفل زفاف ابنه.

– محمود؟

وهو يلوك فصًّا في فمه: لا ... مصطفى ... الولد الأصغر ... أجبر أباه على تزويجه من بنت عبد الوهاب أفندي مرزوق.

وطرد ذبابة من أنفه: الزفة ليست طويلة ... شقة العروسين في الطابق الرابع الخالي في بيت الخوالقة.

البيت في نهاية السيالة. تمضي الزفة إلى ميدان المساجد. تطوف دوراتها السبع أمام السلطان، ثم تمضي في طريق الكورنيش، إلى السلسلة، وتعود.

قال صابر متذكرًا: متى الزفاف؟

قال التميمي: في موسم السردين.

قال صابر: لما ظهر عصفور النيل على الشاطئ منذ أيام ... أكد الجد السخاوي اقتراب موسم السردين.

قال التميمي بنبرة متعالمة: الراديو يتحدث عن ارتفاع فيضان النيل هذه السنة.

ثم وهو يعدل كمي البنش: فلنتوقع بإذن الله محصولًا وفيرًا من السردين.

عرف صابر — من أحاديث الصيادين على قهاوي الحي — متى يبدأ موسم السردين، ومتى ينتهي. يمتد من سبتمبر إلى يناير. جمعة النيل، موسم الزيادة، موسم القطن للصيادين. فصل الشتاء ميت، للصيد فيه أيام قليلة: الجمبري والسيفوليا واللوت والصبيط والدنيس والسيوف والكابوريا. أسراب السردين تفد بالملايين في أبو قير. يدفعها ماء النيل، والطمي، إلى البحر. تتألق في لون الفضة على سطح الماء. تحلق فوقها أسراب طير البحر. تهبط بمناقيرها، وترتفع. تستقبلها أساطيل الخشب في عرض البحر من الأنفوشي وإدكو ورشيد والبرلس ودمياط. تزدحم القوارب والشباك وعمليات البيع والشراء والصفقات المؤجلة. موسم الرواج، وزواج الأبناء، والأفراح، وتجهيز البيوت. كل الأمنيات الصعبة تنتظر تحقيقها في موسم السردين. معظم طعامه في جمعة النيل هدايا: المبرومة الأكثر سمنة، والمفطرة الأكثر نحولًا.

سأل التميمي وهو يتجه ناحية السلم المفضي إلى داخل البيت: الست فوق؟

قال صابر: لم ألمحها في الشباك.

كان باب البيت مفتوحًا. لا يغلق في ليل أو نهار، وإن حرص التميمي على إغلاق الحجرة التي يقيم فيها مع جمالات. يصعد صابر الدرجات الخشبية. يدخل الصالة. يضع ما يحمله من احتياجات البيت. ينظر إلى الصالة والحجرات المحيطة بها. بسرعة، أو بتأمل. إذا أراد التميمي، طرق باب الحجرة، أو يعود إلى الإسطبل.

حين تقدم التميمي — منذ ثمانية عشر عامًا — لخطبة بنت المعلم كشك الكبرى، غالب الحرج لاصطحابه الحاج قنديل — وحده — يزكي مطلبه. نسب قامته الطويلة

لأبوين من فلسطين، قدما إلى بحري فترة الخلافة العثمانية. أقاما في السيالة لأنها تذكرهما بحيهما في مدينة يافا. لم يغادر البيت المطل على داخل الإسطبل بعد وفاة أبويه — مات الأب، ثم لحقته الأم، في العام نفسه — قصَر سكنى طوابقه الثلاثة على أسرته، واكتفى بإيراد الإسطبل. ألغى عقدًا كان أبوه وقعه لشراء إسطبل جديد — بدلًا من الإيجار — في رأس التين، ووقع عقدًا جديدًا على حمادة بك.

سُئل عن الأبناء، فقال إنه يتحاشى الإنجاب. الأبناء مسئولية لا يقوى على مواجهتها ... لكنه تمنى — بينه وبين نفسه — أن تنجب له زوجته طفلًا، ونذر إن أنجب ولدًا، يمشي في زحام شارع الميدان، وعلى رأسه طرحة.

ظلت المرأة بلا خلفة، حتى قتلتها وصفة مسمومة للإنجاب. طالت حياته بلا زواج، حتى قدم — منذ ثلاثة أعوام — بالست جمالات في سيارة تاكسي.

لم تكن من أسر الحي، ولا تكلم التميمي عن ظروف زواجه منها، وإن أكدت الهمسات في قهوة الزردوني أنها من نساء كوم بكير. أُعجب بها، فعقد عليها. عانى — لسنوات — من تحقق الرجفة المتعجلة. يتبعها همود، وتهيؤ للنوم. أفلحت في إطالة اللحظات. جاست به أحراشًا لم يسبق له ارتيادها، فأحبها، وعقد عليها. ثم أدرك أن المرأة تحاول أن تقتله باللذة، فأخلى لنفسه حجرة مستقلة، وترك المرأة وحدها في حجرة النوم. إذا علا في داخله صوت الرغبة، مضى إلى كوم بكير، يطفئ الجذوة المشتعلة، ويعود.

قيل إنه ضعيف أمام الخادمات. لا يقوى على كتم رغبته ولا تلهفه، وتعرض لمتاعب. وأودت به علقة نالها في دحديرة أبو العباس، إلى لزوم الفراش عشرة أيام.

كان يتردد على بار بشارع البوستة. يجلس على الرصيف. أمامه زجاجة الخمر وطبق المزة، وأمام الحصان دلو أفرغ فيه الجرسون خمس زجاجات من البيرة.

وكان من أطعمته المفضلة الريش والخناصر والنيفة والطرب والمخاصي والمنبار. وكان يأكل الحمام واليمام والسمان. إن لم يأكلها في البيت، تردد على مطعم الخيرات بشارع الميدان. وحرص على تدليك العصعص بالثوم الطازج، وأكل الفلفل الأسود والكرفس والجزر الأصفر والتفاح وجوزة الطيب.

قال صابر: العجلة مقلقلة منذ نزهتك الأخيرة على الكورنيش.

ثم وهو يهز رأسه: سأصلحها.

يحلو له الجري في شارع الكورنيش بآخر ما عنده. ضحكاته عصبية للصرخات الخائفة من اندفاع البنز وسط السيارات والحناطير وعابري الطريق. يميل البنز، فتعلو

الصرخات للتصور أنه سينقلب على الحصان، وعلى راكبه، وعلى الناس في الطريق. حتى في المفارق لا يحاول التقليل من سرعته. تسترخي يده على اللجام في اعتزامه الميل إلى ميدان أبو العباس. للسلطان احترامه الذي يرفض الاجتراء. يمشي أمامه متمهلًا، ويقرأ الفاتحة. لا يصلي ولا يصوم، لكنه يخاف أذية السلطان. يعرف قدره، ويؤمن بكراماته ومكاشفاته، ويؤمن بكرامات وشفاعات الأولياء الذين يمر على أضرحتهم، في طريقه إلى الإسطبل. يعيد قراءة الفاتحة.

قال صابر: اليوم السبت ... هل تذهب إلى سبورتنج؟

حدجه بنظرة متسائلة: لماذا؟

– سباق الخيل.

وهو يبدأ في ارتقاء السلم: سباق البنز على الكورنيش أجمل!

غجرية

نبين زين!

استوقفه النداء. تصور المرأة ذات الفستان الأسود، المكشكش والطرحة، والقفة فوق رأسها، وحلقة الذهب الفالصو مغروسة في الأنف، والوشم الأخضر أعلى الصدغ.

كان يتمدد في استرخاء القيلولة. اعتذر للرجل الذي أطال وقفته أمام الإسطبل بأن الكرابيج سليمة. المعلم التميمي يرفض أن ينزل الكرباج من اليد على جسم الحصان.

قال الرجل: أنا أفتل الكرباج لزوم قيادة الحانطور.

أشاح صابر بيده: عد مرة ثانية ... قد يوافق صاحب الإسطبل.

تنبهت لإشارته في وقفتها القصيرة أمام الإسطبل. همت بالقعود على الباب، ثم فطنت لما في باله.

النافذة المطلة على الإسطبل مغلقة، وشارع السيالة يخلو من المارة.

مضت — مبتسمة — إلى الداخل: ارم بياضك.

دس يده في جيب البنطلون، وأخرج تعريفة.

دفعت بالصدَفة: هذه ملكة البحر ... وشوشها.

قال صابر: أريد أن أوشوشك أنت.

تظاهرت بعدم الفهم: أشوف بختك.

غمز بعينه: أعرفه.

حبكت الطرحة حول رأسها: فماذا تريد؟

وهو يتأمل الخال الصغير، رسمته بالكحل على خدها: أريدك أنت!

ثنت جسمها، لتتفادى مداعبات يده في صدرها: أنا لا أريد.

اهتاجت أعصابه: سأدفع ما تطلبين.

لعقت شفتيها بطرف لسانها: هل تقوى على مهري؟!

ضربته على فخذه معابثة: فتهيأ لدخول الجحيم.

قدَّم عرضه، وقدَّمت عرضها. سبقها إلى المخزن. سوَّى المرتبة. نزعت الشبشب — بتلقائية — وتمددت إلى جانبه. أهمل رائحة عرقها، وأهملت رائحة الإسطبل العالقة بجسمه، ومزق البرسيم، وروث الخيل، والمياه العطنة.

استسلمت لقبلته، انتقلت من شفتَيها إلى عنقها، فصدرها. وغادر النورس تحليقه فوق الشاطئ.

– يا كلب!

انتتر مذعورًا، وفزت المرأة تنفض العليق عن فستانها الأسود، وتغالب الارتباك.

لم يعد المعلم التميمي. صار شيئًا زاعقًا، صاخبًا، مخيفًا. يهوي بالكرباج في تلاحق، على صابر المتكوم حول نفسه، يتقي وصول اللسعات إلى وجهه بدفسه في التبن.

كان الرجل يصيح بآخر ما عنده: هذا مكان أكل عيش!

نزلت الست جمالات بقميص النوم، وحافية. خافت أن يموت صابر في يد المعلم: تروح فيه؟!

وهو ينتفض من الغضب: أنت لا تعرفين ماذا فعل!

قالت في هدوء: أعرف.

أردفت لنظرة الدهشة المتسائلة: رأيته وهو يتسحب بالمرأة إلى داخل الإسطبل.

بصق الفص من فمه: وتسكتين؟!

دون أن تجاوز هدوءها: هل ألم الناس؟! ... انتظرت حتى تأتي ... لكنك سبقت.

ثم وهي تربت صدره: لا تفعل هذا ثانية ... اطرده ولا تقتله!

لم يكن الاستغناء عن صابر مما يدور له ببال. منذ أوصى حمادة بك على صابر، وهو يعتبره جزءًا من الإسطبل. تركه لعم شفيق عبد السيد يعلمه. ثم تركه. يحاسبه في عودته إلى البيت كل مساء، أو — إذا تأخر — ظهر اليوم التالي، لا يسأله.

هل فتحت القطة المغمضة عينيها.

أعلن الرجل غضبه لأن الغجرية أسلمت نفسها له داخل الإسطبل، فهل يعرف أنه — صابر — يصحب امرأته إلى بيت الأسطى فتحي الخياط؟!

طلبت أن يعد لها حانطورًا، ويأخذها في مشوار إلى شارع قبو الملاح.

أمام بيت يعرفه، قالت: قف. فوقف ...

قالت في لهجة معتذرة، وهي تصعد الحانطور: تأخرت عليك؟

ثم أومأت برأسها ناحية البيت: في هذا البيت أقارب يرفض المعلم زيارتي لهم.

جذب لجام الحصان. لم يحاول الرد عليها، أو حتى النظر نحوها. البيت للأسطى فتحي. التقى به وهو يحمل شعرات حصان، عالج بها سكان الطابق العلوي زوائد سنط. عرفه، وسلم عليه، ودعاه للدخول.

ظل دكان العلافة مغلقًا لأشهر طويلة، منذ وفاة صاحبه. ثم ظهر على بابه المفتوح، يشرف على تجهيز الدكان، ونقل ماكينة الخياطة وترابيزة التفصيل والكراسي. عرف أن الدكان تحول إلى ترزي عربي، يحيك الجبب والقفاطين والأحزمة الشاهي، معظم زبائنه من مشايخ الحي، الأئمة والقراء وطلبة المعهد الديني.

الأسطى فتحي يقف وراء الترابيزة. المازورة على كتفه، والمقص في يده. يعتز بأنه يجري بالمقص في القماش دون «باترون». طلب منه — فيما بعد — أن يأخذ باله من الدكان، حتى يقضي حاجته في ميضة سيدي نصر الدين. وتبادلا كلمات سريعة، حول الجو ومعارك البوليس والمتظاهرين في ميدان المساجد.

لم يكن يبدو أن ساقه المهيضة تضايقه. يتساند على العكاز ليعوضها، وإن كان يظلع في مشيته، رغم العصا التي تسبق خطواته.

لما تعددت المشاوير، صار — دون أخذ ورد — أمينًا على سرها. ينقل إليها مواعيد الأسطى فتحي. ينقل إليه قبولها، أو اعتذارها. يطمئن التميمي إلى خروجها مع صابر، فلا ينشغل إن تأخرت.

حمل إلى الأسطى فتحي — في الدكان أو في الشقة — طعام الغداء: عمود من ثلاثة طوابق. عرف — دون أن تحذره جمالات — أن معرفة المعلم التميمي بالأمر تعني طرده من الإسطبل. يأخذ الرجل العمود. يفرغه في أوانٍ، ويعيده. لا يحمل صابر رسائل إليه منها، ولا يحمل رسائل منها إليه. يكتفي بالسلام، ورده، ويعود.

لم تحدثه عن العلاقة بينها وبين الأسطى فتحي. هل هو قريبها أو مجرد عشيق؟ ... ولم تأتمنه على سر العلاقة باعتبارها كذلك.

افتر فم الست جمالات عن ابتسامة واسعة، فبدت أسنانها غير المتسقة: هل جننت؟! ... امرأة داخل الإسطبل؟!

وقلبت شفتها السفلى: وفوق عليق الخيل؟!

واكتسى وجهها جدية: لن أستطيع إقناع المعلم ثانية أن يعفو عنك.

ثم وهي تصعد الدرجات إلى داخل البيت: غجرية؟!

ذبالة

قال عباس الخوالقة: إذا لم تكن مهجة قد أكملت فرحتها، فلا بد أن أعيد ليالي الفرح من أولها.

ليلة الحنة تسبق ليلة الفرح. تعلق الزينات، وتغني العوالم، وتُزف الصينية في شوارع السيالة.

ظلت مهجة على صمتها. تتابع الكلمات والتصرفات بعينين تائهتين.

صحبتها أمها — والشمس في الأفق الشرقي — إلى الشيخ عبد الحفيظ، إمام سيدي علي تمراز. تلا فوق رأسها آيات من القرآن، وردد أدعية، وتمنى لها الفلاح. ثم كنست أم محمود بيت العروسين في شارع سيدي كظمان. من الباب الخارجي إلى داخل الشقة. حتى بلكونة المنور المطلة على خرابة، جمعت ما كان فيها من أوراق صغيرة، وحرقته. وقرأت آية الكرسي، وحوقلت، واستعانت من الشيطان، ودعت للعروسين، وهي ترش الشقة بالملح.

أسلمت مهجة جسمها ليد زمزم الداية، تنزع الشعر عن الوجه، وتحت الإبطين، والساقين، والعانة. ثم تجري بالجلسرين والليمون والكريم. لم يكن في بال مهجة شيء. كأن الأمر لا يعنيها. كأنها ليست هنا، أو أن الجسد ليس جسدها.

شدد الخوالقة على صبيانه في شرائهم للحنة من سوق الدقاقين. أن تكون بلدية. لونها فاتح، وخواصها معروفة، بعكس الحنة الإفرنجي أو البغدادلي. أزهارها باهتة اللون، ولا تستخرج من شجرة الحنة. خليط نباتات يصيب الشعر بالجفاف والتقصف.

أصر الحاج محمد صبرة أن يتولى بنفسه تحنية يدي وقدمي العريس، وحلاقة شعره، وإعداده للزفاف.

– أعود لما نسيته من أجل عيني الخوالقة.

زادت أم محمود من نثر أوراق الحنة الجافة على العتبات، وداخل البيت. تلحقها بأدعية تطلب البركة والخير. وتضوع البخور. اختلطت روائح المستكة وعين العفريت والحنتيت والكسبرة وعرق الحلاوة والشبَّة وكناسة العطار.

ضايقها أن الحاج قنديل لم يأذن لأم أولاده بحضور ليلة الحنة. لما وجَّه عباس الخوالقة دعوته، اعتذر الحاج قنديل بأن المرض أقعد المرأة، فهي لا تغادر البيت إلا للطبيب.

قال مصطفى: العريس أهدانا حنة ممتازة.

وضِعت الصينية داخل فانوس كبير من الأوراق الملونة. غُرست فيها أكواب زجاجية مملوءة بالرمل، بكل منها شمعة.

مضت الزفة في شوارع الحي. تتوقف أول كل شارع أو حارة. تحصل على التحية من الواقفين على الأبواب، وفي النوافذ، وداخل الدكاكين. يوضع الفانوس فوق كرسي مرتفع. يرقص الأولاد والبنات حولها، ويغنون:

يا حلوة ضمي الغلة ... وريني شعرك وريني
لتكوني قرعة تغشيني ... شعرك حلو عجبتيني
يا حلوة ضمي الغلة ... وريني رجلك وريني
لتكوني عرجة تغشيني ... رجلك حلوة عجبتيني
يا حلوة ضمي الغلة ... وريني عينك وريني
لتكوني حولة تغشيني ... عينك حلوة عجبتيني

قال عباس الخوالقة: هذه حنة فلاحين ... غنوا حنة الصيادين.
قالت أم محمود: لا يوجد حنة فلاحي وصيادي ... أغنيات الحنة للجميع!
وتعالت أصوات الأولاد والبنات:

الحنة يا الحنة ... يا قطر الندى
يا شباك حبيبي يا عيني ... جلَّاب الهوا.

مضى الموكب من ميدان أبو العباس إلى حارة أبو يوسف. قبل أن يميل إلى السيالة، أوقفته صيحة مفاجئة: انتظر!

توقف الموكب عن الغناء.

اتجهت الأعين المشدوهة، المتسائلة، الخائفة، إلى المنظر الذي حمله الرجل: كرسي صغير، عليه صينية مستديرة، فوقها شموع مضاءة، وحنة معجونة، ورُصت في جوانبها ورود.

قال وهو يضع المنظر على الترابيزة: هذه الحنة هدية المعلم حنفي قابيل.

قال مصطفى الخوالقة: معنا الحنة.

قال الرجل: النبي قبل الهدية.

قال مصطفى: الحنة معنا تكفي وتزيد.

قال الرجل بلهجة ذات مغزًى: هل أعود إلى المعلم بهديته؟

همس محمود الخوالقة: ألم ينتهِ عهد الفتوات؟

قال مصطفى الخوالقة: أستطيع أن أخطف رجلي إلى نقطة الأنفوشي.

أدرك عباس الخوالقة ما يعنيه الرجل. قال لتفوت الليلة على خير: هدية المعلم حنفي قابيل مقبولة. جميل أن يضع العروسان نوعين من الحنة!

الخوالقة يطلب الطلاق

خلا شارع السيالة من المارة. الأضواء الباهتة، المنبعثة من أخصة النوافذ تريق تكوينات متداخلة على الجدران وأرض الطريق. لا صوت سوى وقع قدميه في الأرض الموحلة. لمح مطعم النبلاء مواربًا. خلا من الزبائن، والكراسي مقلوبة فوق الطاولات، وسلامة مشغول بتقطيع الخضار. وثمة قطان علا مواؤهما، وهما ينبشان بقايا سمك، وعربات يد، صُفَّت في جانب الشارع، لُفَّت بمشمع وحبال تصعِّب التعرف إلى ما بها.

كانت قهوة الزردوني قد أغلقت ثلاث ضلف، بينما فتحت الرابعة، المواجهة للنصبة.

جلس في الركن أربعة، اثنان يلعبان الكوتشينة، واثنان مشغولان بالحديث. تبين خميس شعبان بشعره المنكوش ورقبته المندفسة في ياقة الجلابية. وثمة تكوينات، في السقف والجدران، تشكلها اهتزازات الضوء المرتعش للمبة المتدلية من السقف.

اقترب، فتعرف إلى الثلاثة الآخرين.

ألقي تحية المساء، وقال: أريدك يا حمادة بك في كلمة.

سأل عنه في الأماكن التي يتردد عليها: جامع أبو العباس وقهوة فاروق ووكالة درويش بشارع الميدان.

قال الحاج محمد صبرة: اسأل عنه في الزردوني.

ثم في صوت متعجب: أعلن اعتزامه دخول الانتخابات ولم يدخلها ... وها هو ذا يعد للانتخابات قبل أن يُحَل البرلمان القائم!

بدا عباس الخوالقة مهمومًا بما لم يعهده من قبل. العصبية واضحة في ارتعاشة أصابعه، وبربشة عينيه.

تعالت — وراء الباب المغلق — دقات الطبول والدفوف وأصوات الطاسات والصاجات والأغاني والصيحات والنداءات والزغاريد.

نزع فؤاد أبو شنب الطربوش. قذف به في فراغ الحجرة، ثم بدأ في فك أزرار الجلابية. تجرد من ملابسه. دعا مهجة للتخلص من ملابسها. ظلت قاعدة على طرف السرير. لامس صدره ظهرها، ولثم كتفَيها بقبلة طويلة.

أعدت نفسها لخطوات رتبتها أمها. أغلقت باب حجرة نومها من الداخل. جلست على كرسي التسريحة، وأشارت إلى مهجة، فجلست على طرف السرير.

– الليلة تبدأ مسئوليتك في تكوين أسرة جديدة.

ولامست صدرها بأصابعها: من ناحيتي، أنا لم أقصر معك في شيء ... تستطيعين القيام بأعباء بيتك بمفردك.

ثم كأنها تطمئن: أليس كذلك؟

هزت مهجة رأسها مؤمِّنة.

قالت أم محمود: مسئولية البيت ليست طبخًا وكنسًا فقط ... فللرجل حقوقه.

واحتضنت شرود البنت: المرأة في شرع الله مجعولة لزوجها.

وداخل صوتها ارتباك: عليك أن تعطى لزوجك من نفسك كل ما يطلبه.

وحدقت فيما لا يرى: هذه هي سنة الحياة، وهي الطريقة التي أنجبتك بها، أنت وإخوتك.

وربتت فخذ مهجة برفق: أثق أنك ستحسنين التصرف.

ثم وهي تغالب — للمرة الأولى — غيمة دمع في عينيها: دعواتي — يا غالية — أن يحفظك الله في نفسك وزوجك وأبنائك بإذنه تعالى.

باخت مشاعر فؤاد أبو شنب حين أجابت في ندائه عليها: يا هشام. ثم التمس لها العذر في خطبتها الطويلة لابن المعلم كشك.

وضع ذراعه حول وسطها، فانتفضت. جذبها — بعنف — نحوه. شهقت — للمفاجأة — وتملصت إلى أسفل.

اندفع نحوها.

مد يديه، يحاول أن ينزع ثيابها. قاومته بيديها، وبالصرخات المكتومة.

همست لأمها: أنا لا أحبه.

قالت أم محمود بلهجة باترة: هو يحبك ... وهذا يكفي.

– لكنني لا أحبه ... أنا لا أعرفه!

– ومنذ متى تعرف الفتاة زوجها قبل الزواج؟

ثم وهي تربت كتف مهجة: بعد الزواج تأتي المعاشرة ... والحب.

التف ذراعه حول خصرها، واجتذبها نحوه بقوة. مالت برأسها وأعلى صدرها إلى الخلف. لحق رأسها براحة يده اليسرى. فحت أنفاسه اللاهثة في فمها المفتوح.

هوى على شفتَيها. قبَّل شعرها، ووجهها، ورقبتها. بحثت أصابعه عن أصابعها، تداخلت فيها. زاد من ضغطه على صدرها. ابتلع شفتَيها في فمه. ظلت شفتاها مضمومتين، وهي تحاول التملص. ثم استطاعت دفعه بآخر قوتها.

تناثرت النصائح والهمسات من أفواه النساء والبنات، منذ بدأت التزين في ليلة الحنة. أعدها الكلام — بين الجد والدعابة — لمواجهة ليلتها الأولى. تبدل المشهد بما لم تكن تتوقعه. غابت التصورات في الوجه المتقلص الملامح، والعينين المحتقنتين، والشارب المرتعش فوق شفتين ممتلئتين.

همست في صوت متحشرج: إذا اقتربت ... سأقتل نفسي!

في هدوء مخيف: هذا شأنك!

حاول — ثانية — أن يجذبها إليه، لكنها انتزعت ساعدها من يده. أطارت — في اندفاعها — طبق الفاكهة على الترابيزة المجاورة.

اندفعت نحو الباب.

مد قدمه، فتعثرت. لحقها وهي تسقط. رفعها من كتفَيها، وأدارها ناحيته بقسوة.

تراجعت حتى تساندت على الباب، وتكوَّرت على نفسها.

اقترب بجسده العاري، ولهاثه: مكسوفة من زوجك؟!

احتواها بين ذراعيه. مال بوجهه عليها، يريد تقبيلها. ضربته بقبضتيها ضربات متلاحقة. علا برأسه، فتملصت ثانية، ودفعته بقدمها. تعثر، وسقط. تساند على أصابع يديه، وهو يرميها بغضب مشتعل: من تظنينني؟!

قفز بحضنه. خربشت بأظافرها وجهه وعنقه. عضته، فلم ترفع أسنانها حتى تأوَّه.

انطلقت الصرخة من حلقها، قبل أن يكتم فمها براحة عريضة، متقلصة.

لوى شعرها في قبضته. دفع برأسها في الحائط. فاجأها بما لم تكن أعدت نفسها له، وآلمها. تحملت وهي تبكي. كزت على أسنانها وتأوهت، وصرخت، وحاولت التملص ... لكن أصابع يديه كانت قد تشابكت حول صدرها من تحت إبطيها.

تذوقت شفتاه الطعم الملحي لدموعها. قال في ضيق: هل هو فرح أو مأتم؟

ثم وهو يرتدي ثيابه: أنت حلالي ... من حقي أن أفعل بك ما أشاء!

تركت البيت فور خروجه.

حمدت الله أن أباها نزل الحلقة، فروت لأمها.

هتف عباس الخوالقة — بعد عودته — لكلمات المرأة الهامسة: لا بد من تطليق البنت!

ثم قال لنظرة عتاب صامتة، حدجته بها المرأة: أخطأت لما قبلت تزويجها له … والخطأ مردود.

قال حمادة بك: أنت لم تسألني قبل أن توافق على زواج ابنتك من فؤاد أبو شنب.

نفخ الخوالقة في ضيق: ذلك موضوع انتهى!

قال حمادة بك: امنحني فرصة لحل المشكلة بالود.

غالب التردد. فتش عن الكلمات التي تشير إلى فعلة الرجل. هز رأسه في حسم: لا فرصة!

هل أقطع ذراعي من أجل امرأة؟! … أصوات الصيادين تهمني، وفؤاد أبو شنب هو المسئول عن الفرن قبل وفاة أبي.

فوِّت هذه المرة يا عباس. الطلاق أبغض الحلال.

رماه الخوالقة بنظرة لم يعهدها في عينيه.

قال لينهي الموقف: أعدك بدفعه إلى تطليق البنت.

قال الخوالقة: هذا كل ما أريده.

ثم وهو يتهيأ للقيام: لا أريد إلا ابنتي!

الشوطة

قال الحاج قنديل، وهو يجيل نظرته في أرجاء الحلقة: اللهم إنا لا نسألك رد القضاء، ولكن نسألك اللطف فيه!

خلت من الحركة. لا أحد، إلا أربعة رجال انشغلوا بصف الطبالي القليلة، المتناثرة، وهواء الصباح الخريفي، أثقلته رطوبة خانقة. اختفت القطط. كانت تصطدم — أيام العمل — في الأرجل والطوالي والمشنات والطاولات والكراسي. وثمة كلب أقعى في المدخل، تدلى لسانه، ولهاثه مرتفع.

قال في نبرة متصعبة: من أين جاءتنا هذه الشوطة؟

قال خميس شعبان: يقال إن السبب أغذية ملوثة في معسكرات الإنجليز بالتل الكبير.

وهو يهز رأسه: المسافة بعيدة.

قال خميس شعبان: لهذا قيدوا حركة المواصلات.

استغنى — لضعف السوق — عن ثلاثة من موظفيه، كانوا يسجلون حصيلة بيع كل يوم في الحلقة. لاحظ حملات مفتشي الصحة، يصادرون الغذاء المكشوف — الخبز والخضار والفاكهة والمشروبات غير المعبأة — يقذفه العمال في عربات البلدية. أنصت — مذهولًا — إلى ما روته الصحف عن دفن الموتى في الجير، والجنازات الجماعية في المناطق التي دخلتها الشوطة، وإشعال النيران في الأماكن الملوثة. حتى البيوت حُرقت بعد أن دُفن أصحابها في الجير.

ألف الناس رؤية عمال الصحة، يأتون بعرباتهم، أو على الأقدام، يحملون أنابيب ضخمة، ويمسكون بأطراف الخراطيم المتدلية منها، يرشون الشوارع، وداخل البيوت والدكاكين والقهاوي، لا تشغلهم تأففات الناس ولا اعتراضاتهم، يعفرون كل شيء بلون رمادي ذي رائحة مميزة.

شكا المعلم أحمد الزردوني من أن البواخر تدخل الميناء، فتظل أيامًا دون أن تحصل إلا على حاجتها من الوقود. أما الماء والطعام، فالخوف من الشوطة يمنع شراءهما. حتى البحارة والركاب يظلون في البواخر، لا ينزلون منها.

داوم عباس الخوالقة على شرب الليمونادة، ونصح بها أم محمود والأولاد.

لحقه محمود بعمود الطعام. حذرته أم محمود من تناول أكل السوق، أو الأكل مع الرجال، وحذرته من العدوى في الحلقة والقهوة والطريق.

تناقلت جلسات القهاوي ما نشرته الصحف عن القيء والإسهال وعنابر المستشفيات، وابتلاع الجير الحي جثث الموتى، والعلامات على أبواب البيوت التي دخلتها الشوطة. وروى خميس شعبان أن الحكومة استولت على مجيرة عم سعد بشارع إسماعيل صبري، تحسبًا للخطر.

غالبت خطوات محيي قبطان الارتباك، وهو يقترب من قهوة الزردوني: الموت وصل بحري!

أردف للنظرات المتسائلة، الخائفة: ظهرت حالات كوليرا في رأس التين.

قال عبد الوهاب مرزوق: لكن مكتب الصحة لم يبلغ بحالة واحدة.

قال محيي قبطان: هذا ما عرفته الآن من صابر الشبلنجي.

قال الجد السخاوي: جاءت الهيضة في القرن الماضي، فلم تقتل أحدًا.

سأل حمودة هلول: ما الهيضة؟

قال عبد الوهاب مرزوق: الكوليرا ... الشوطة ... الهيضة ... كلها مسميات لمرض واحد.

لم تعد سيرة كوم بكير تأتي على لسان. قيد الخوف تصرفات الرجال. من البحر إلى الحلقة، وإلى البيوت. قلت أعداد المترددين على قهوة الزردوني، لزم الرجال — معظم الأوقات — بيوتهم. وعلا صوت المعلم أحمد الزردوني بالضيق من الخوف والبطالة. وقال في نبرة حزينة: حتى العمل في الجمرك والميناء، قل تمامًا ... وقلت حركة المغادرين والوافدين.

قال حمادة بك لفؤاد أبو شنب: غطِّ العجين يا فؤاد.

ثم وهو يمسح الفرن بنظرة قلقة: غطِّ الخبز أيضًا.

لم يعد رجال التموين يكتفون بوزن الخبز، وتحليل العجين. يصادرون الأرغفة لأنها مكشوفة، يقذفون بها في عربات البلدية؛ لإعدامها.

قال أبو شنب لطاطا الفران: غطِّ العجين.

تساءل طاطا مازحًا: ليسلم من العين؟!

قال أبو شنب: بل ليسلم من أذى مفتشي الصحة.

ثم في نبرة ساخطة: كل أكل ظاهر يعدمه أولاد الحلال!

تنفس الجميع الخطر. اتقوه في المصافحة والطعام والماء، وفي قتل الذباب. يشكون في أي قيء أو إسهال. ولما شكا قاسم الغرياني من صداع، حدجه عبد الوهاب مرزوق بنظرة توجس، وغادر قهوة الزردوني.

وضع حمادة بك — في مدخل البيت — صينية ديتول مذاب في الماء، يغسل فيها الجميع أيديهم عند عودتهم من الخارج، ومنع ولديه من الذهاب إلى المدرسة، ولزم بيته إلا لمشاوير قصيرة. لم يعد يتردد على أبو العباس، وجلسة الحاج محمد صبرة، والقهاوي. وامتنع عن مصافحة الأيدي في الطريق. قرر أن ينتظر حتى تزول الغمة. حتى الأصوات الصاخبة في داخله، أفلح في كتمها.

أغمضت هنية، بنت هريدي بائع الفاكهة أول شارع الأباصيري، عينيها، وضمت شفتيها، فقال لها عادل عبد الوهاب مرزوق: أنا أحبك.

ووشى صوته بخوف: أخشى من عدوى الكوليرا!

تحركت أنفاس الوباء الغامض، الغريب، في الشوارع والميادين والحواري والبيوت والدكاكين، وفي جلسات القهاوي، وعلى الشاطئ. وخلا شارع الميدان من الباعة، وملأت عربة المبيدات الجو بغلالات بيضاء، متوالية.

تحدث إمام أبو العباس في درس المغرب، عن فوائد الليمون في الوقاية من المرض. وقال الشيخ عبد الحفيظ إمام جامع علي تمراز في خطبة الجمعة، إن ما يحدث سببه نسيان الله والدين والشرع، والإقبال على الدنيا بالحق والباطل. وقال: لقد أصبحنا محاصرين بالموت، ولا نجاة سوى بالإخلاص في التوجه إلى الله، إن لم يأتنا فضل من اللطيف الرحيم، فإن تحلل الجسد في الجير الملتهب نهاية تنتظر أجسامنا.

وحذر من أن الشوطة ربما تأخذ الناس كلها، وتقوم القيامة!

تعالت التحذيرات من أكل الجندوفلي وأم الخلول والجمبري، وعانى عم محمد الطوشي كساد بضاعته، فلزم قهوة كشك، لا يغادرها.

لم يعد عبد الوهاب مرزوق يطيق رؤية الذباب. ذبابة واحدة قد تنقل الوباء إلى أسرته كلها، ووزع أقراص الدواء على جلساء قهوة الزردوني.

تلاحقت أمواج التنبيهات والترقب والخوف والتدافع. تصاعد البخور، يخفي البنايات والناس والأشياء.

قال قاسم الغرياني: حتى الرجل الطيب الحاج محمد صبرة، أخذته لوثة، فراح يعمل بمقصه في الهواء أمام الدكان.

وداخل صوته إشفاق: المسكين! ... يريد أن يقص الميكروبات قبل أن تدخل دكانه!

تزاحم الناس — طلبًا للمصل الواقي — على مستشفى الملكة نازلي، ومكتب الصحة بشارع فرنسا، ومستشفى رأس التين. تزايد الضغط، فانفرطت الصفوف. علت الصيحات والصرخات أمام الباب المغلق، لا يفتح إلا لاستقبال خمسة أشخاص، يظل مغلقًا حتى يحصلوا على الطعم، فيفتح الباب لخمسة آخرين.

قال صابر الشبلنجي: أنا لم آخذ الطعم، ولا زلت حيًّا، مع أني لا أغسل حتى يدي.

بصق حمودة هلول ناحيته: الله يقرفك!

قال صابر في دهشة: ولماذا الطعم؟ ... المرض إذا دخل الجسم لن يستطيع الأطباء فعل أي شيء!

منع حمام الأنفوشي تردد الصيادين عليه. قصر دخوله على الموظفين وتلاميذ المدارس للاستحمام، ولتطهير ملابسهم اتقاءً للوباء. يصرفون لكل مستحم صابونة، لا يعيدها. اكتفى الرجال بالنزول إلى البحر.

ضربت أم عادل صدرها بيدها: ابني لا يذهب إلى حمام الحكومة.

قال عبد الوهاب مرزوق: كل الأولاد يذهبون.

وهي تنفض الفراغ: إلا ابني!

تغيرت سحنته بضيق: على رأسه ريشة؟!

– إنه ليس وسخًا لينظفوه.

قال الحاج محمد صبرة: هذه أفاعيل الإنجليز ... وإلا لماذا ظهرت في القرين أولًا؟!

قال المعلم أحمد الزردوني: قيل إن متعهدي نقل الزبالة باعوها للناس.

قال الحاج محمد صبرة: الإنجليز يعرفون ذلك ... وقد دسُّوا المرض في الزبالة.

ثم بلهجة ناصحة: أنا أغسل كل شيء بالبرمنجانات.

قال المعلم أحمد الزردوني: والماء؟ ... قيل إن التلوث أصابه.

قال الحاج محمد صبرة: أنا أغلي للماء أولًا ... ثم أتركه يبرد.

قال الجد السخاوي: بركة الأولياء ستنقذنا من هذه الشوطة، مثلما أنقذتنا من حرب هتلر.

تسللت رائحة البخور، قوية، نفاذة، من تحت الأبواب، وأخصة النوافذ، وشقوق الجدران، تملأ الجو والفراغات المغلقة، تتسلل داخل الأجسام المتعبة، الخائفة. تزايدت،

واتسعت، حلقات الذكر. علت الأصوات بالوجد والخوف والأدعية. ضاقت ساحات الجوامع بالمصلين. فُرشت الحصر في الميادين والشوارع الجانبية.

صعد الشيخ قرشي قارئ جامع سيدي علي تمراز إلى أعلى المئذنة، وأذن في غير وقت. ثم دعا الله برفع الوباء. قلَّده — في اليوم نفسه، وفي الأيام التالية — قارئو جوامع الحي. حتى الزوايا، صعد إلى أسطحها من أذن، ودعا إلى رفع المقت والغضب عن عباد الله الصالحين.

فرد جابر برغوت ورقة أمامه. كتب عليها أدعية وإشارات وأسماء الله الحسنى وأسماء بعض الملائكة وآيات من القرآن الكريم. ورسم أشكالًا للإنس والجان والحيوان ومربعات سحرية.

رأى جابر برغوت سلطان الإسكندرية يقف أعلى المئذنة، يطل — بنظرة مشفقة — على بحري الساكن، المضطرم، من تحته. راح يهز راحتيه إلى أسفل، ويرفعهما، وهو يتمتم بدعوات غابت في الفضاء الممتد. ثم مسح على جبهته، ودخل إلى المئذنة، فلم يظهر بعدها.

أيدَّ رواية جابر برغوت رجال ونساء، تصادف مرورهم في الميدان، أو كانوا جالسين في الحديقة المقابلة للجامع، أو في القهوة على ناصية شارع التتويج.

قيل إن الشوطة ابتلعت المئات في المدن والقرى البعيدة. منع بركات السلطان دخول الشوطة من مديرية البحيرة. ظلت الإسكندرية آمنة، حتى زالت الشوطة من البلاد كلها.

لحقه صوت صابر الشبلنجي وهو يتجه إلى قلب السيالة: البقية في حياتك!

– من؟

قال الشبلنجي في نبرة متصعبة: مصطفى عباس الخوالقة.

هتف قاسم الغرياني: معقول؟!

في تصعبه: مات عند أخواله في دمنهور.

وأغمض عينيه: الشوطة!

نطق الألم في وجه الغرياني: ماذا كان يفعل هناك؟

قال الشبلنجي: ضايقته قلة الشغل في الحلقة ... فسافر إلى أخواله ...

وتنهد: ليموت عندهم.

ثم وهو يغالب التأثر: عمره!

الخدمة في ساحة الطهر

قال أبو الحسن الشاذلي: «صحبني إنسان، وكان ثقيلا عليَّ، فباسطته فانبسط،
وقلت: يا ولدي ما حاجتك؟ ولمَ صحبتني؟
قال: يا سيدي ... قيل لي إنك تعلم الكيمياء، فصحبتك لأتعلم منك.
قلت: صدقت، وصدق من حدثك ... ولكن أخالك لا تقبل.
قال: بل أقبل.»

«لو كشف عن نور المؤمن العاصي لطبق ما بين السماء والأرض. وأما الأنوار التي أذن لها في الدخول، فهي خاصة بالخواص أهل التفرغ من الأغيار ... فأما من كان قلبه محشوًّا بصور آثارها، فلا يطمع في نيل أسرارها.»

ميَّزته — في غبشة الظلام — وهو يميل من ميدان الأئمة إلى شارع ابن وقيع. تبعته — كما ألفت في الأشهر الأخيرة — لاحقته — في مشاويره القليلة — بين البيت وزاوية الأعرج وأبو العباس. تتوقف إذا توقف لشراء ما يحتاجه من الباعة في ميدان الأئمة. فطن إلى خطواتها المتمسحة في الأرض. اتجه ناحيتها بنظرة مشفقة: سيكون خيرًا يا تفاحة.

تهدج صوتها باللهفة: هل وافق سيدي؟

أعاد القول: سيكون خيرًا.

عملت — لأعوام — رداحة. تتقاضى المعلوم، وتقف أمام البيوت، أو تحت النوافذ والبلكونات. ترفع صوتها على آخره — مع إشارات وحركات بأصابعها ويديها وساقيها وكل جسمها — بعبارات متلاحقة من الشتم والسب والمعايرة. حفظت الكثير من التعبيرات القاسية، والفجة، والبذيئة، لا يشغلها من توجِّه إليه سبابها. تواجهه بما لا يقوى على رده. تطلق السباب أو الشتائم. تسجع العبارات، تنغمها، تمطها. تردح بمفردها. لا يعاونها

أحد. ربما استعانت بطبالة ترافق ردحها بإيقاع منتظم. وقيل إن حمادة بك لجأ إليها للصوات في مأتم أمه. كانت تدرك أنها ربما تتجاوز الردح إلى للدخول في خناقة. تعتمد على قوتها في رد المفاجأة. تحرص فلا تجاوز إحداث سحجات وكدمات وجروح سطحية وتورم. لم تكن تزيد عن الردح إلا إذا انفتح باب البيت، وواجهت من يريد إسكاتها. تتهمه بخدش عفتها إن كان رجلًا. فإن خافت قوته، قبضت على خصيته بيدها، تعتصرها، فتدفعه إلى التهاوي على ركبتيه. حين لا تكون في قوة المرأة التي تردح لها، تمد أصبعيها في فمها. تسحب من تحت لسانها شفرة حلاقة. تلوح بها في وجه المرأة. تفاجئها — ثانية — عندما تجري بالشفرة على خدها، فينتثر الدم. قد تلجأ إلى الخفة: تفاجئ المرأة بشد شعرها، تقع المرأة على الأرض، فتبرك فوقها، تخمشها وتعضها وتضربها بآخر ما عندها. أخفى الناس عنها خصوصياتهم، فلا تحصل على ما قد تستخدمه ضدهم.

أخطأت لما وقفت أمام بيت حسن درويش، صاحب وكالة الاستيراد والتصدير بشارع الميدان. خرج لها نساؤه. أحطن بها، ولوين ذراعها، قبل أن تفعل ما تتهمهن به. لم يتركنها إلا بعد أن أقسمت على الشمس الحرة إنها ستهجر الردح!

جلست — أشهر الدراسة — أمام مدرسة البوصيري الأولية، تبيع للأولاد العسلية والنبق والدوم. ثم لفت جسمها برداء أسود، والتفت بشال أسود، وجلست في ميدان المساجد. لا تستقر في مكان بالذات، لصق جدار المرسي، أو أمام باب ياقوت العرش، أو على سلالم البوصيري المفضية إلى شارع التتويج.

لا يذكر الناس كيف بدأ سعيها وراء الشيخ يوسف بدوي. اعتادوا — وإن غابت البداية — سيرها وراءه من البيت في شارع ابن وقيع، إلى ياقوت العرش، ورجوعه إلى البيت عقب صلاة العشاء. تلزم الرصيف بالقرب من باب الجامع. تسند ذقنها على يدها، لا ترفض الإحسان، وإن حرصت ألا تسأل.

ألف مريدو الشيخ ترددها عليه. تسأله في أمور دينها ودنياها. تظل واقفة بجوار الضريح حتى يراها. يستأذن من جلسائه ويتجه إليها. تسأله ويجيب. لا تطيل سؤالها، ولا يطيل جوابه. يعود إلى جلسائه، فيثني على إيمانها وذكاء أسئلتها، ويتمنى أن يكون هذا هو حال نساء المسلمين. صلاحها أكسبها حريتها، بعد أن كانت تبيع قوتها وجرأتها لمن يدفع الثمن. صدفت عن فكرة الزواج، وانقطعت عن أسباب الحياة الدنيا. راقبت حياة الشيخ، فأزمعت أن تظل بالقرب منه. لم تسأل نفسها: ماذا بعد؟

تملكها بقوة غيبية، عجزت عن مغالبتها. أظهرت الخدمة والملازمة، فلم تتحول عن باب بيته. لازمته ملازمة المريد الصادق لشيخه العارف، يسير في ضوء تربيته، وينهج طريقه لا يحيد عنه.

عرف عنها صدها لمن طلبوا الزواج منها. ترفض دون أن تسأل عن الاسم ولا المظهر ولا المكانة الاجتماعية، كأنها مشغولة بمن لا يعرفه أحد. حين ألح عليها بصري حميدة، الفاكهاني بأول شارع الموازيني للزواج منه، وافقت. بدا لها الزواج من يوسف بدوي أملًا مستحيلًا، لما دخل عليها بصري، جاءها الحيض. انتظر أسبوعًا وهمَّ بها، فجاءها الحيض. تكرر الأمر حتى أدركت أنها مكتوبة للشيخ يوسف بدوي، فطلبت الطلاق من زوجها، وعادت إلى ملازمة الشيخ. ثم فاجأت الجميع بزواجها من الشيخ. انتظرته على درجات أبو العباس المفضية إلى ميدان المساجد.

لحقته بالهمس: سيدي.

تنبه لثالث نداء: هل تقصدينني؟

قطر صوتها بالمسكنة: تحتاج لمن يخدمك.

حدجها بنظرة متوجسة: هل أرسلك أحد؟

ربتت صدرها براحتها: بل أتيت من نفسي.

وهمست: خادمتك تفاحة.

وهو يحك ذقنه بأظافره: بيتي صغير ... ولا مكان فيه للنساء!

رفت على شفتيها ابتسامة متذللة: أريد دخول بيتك بالحلال.

أطال النظر في ملامحها، تحت النور الذي تريقه اللمبة الهائلة في مدخل الباب. بدت في حوالي الثلاثين. حبكت الملاءة حول جسمها، وإن ناقضت حمرة صبغة شعرها بشرتها السمراء. عيناها سوداوان، تطلان من رموش طويلة، يعلوهما حاجبان أجادت رسمهما، وجسمها أقرب إلى الامتلاء، يتسق مع طولها البادي.

قال: ربما لا أتفرغ لحياتي كزوج كما ينبغي.

همست باللهفة: وأنا أريد أن أتبعك في تفرغك لعبادة الله!

لم يرد على قول المرأة، ولا أخذ منها أو أعطى. اكتفى بالقول: فعل الله الخير!

وهبط الدرجات إلى الميدان الواسع.

أخذ عليها العهد، لا تفارقه أينما حل وذهب. تنصرف إلى عبادة الله وخدمة الطريقة. تصبح واحدة من أهل الطريق، يجري عليها ما يجري على مريديه، فلا تسأل ولا تعترض،

وتحيا معه كأنها ميتة. أذن لها في صلاة استخارة، لا خيار لها بعدها. تنذر نفسها لله، يتصرف فيها على النحو الذي تقضي به مشيئته.

قبلت الحياة في بيت الشيخ دون زواج. تخدمه، وتخدم مريديه، لا تحصل إلا على طعامها. تأكل بعد أن يفرغ الشيخ من الأكل. تسأله ويجيب، يشرح ما قد يغمض عنها من حقائق. يرقى بتصورها درجات التصوف، ولا ترى فيه ما تشتهيه امرأة من رجل. غاب التفسير المحدد لهجر المرأة حياتها. التصاقها بالشيخ كالظل بزواج أو بدونه. حتى نبرة صوتها المرتفعة — ألفها أبناء بحري — خفتت، فصارت كالهمس. تنفذ ما تطلبه عيناه، أو إشارة يده. فنيت في الوصال، فصارت مقبولة منه. خمن أنها لم تكن عابثة ولا ماجنة، ثم مالت — من بعد — إلى حياة الزهد. هي — في الأصل — طيبة، لم تمارس الردح إلا كمهنة تتكسب منها، كسبيل لتحياه. ألم تكن رابعة العدوية بائعة هوى؟

لما آن أوان التوبة، أنابت، وأصلحت، وعاشت متبتلة. عرفت الطريق إلى احتمال العبادات، وملازمة الأذكار، والسلوك بأسرار الحروف. وكانت تنخرط في صلاتها بالكلية، فتستغرقها. صار لها أوراد وسياحات وكشف، وغيرها من الخصوصيات.

ما يمنع أن تصدق المرأة في توبتها، وتطهر روحها من العذابات؟

قالت في لهجة مستغيثة: هل يتوب الله عليَّ؟

قال يوسف بدوي: أنت لم ترتكبي كبيرة … إنما هي وسيلة عيش اضطررت إليها.

وهي تغطي وجهها براحتها: آذيت ناسًا كثيرين.

ضحك، وقال: إنها أذية إنسان … تضيع إذا تلقفها الهواء!

أسقط من أذنيه الهمسات: إن المرأة مضت في طريق الشهوات إلى غير نهاية، واقتاتت بأذية الناس، وتطرفت في حبها للدنيا. غاب في أقوالها ما يشي باتصال حكاياتها المشهورة بما تشعر به، فهي قد استظلت تحت رواق الندم، وأفلحت في قتل الأغيار: الوجود والنفس والشيطان. أيقن أن العدوانية التي امتلكتها المرأة لم تكن وليدة ذاتها. ولَّدتها، ودفعتها، ظروف لا حيلة لها فيها.

ضايقه — في لحظات كالومضة — تبدل نظرته للمرأة، وتغير تصرفاته نحوها. يعروه ارتباك لاقترابها ولأسئلتها. يخمن انعكاس نظرات الرجال من حوله. هو لم يسعَ إلى الجمال. الجمال أتى إليه. وقف عند بابه. لم يقدم نفسه بالإغراء ولا الفحش. عرض الخضوع والمسكنة والخدمة في ساحة الطهر. ربما الجمال الحسي — كما ذهب أوائل الطريق — باب الدخول إلى الجمال المطلق. التجليات مقيدة في الصور المحسوسة. تنطلق

إلى عالم الملكوت بفيوضه، ووجده، ومدده. ترتقي من درجة الحسن المحسوس إلى مرتبة الجمال المطلق.

افتر فمه عن ابتسامة ودود، مشفقة: لا يريد الله إلا الخير!

صلاة الجنازة

دعا إمام أبو العباس، في خطبة الجمعة، لخوض الحرب. تلا آية القرآن: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾. وتلا: ﴿ووَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ۞ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾.

بعد أن أتم المصلون قراءة التحيات، وتهيَّئُوا للانصراف، لحقهم صوت الإمام: خمس دقائق.

أضاف للتساؤل في الأعين: سنصلي صلاة الجنازة على الشهيد عبد القادر الحسيني.

تبادل المصلون النظرات. أقلهم كان يعرف الحسيني. معظمهم لم يكن يعرف من هو. كانت الأحاديث تتناثر عن قرار مجلس الأمن بتقسيم فلسطين، وما تلاه من معارك بين الفلسطينيين واليهود. وانضمام عبد العال، ابن صياد الجرافة نصر الساعاتي، إلى قوات الإخوان المسلمين التي ذهبت للوقوف إلى جانب الفلسطينيين.

قال عبد الوهاب مرزوق — في قهوة الزردوني — لتساؤل محيي قبطان: إنه قائد فلسطيني قتله اليهود.

قال محيي قبطان: وهل هو أول قائد فلسطيني يُقتل؟

قال عبد الوهاب مرزوق: الحسيني ليس قائدًا عاديًّا ... كان اليهود يضعون له ألف حساب.

– لماذا لم يأخذ حذره؟

– دافع عن مدينة اسمها القسطل بمئات من العرب في مواجهة الآلاف من اليهود.

لمح الجد السخاوي صابر الشبلنجي قادمًا من شارع السيالة. اتجه إليه بنظرة غاضبة: هل أصبح البحر حمامًا للخيل؟

قال صابر للنظرات المتسائلة: عفَّر التراب جسم الحصان، فغسلته في البحر.

قال محيي قبطان: المياه طاهرة ... حرام أن توسِّخها بحصانك.

قال صابر: لكن الناس يستحمون.

قال محيي: هل تساوي الخيل بالناس؟!

قال صابر: حصاني أنظف من أي بني آدم!

قال الجد السخاوي: أنت قليل الأدب!

وجرى بيده على وجهه، فبدا كفاه المعروقان: ميمون فرس الرسول ﷺ هي وحدها التي لا تلوث البحر إن نزلته ... فهي من المسك الأبيض والأذفر، وجناحاها من الدرر والمرجان.

خالط صوت الغرياني نبرة مؤنبة: لماذا فعلت ذلك؟ ... نحن نحيا على رزق الماء!

قال الجد السخاوي: وماذا كنت تفعل لو ظل قرار منع النزول إلى الأنفوشي ساريًا بعد انتهاء الحرب؟!

قال في استهانة: لو من عمل الشيطان.

قال الجد السخاوي: المكابرة هي ما تعرفه.

وعلا صوته في غضب: الماء طاهر ... والطهارة لا تقبل إلا النفوس الطاهرة!

وقطَّب حاجبيه، فتكرمشت جبهته: من يعصي الله في البحر، فهو يعصاه على أجنحة الملائكة؟

ثم وهو يشيح بوجهه بعيدًا: جزاء المعصية في البحر أضعاف جزائها في البر!

علا صوت إسماعيل سعفان كالمفاجأة: البحر طاهر؟ ... كيف؟! ... إنه غول مفترس!

وتداخلت في صوته بحة غريبة: بحركم لا قلب له! ... ابتلع البهاء فقتلني!

قال المعلم أحمد الزردوني: المؤمن مصاب!

كان البهاء قد أحكم تقييده في الأيام الأخيرة. بدأت الكلمات هامسة. تأتي من المطبخ، أو من الحمام. ربما استمع إليها في داخل الشقة، وهو يضع المفتاح في الباب. جاوزت الهمس فيما بعد. علت بما لا يقوى على سماعه. كأنها الزعيق الصاخب. القهقهات العالية، المتوالية، تخترق أذنه، فتربكه. قال له الولد سمير بن خميس شعبان إن البهاء كان يجاهد حتى لا يغرق، ويصيح بصوت سمعه الجميع: الحقني يابا!

ظل الصوت يطارده. لو أنه كان واقفًا، ماذا كان يفعل؟ هو لا يحسن العوم، لكنه كان سينزل إلى الماء، وكان لا بد أن ينقذ البهاء. وظل الصوت يطارده.

عوده الفاره زاد نحافة، وبرزت عظام وجهه، وانسدل شعره المهوش على جبهته وقفاه، وانطفأ التماع عينيه، وغابت نظرته عما حوله، وأهمل شاربه فتدلى على فمه،

وثمة رعدة خفيفة تسري في وجهه من العين إلى الذقن، تمتد إلى العنق فيبدو كمن يهم بالالتفات. وكان يرتدي جلبابًا حائل اللون، له فتحة في الصدر، تبرز منه فانلة متآكلة الأطراف، ويدس قدميه في قبقاب خشبي، يصدر — إذا سار — صوتًا ذا إيقاع.

انتفض خميس شعبان لمفاجأة لسان اللهب، أطلقه الحاوي الواقف أمام القهوة، من فمه.

هتف محيي قبطان: كدت تقتل الرجل بنارك الملعونة.

واتجه إلى خميس شعبان بنظرة مشفقة: وماذا ستفعل في نار الآخرة؟

قال خميس شعبان: نار الآخرة أعدها الله لأمثالك!

قال عبد الوهاب مرزوق: قلبي يحدثني أن الإخوان المسلمين ذهبوا إلى فلسطين للاستيلاء على القاهرة.

علا حاجبا عباس الخوالقة بالدهشة: فزورة؟!

– الحرب فرصة لتحويل المتطوعين إلى جيش مزود بالأسلحة، يدخلون به القاهرة.

هز الخوالقة رأسه، وأشاح بيده: ياه ... أنت تذهب إلى بعيد!

إغفاءة

علا صوت المعلم أحمد الزردوني بالغضب. نسي الجرسون ياقوت علبة الشاي، لم يغلقها، فأتلفته رطوبة البحر.

انكمشت الظلال، وافترشت الطريق والأبنية شمس عفية. وثمة كلب أقعى تحت رصيف القهوة، يتصيد الذباب بلسانه.

كان الرجال قد عادوا من صلاة الظهر بمسجد المسيري المقابل. لاذوا من تعامد الشمس بداخل القهوة. حتى الجد السخاوي، دفعته الحرارة اللاهبة إلى الداخل. وتعالى من الفونوغراف صوت أم كلثوم:

من أي عهد في القرى تتدفق   وبأي كف في المدائن تغدق

قال الزردوني: ألم يقل النقراشي إن الجيش لن يدخل فلسطين؟

قال عبد الوهاب مرزوق: الأوامر من فوق ... من الملك نفسه!

مال محيي قبطان على عبد الوهاب مرزوق. تساءل في قلق: هل نحتاج إلى تخزين الطعام؟

الإسكندرية تشغي بكلمات: الحرب والقنابل والغارات والأضواء الكاشفة والمخابئ والهجرة إلى الريف.

هل تعود أيام الخوف؟

اعتدل عبد الوهاب مرزوق في كرسيه بتأثير المفاجأة: لماذا؟

قال محيي قبطان: الحرب.

أشاح بيده مهونًا: لن تستمر طويلًا ... أعداد العرب الهائلة ستجبر اليهود على الاستسلام.

قال قاسم الغرياني: الولد ابن صياد الطراحة نصر الساعاتي ... تطوع في الحرب منذ ستة أشهر، وانقطعت أخباره.

قال عبد الوهاب مرزوق: لكن الحكومة رفضت إدخال متطوعين.

قال عم سلامة بلهجة واثقة: تسللوا عبر سيناء.

قال عبد الوهاب مرزوق: والإخوان المسلمون؟

قال عم سلامة: أدوا دورهم ... الحرب الآن مهمة الجيوش.

قال حمودة هلول: ما يحيرني: كيف تعترف روسيا بدولة اليهود، وتحاربها؟

قال عبد الوهاب مرزوق: روسيا اعترفت بدولة اليهود ... أما التي تحاربهم فهي سوريا.

بحلقت عيناه: وما الفارق؟

قال عبد الوهاب في ابتسامة إشفاق: سوريا دولة عربية!

قال محيي قبطان: وماذا عن اليهود المصريين؟

قال عبد الوهاب مرزوق: سيظلون بيننا ... إذا سافروا إلى فلسطين، فسيصبحون قوة ضدنا.

سرح فيما رآه، وهو يهبط سلم البيت في الصباح. كان باب شقة الأسرة اليهودية في الطابق الأول مواربًا. دفعه الفضول. فوجئ بالشقة خالية من الأثاث تمامًا. خمن أنهم ربما تركوا الشقة والمدينة، ثم خمن أنهم ربما سافروا إلى فلسطين.

قال عم سلامة: قد يكون تخمينك في محله ... عرفت من المعلم شوقي تاجر الموبيليا بشارع فرنسا أنهم باعوا له أثاث الشقة قبل أسبوع.

قال محيي قبطان: هل لهذه الأسرة شأن بما يحدث في فلسطين؟

قال عبد الوهاب مرزوق: لا يكتب على الجدران: فلسطين لليهود، إلا أمثال هذه الأسرة ... إنها ...

قاطعه صوت قاسم الغرياني مهللًا: آخر الأنباء.

اطمأن إلى اتجاه أعين الجالسين ناحيته. قال وهو يضغط على الكلمات: الشيخ يوسف بدوي تزوج من المرأة تفاحة.

ثم في نبرة واثقة: اعتذر لمريديه أمس بأنه لن يستطيع استقبالهم في شقته.

قال المعلم الزردوني: هل تخلى عن الصوفية؟

قال الغرياني: لا … لكنه قد يستقبل مريديه في زاوية الأعرج.

قال قاسم الغرياني: هل هما سيد بدوي وفاطمة بنت بري جديدان؟

قال عبد الوهاب مرزوق: لا وجه للمقارنة! … السيد البدوي قطب كبير … وفاطمة بنت بري من أهل الطريق المهمين!

هتف الغرياني بالمفاجأة: لماذا شرَّفت القهوة؟

قال جميعي حميدة وهو يسحب كرسيًّا: هل كتبت القهوة بأسمائكم؟

قال الغرياني: لكنك تفضل البيت.

إذا عاد من البلانس يلزم البيت. لا يغادره إلا لضرورة، أو لرحلة جديدة. صياد البلانس يغيب بالأيام، وربما بالأسابيع، والمرأة تنتظر. من حقها — إذا عاد — أن يخلو لها. نحن نشتاق إلى المرأة، فلماذا يغيب عنا أنها تشتاق إلينا؟

مال على أذن الغرياني بصوت هامس، متأثر: الولية فخذها مالح.

أظهر القلق: مريضة؟ … ألف لا بأس.

أردف متسائلًا: عرضتها على طبيب؟

داخل صوت جميعي حميدة حزن: وصفت لها الداية زمزم علاجًا … والله الشافي.

– أهلا يابو حنفي.

أدرك محمود عباس الخوالقة، من تهلل الصوت، ومن النظرات المتطلعة، الباسمة، الساخطة، أن الغرياني فضح سره.

داخ بامرأة التقطها من رصيف الكورنيش في الميناء الشرقية. أصدقاؤه إما في البحر، أو ليسوا بمفردهم. لما أحاط عنق المرأة بساعده في سينما الأنفوشي، تعالت التعليقات الغاضبة. ترك نفسه لها، وثبت نظرته على الشاشة، يتظاهر بالفرجة على الفيلم.

ما كاد يميل من شارع صفر باشا إلى شارع جودة، حتى واجهته صيحة قاسم الغرياني الفاهمة: ماذا فعلت بنفسك؟

نظر إلى اتجاه الغرياني في بنطلونه: لا شيء!

قال الغرياني: كبرت على العادة الملعونة.

ارتبك، فروى ما حدث. رواه الغرياني في قهوة الزردوني. علت به التعقيبات والقفشات. حتى النظرة المستاءة التي طالعه بها أبوه، في عودته إلى البيت، أدرك منها أن السر قد وصل إلى أبيه.

وضع خميس شعبان راحته على جانب فمه، ومال على أذنه: ألم تأخذ درسًا من علقة فكيهة بائعة الجندوفلي؟!

كان يطيل التحديق في المرأة أمامه. يفتح عينيه ويزويهما. يميل بجانب رأسه. يرسم على شفتيه ابتسامة متخابثة، ترقب رد الفعل. قد تظل المرأة في وقفتها وكلامها، لا تأخذ بالها من نظراته وتلميحاته. وقد يغلبها الارتباك، فتبدي الضيق أو الغضب، أو تلمِّح بالاستجابة. لم يكن الأمر ينتهي — دائمًا — في تلك الصورة. نزعت فكيهة شبشبها، وانهالت به على رأسه. توالت الضربات متلاحقة، فتأخر رد فعل دفعها بيديه، وتدخل الناس بينهما.

قال الجد السخاوي: دياب أبو الفضل ... هل عاد إلى البيت أو نُقل إلى المستشفى؟

قال محيي قبطان: قد يمضي في المستشفى أيامًا طويلة.

قال حمودة هلول: نساء سيدنا يوسف جرين بالسكاكين على الأكف ... المسكين دياب أبو الفضل مزق أصابعه بالساطور.

صرخ خميس شعبان: اعفنا من ظرفك ... دياب أبو الفضل قد لا يعيش.

دياب أبو الفضل؟ ... العينان البنيتان، تطل منهما طيبة واضحة، والشارب النحيل، يميل لونه إلى الصفرة، واليدان المجدفتان، والخطوات المتمهلة، والحياة — بعد يوم الحلقة — في القهاوي، وحلقات الذكر — ومشاهدة مباريات الكرة في الساحة الترابية، والتمشي — وحيدًا في ميادين بحري وشوارعه وحواريه وأزقته.

سرح في بلادة: ألم يلحقوه في المستشفى؟

تلون صوت خميس شعبان بحزن: نزف دمًا كثيرًا قبل أن يصل.

تكومت شروات السمك. علت الصيحات تستحثه على إنهاء التنظيف. ارتفع الساطور ونزل على الأورمة. ارتفع ونزل. ارتفع ونزل. انبثق الدم والصراخ.

مال عبد الوهاب مرزوق على المعلم الزردوني: هل استمعت إلى أغنية عبد الوهاب الجديدة؟

أخفق الزردوني في التذكر: كل يوم له أغنية.

قال عبد الوهاب مرزوق: أغنيته عن فلسطين.

نقر على الترابيزة بأصبعه: لا بأس بها ... وإن كان لحنها مائعًا.

قال عبد الوهاب مرزوق: هو مطرب وليس الشيخ عبد الحفيظ.

قال الزردوني: اعتدنا ميوعته منذ أغنيته الراقصة: مين زيك عندي يا خضرة.

التقط عباس الخوالقة نثار الكلمات. قال: أنا لا أفهم حتى الآن ما صلة الحرب في فلسطين بأرزاقنا؟

لم يخفِ ضيقه، عندما أخذ مأمور قسم الجمرك سيارتي نقل يملكهما، تحملان السمك من الحلقة إلى السوق. تسلم إيصالًا باستخدام الجيش لهما في نقل الجنود.

قال عبد الوهاب مرزوق: احمد الله ... لم يبقوا من عربات الحاج قنديل إلا نصف نقل.

تطلع محيي قبطان إلى قاسم الغرياني وهو يميل من شارع الكواكبي: ما أخبار دياب أبو الفضل؟

سكن الحزن في صمته وخطواته المتثاقلة، فخمن الرجال ما حدث.

ارتفع — فجأة — صوت شخير.

كان خليل زيتون قد جعل كرسيه قبالة شارع العوامري، وأعطى ظهره للجالسين، وراح في إغفاءة عميقة.

بركة ...

١

صعد حمودة هلول البلانس بالقطة ذات صباح.

كنا نتهيأ للإقلاع. ملاحظة الجد السخاوي في رحلة العودة، أن الفئران زادت في البلانس. أتلفت الحبال والشباك وهيكل البلانس نفسه. تعلمنا ألا ننطق اسمها فهو شؤم. نكنيها بالملعونة والمصيبة واللي ما تتسماش.

بدت القطة في حضن حمودة هادئة، مستكينة.

أطلقها.

جرت — بحيرة الغربة — عن المكان. ثم لانت بأسفل الدفة.

لم يثر الجد السخاوي — كما توقعنا — لم يعلُ صوته بالغضب، وهو يرى القطة تندفع من يد هلول إلى حيث اختفت.

قال هلول: نغلق الثلاجة على السمك.

علا صوت الجد السخاوي: كيف أضع البنزين بجانب النار؟

قال هلول: أنا أشعل سيجارتي في محطة البنزين ما دام التنك مغلقًا.

قال الجد السخاوي: هذا كلام لا أفهمه ... أنبوبة سم فئران تكفي لحل المشكلة.

قال قاسم الغرياني مهونًا: القطة في المركب ... إذا فعلت ما لا نتوقعه، أغلقنا عليها حتى نعود.

نسيناها — لساعات — قبل أن تظهر. تحاول التثبت من نيات الأعين والأقدام، ثم تجري إلى الركن الذي اختارته. وضع لها حمودة هلول قطعًا من الخبز في طبق لبن، ونادى عليها: بسسسس. أطلت من ركنها في حذر. ليطمئنها، وضع الطبق على مسافة

منها، وانصرف. تكرر خروجها من الركن، ثم لم تعد تجري من أمامنا. فاجأت قاسم الغرياني — وفاجأتنا — لما تمسحت به وهو يتمدد على سطح البلانس. ربت الغرياني شعرها. رفعت ذيلها، هزته، ماءت، استكانت في مكانها. انشغلنا برعايتها، وأحببناها. أبدى الغرياني قرفه حين رآها تلاعب فأرًا بفمها.

قال حمودة هلول: لهذا أتيت بها.

ثم قال مستغربًا: إنها لن تشاركك طعامك!

قال قاسم الغرياني لحمودة هلول: ما اسم القطة؟

أردف للدهشة المتسائلة في عيني هلول: أليس لها اسم؟

قال محيي قبطان: فلنسمها بركة ... لتبارك البلانس.

٢

ألفنا رؤيتها وهي تصيد الفئران؛ تلاعب الفأر، تجتذبه بنظراتها، فلا يقاوم، تضعه في فمها، تقذفه، تناوشه بقدمها، تعيده إلى فمها. نتوهم أنها ستأكله، لكنها تسقطه، وتلحقه بيديها. ترفع يديها، فيتوهم النجاة ويجري. تطوله بقفزة واحدة، تدحرجه أمامها وهو يصوصو، ثم تمسكه بأسنانها. تجري به إلى دروة. لا نراها وهي تأكله.

٣

في ثالث يوم اختفت الفئران. لم نعد نراها على سطح البلانس، ولا في الكابينة، أو البريدج، ولا في المخزن. لم تعد قطة حمودة هلول، لكنها صارت قطة البلانس، قطتنا كلنا، تلبي من يعلو فمه بالنداء بسسسسس، لا تتلفت حولها — كما كان من قبل — خائفة، وتظل نائمة في الموضع الذي تختاره، لا يشغلها صوت الأقدام المارة جانبها.

خالف الجد السخاوي توقعات الرجال. جعل القطة اهتمامه: مواء بركة نذير شؤم ... القطة تموء «نو»، والنو هي النوة، والنوة شر ... بركة مريضة، فهذا يعني أن الخطر يتهدد السفينة كلها ... بركة تمر من يمينه، فهذا دليل خطر قادم ... بركة تمر من يساره، فهذا نذير شؤم ... بركة تواصل القرقرة، فهو بشير بصيد ثمين ... بركة تلحس شفتيها في الحائط فهي تنبئ بالطقس المعتدل. وإذا كان الحائط قبالة الشرق، فإن الطقس سيكون رديئًا. وإذا كان قبالة الغرب، فإن الشمس الساطعة ستظل مشرقة. حتى الشكل الذي تتخذه القطة في نومها، يشي بالمجهول والمتوقع. إذا كانت دورة جسمها

مطابقة لاتجاه عقارب الساعة، فهذا نذير شؤم. إذا اتخذت الاتجاه المقابل، فهذا بشير خير. القرقرة التي تصدر منها وهي نائمة، بسملة وتشهد وأدعية.

لما جمعنا أول سرحة، تقافزت القطة حول الشبكة. التقطت بفمها سمكة بوري كبيرة، وجرت. اختفت وراء البريدج.

قال الجد السخاوي: هل نصطاد السمك لتأكله القطة؟

قال حمودة هلول: نلقي لها سمكة أو اثنتين ... ثم نضع السرحة في الطبالي ونودعها المخزن.

حرصنا — فور لم السرحة — على وضعها في الطبالي. نضع الثلج على السمك، نرص الطبالي في المخزن، نتأكد من إغلاق الباب.

٤

صرخ حمودة هلول في قاسم الغرياني، لما رآه يسلط خرطوم الماء على القطة: حرام عليك!

قال الغرياني: أنا أنظفها.

وهو يجز أسنانه: الماء يقتلها يا غبي.

قال الغرياني: وكيف تستحم؟

قال هلول: ألا تعرف أن القطة تنظف جسمها بلسانها؟!

٥

في رحلة تالية، صعد محيي قبطان البلانس وعلى صدره قط غير: حرام أن تظل بركة بلا زوج!

امتلأ البلانس بالكثير من القطط. جرت، ونطت، وتقافزت وخربشت الجدران، واسترخت في الشمس، وحاولت اللعب بكل ما يتحرك. اعتدنا مواءها، وقرقرتها، وتمسحها بسيقاننا، ونومها على أغطيتنا أيام البرد.

٦

أسرعنا — ذات صباح — على نداء قاسم الغرياني.

كان يمسك بذيل بركة الساكنة، يقلبها أمام عينيه: لا يبدو أنها أصيبت بمرض.

سأل حمودة هلول متوجسًا: ماذا بها؟

قال الغرياني: كما ترى … ماتت! رأيتها ساكنة أسفل الصاري.

قال الجد السخاوي: السرحة أُلغيت.

سأل حمودة هلول: لماذا؟

قال الجد السخاوي: كنا نعود لصعود قطة على البلانس … فهل نظل في البحر مع قطة ميتة؟!

قذف الغرياني بالقطة الميتة في الماء: لم تعد بركة معنا.

قال الجد السخاوي وهو يتجه ناحية الكابينة: فلنعد إلى الإسكندرية.

أهمل الأسئلة، وشخط ونطر. خالط صوته حشرجة غريبة، كأنه يعاني. زاغت عيناه كمن ينتظر مجهولًا يغيب مصدره. لم يعد الجد السخاوي الذي نعرفه. لم يعد الطيبة والمودة والمؤانسة. تغيرت ملامحه، وتحركت يداه في غير موضع. الدفة والصاري والقلوع والأشرعة والبوصلة وقوارب الإنقاذ التي كانت معدة لحملنا — إذا غرق البلانس — إلى الشاطئ.

حل في نفوسنا الخوف بالعدوى. توقعنا شرًّا لا نقوى على مغالبته: نجمًا بذيل يصعق البلانس، فيحرقه عن آخره. عاصفة مفاجئة تغرقه بمن فيه.

هتف قاسم الغرياني: هل يعيدنا إلى البر موت قطة؟!

علا صوت الجد السخاوي: اعدل الدفة يا هلول.

قال الغرياني: بعدنا عن الإسكندرية بزمن.

وهو يلوح بسبابته: ولو!

حدجه بنظرة مستغربة: هل نعود بلا صيد؟!

قال السخاوي: يكفي أن نعود بأرواحنا.

وما يمنعنا من مواصلة الرحلة؟

أطل في عيني السخاوي خوف واضح: إذا ماتت قطة في مركب، فهذا نذير شؤم.

هز الغرياني كتفيه: خرافات لا معنى لها.

قال السخاوي: معتقدات نشأنا على احترامها.

في صوت يرعشه الغضب: هل نطعم أولادنا من معتقداتك؟!

نقر السخاوي على حاجز البلانس بأصابع متوترة: أفضل من ألا تعود إليهم.

صرخ الغرياني: أنت مجنون!

وشت بربشة عينيه بانفعاله. ضغط بالمتبقي من أسنانه على شفته السفلى، وحوَّل وجهه إلى الناحية الأخرى. غاب — في اللحظة التالية — عن السماع، وعن كل ما حوله.

ارتفق جانب البلانس، يتطلع إلى نهاية الأفق، يتعجل الخط الرمادي الشاحب. تتصاعد تفصيلاته: الشاطئ، والرمال، وورش المراكب والبيوت المطلة على الكورنيش، ومئذنة أبو العباس في مدى الرؤية.

انتقل الخوف في ملامحه إلى نفوسنا. نتوقع خطرًا لا ندري مصدره. حتى قاسم الغرياني أسكت ملاحظاته. بدا الخطر احتمالًا وحيدًا، قادمًا أهملنا الاعتراض، وإلقاء الأسئلة. تركنا للجد السخاوي التصرف، بصمتنا وتنفيذ أوامره.

لحظات الأمل

قبل أن يميل إلى شارع الكورنيش، اهتز البنز في جانبه الأيمن، ثم واصل السير.

خامره قلق، فتوقف إلى جوار الرصيف. نظر، وحدق، وهتف بدهشة. انتزع إطار العجلة اليمين، ثم نسي إعادته.

لحقه — في طريق عودته إلى الإسطبل — صوت حمودة هلول: تأخرت يا صابر … السباق بعد صلاة العصر.

كان الأذان قد تناهى من ياقوت العرش قبل عشر دقائق، فلا بد أن المصلين غادروا المساجد إلى ساحة رأس التين.

هل يبدأ السباق بدونه؟

عدل عن فكرة العودة. يبعث في الساحة بمن يأتي له بالإطار.

تردد على الورديان. اشترى من مغالق الأشجار قطعًا زائدة من الجازورينا والتوت والسرسوع. قضى المكنجي في الإسطبل يومين، يخرطها على اسطمبات. رمم كرسي السائق والصندوق والرفارف والكرسي القلاب.

كان يشتري لوازمه من سوق البرادعية والسروجية في نهاية شارع الميدان. اختفى السوق بندرة الحاجة إلى لوازم الدواب.

شكا من الصينية، فهي لا تسمح للبنز بالدوران كما يريد. أوصى على جلد بقري للتنجيد من ملوي، دباغته خاصة للبنز. اشتري سرجًا مبطنًا بالقطيفة الخضراء، مدندشًا بالدلايات والحرير والقصب والشراريب، الملونة. زينه بالدائرة المثقوبة، وخمسة وخميسة والورود. وثبت فانوسين من النحاس المطلي.

فك السير الجلدي عن ظهر الحصان. اطمأن إلى البشلك واللجام، وإلى غياب التسلخات والتقرحات والجروح وحشرة القراض.

– إذا لم تثق في الفوز ... لا تذهب!

وهز أصبعه في توالٍ: الإسطبل لا بد أن يكون الأول.

اغتصب ابتسامة متذللة: نحن الأول بإذن الله.

قال التميمي وهو يمسح بيده عنق الحصان: سباق شم النسيم يشارك فيه كثيرون.

قال صابر: أعرف.

ثم وهو يتحسس عنق الحصان بأصابعه: باقي أشياء صغيرة.

يبدأ السباق من أمام حديقة سراي رأس التين. فتحة الحدوة الخضراء الواسعة. ينطلق — بين الصيحات والزغاريد — في طريق الكورنيش، إلى انحناءة السلسلة، ويعود. تتكرر الدورة سبع مرات. ثم ينتهي السباق حيث بدأ.

تناثر الكناسون على امتداد شارع الكورنيش، وعلى الرصيف. يلاحقهم المفتشون بأوامر متلاحقة وتحذيرات. سأل. قيل إن موكب الملك قادم من المنتزه للصلاة في أبو العباس.

علا صوت عابر: وما الجديد؟ ... إنه دائم التنقل بين المنتزه ورأس التين.

قال عسكري السواحل: هذه زيارة رسمية.

هز كتفيه في عدم فهم، وواصل السير.

سباق اليوم فرصته في الفوز. تباينت بواعث الانشغال عن المشاركة. حتى عباس الخوالقة اعتذر لمرافقة حمادة بك في جولته بشوارع الحي ودكاكينه وقهاويه. كور قبضته. الفوز فرصة لن يفلتها.

لو أن التميمي يوافق على أن يؤجر البنز؟

ربما شد شعرات من ذيل الحصان. يلجأ إليها مرضى السنط. وربما باعها للأولاد. يستخدمونها في ألعابهم. آخر مبلغ حصل عليه، لما سافر التميمي والمرأة إلى رأس البر، لقضاء أيام العيد. أعد البنز، ووقف في ميدان أبو العباس. الجولة بتعريفة من الميدان إلى سراي رأس التين، والعودة. راح وجاء مرات كثيرة، حتى هلك الحصان. خوفًا من أن يظن التميمي — إذا فتش المخزن، وعثر على المبلغ — أنه يسرقه، مضى إلى قهوة كشك. أودع ما معه أمانة عند حسنين الدمنهوري، وعاد إلى الإسطبل.

لم يسافر التميمي خارج الإسكندرية بعدها. ظلت أيام العيد حلمًا جميلًا، لا سبيل إلى استعادته.

تحسس — بتلقائية — مواضع ضربات الكرباج على جسمه. طالت أعلى الجبهة، واتصالها بالرأس، والخد الأيمن إلى الذقن، والرقبة، والساعدين. تردد — أربعة أيام —

على مستشفى رأس التين. يعود من المستشفى، فلا يترك غرفته. يتمدد على ظهره. يفسح ما بين ساقيه ينهض — في تثاقل — ليعد طعامه، أو ليدخل دورة المياه. زارته الست جمالات مرتين. وقفت — في عودتها من الخارج — على الباب. سألت عن صحته. أجاب دون أن يترك مكانه، أو يلتفت.

فاجأه التميمي صباح اليوم الخامس: إلى متى أظل أُعنى بالخيل بدلًا منك؟!

لم يكن شفي من جراحه، ولا سكتت آلام جسمه. لكنه تحامل على نفسه، وقام.

عمله في الإسطبل فرصته الوحيدة للمشاركة في السباق. لن يستطيع ركوب البنز بعيدًا عن الإسطبل. يا دوب يتولى تجهيزه. التميمي لا يستقر على حال. يلقي عليه السلام، فلا يدري إن كان يرد أم يشتمه. إذا وصل إلى خط النهاية قبل الجميع، نال الجائزة. ضمن الحياة في غيبة أوامر التميمي وتحذيراته وشخطه ونطره وأذيته، وتبدل أحواله الذي لا ينتهي. يصل إلى خط النهاية قبل الجميع. يعلن الحكام فوزه. يحصل على النقود والهدايا. يخلي قيادة البنز، ويكتفي بالجلوس لتلقي صيحات الإعجاب والتصفيق. ينتهي الموكب الصاخب إلى قهوة مخيمخ. يحيا في الحفاوة إلى نهاية الليل. ربما لا يعود بعد ذلك إلى الإسطبل. ربما اشترى حانطورًا يسيره لحسابه من رأس التين إلى المنتزه، أو يختار لوقفة الحانطور داخل ساحة محطة السكة الحديد، بالقرب من الباب المفضي إلى محرم بك.

لو أن المعلم يعدل عن رأيه: أفضل أن أستمع في الراديو، إلى وصف مباراة الكرة بين مصر والمجر.

أبدى صابر دهشته: الكرة؟! … سباق البنز أفضل من الكرة مليون مرة!

قال التميمي: أنا بعافية … فرصة للاسترخاء.

وأشار إلى حصان دس وجهه في مخلاة الطعام: المهلب يحتاج إلى قصاص يهذب شعره.

سمي حصانه المهلب، اسم حصان أبو زيد الهلالي، وإن لم يكن أسود مثل حصان الهلالي. كانت غرته بيضاء، يداخلها اللون البني، الجسد كله بني اللون، ما عدا دوائر غير مكتملة من اللون الأبيض. سارح العود، له رأس صغير، وعينان واسعتان، يحيط بهما سواد كالكحل. واسع المنخارين. عنقه أشبه بعنق البجعة. عروقه وعضلاته — إذا صدرت عنه حركة — تبين من الجلد الرفيع الشفاف. ربما أشار التميمي إليه وقال: النوة قادمة!

– أية نوة؟

– لا أدرى! … لكن النوة قادمة … معنى وقوف المهلب هكذا، أن النوة قادمة!

كان يسقيه اللبن مخلوطًا بالسمن البلدي، ويسقيه البيرة في شارع البوستة، ويطعمه الذرة والعشب. وخصص له في مولد أبو العباس سرجًا مطعمًا بالفضة وخيوط الذهب.

رفض عرضًا أن يستعمل نوعًا من الحقن. يصبح المهلب كالعفريت، يجري كالرهوان. ثم ماذا؟ ... يحصلون على المال، ويموت المهلب؟!

قال الشيخ عوض مفتاح، إمام ياقوت العرش، وهو يتأمل المهلب: الخير معقود بنواصي الخيل إلى يوم القيامة!

يخرج بالبنز كل صباح. يسحبه الحصان الذي اختاره للسباق. يمضي إلى ميدان المساجد، فساحة أبو العباس. يميل يسارًا إلى طريق الكورنيش، حتى السلسلة. يشجعه هدوء الحركة، وخلو الطريق من المارة، على السير في اللسان إلى نهايته. ثم يعود إلى طريق الكورنيش. السور الحجري على يمينه. يدور حول حديقة السراي، فيصبح سور البحر على يساره. ثم يميل من شارع أبو السعادات إلى داخل السيالة.

حقق المركز الأول في سباق البنز، لسنوات، ثم غلبه المعلم عباس الخوالقة ثاني أعوام الحرب العالمية الثانية، فقرر اعتزال المشاركة في السباق. اكتفى بالمتابعة، والمشاهدة، وإبداء الملاحظات، والنصائح.

حين فاجأه صابر الشبلنجي باعتزامه المشاركة في سباق هذا العام، تردد في الموافقة: هذه سمعة الإسطبل!

قال صابر: أنا تلميذك يا معلم.

وأظهر القلق لما نط التميمي على حصان دون سرج: قد لا تستطيع التحكم في الحصان إلا باستخدام ساقك فقط ... ربما أتى الحصان بحركة مفاجئة.

قال التميمي في نبرة واثقة: الخيَّال هو الذي يفوز ويخسر، وليس الحصان!

وخالط صوته سخرية: أليق بك أن تكون برادعيًّا.

واستطرد كالمتنبه: حتى البرادعيين راحت عليهم ... أفضل أن تكون سروجيًّا قد الدنيا.

لكز التميمي جانب الحصان بقبضته، وشد اللجام. رفع الحصان عنقه، وانتشرت أذناه، واختلج منخراه، وتقلقل في وقفته، ثم جرى بخطوات مهرولة خارج الإسطبل.

اعتاد مؤاخذات المعلم وتوبيخاته، وملاحظاته التي لا تنتهي، واعتاد الحياة في الإسطبل، والتعامل مع الحداد وصانع المهاميز واللجومي والسروجي. تعلم معالجة أسطح العربات وعجلاتها وعرائشها، ومداواة جراح الاحتكاك وأورام القوائم وتسلخات الظهور، وبذل خراريج البغال وتركيب الحدوات. وتعلم تحنيك الخيل وكيها وتقليمها

وتزنيدها. وصار على دراية بأصناف الخيل وطباعها ومزاياها: طول العنق، طول الخطوة، طول الأذنين ورقتهما، قصر المسافة بين الحافر والساق، قصر الظهر، بروز العينين، علو الكفل، اكتناز اللحم، اتساع الصدر، ضخامة الفك، صغر الرأس، وجود صوف بين الرجلين الأماميتين، نعومة صوف الجسم. يمكنه — من النظرة الأولى — أن يعرف نوع أي حصان، وسنه، وعدد الحدوات التي أهلكها، وموطنه الأصلي.

ظل مساعدًا لعم شفيق عبد السيد في تشغيل الإسطبل. عندما قرر عم شفيق أن يقضي آخر أيامه في قريته بالصعيد، طالبه التميمي أن يقضى يومه في الإسطبل، لا يتركه — في الليل — إلى قهوة كشك. ترك له عم شفيق راتبه، وبعض الأواني، ووفر له أجر البيات في القهوة.

اطمأن إلى الإطار في موضعه.

هم بالسير ناحية رأس التين.

لحقه صوت عم سلامة.

حدق في دهشة: غادر التميمي الإسطبل منذ ساعتين ... فكيف مات؟!

الغابة في الإسطبل

ضوء اللمبة نمرة خمسة، يتراقص من هبات الريح، يصنع على الجدار ظلالًا وتكوينات. يصنع لها صابر الشبلنجي — بإطالة التأمل — ملامح لبشر وحيوان وأشجار.

كان مستلقيًا على ظهره، مفرجًا ما بين ساقيه. عيناه مفتوحتان ترنوان إلى سقف الإسطبل. يرفض — حتى في عز الشتاء — أن يرتدي ثوبًا بأكمام. ربما اكتفى بالصديري، وإن ارتدى تحته فانلة من الصوف. يصعب عليه الحركة وهو مقيد الذراعين.

هل مات التميمي؟

لاحظ أن الحصان كان يكثر من هز رأسه، وهو مربوط. تذكر أن ما حدث كان علامة على قرب موت الرجل.

أمرت الست جمالات، فقص صابر ذيل المهلب، ووضع الشعر على السرج، وتقدمت الفرس الجنازة بهذه الصورة. شيَّعه القلة ممن تصادف وجودهم في قهوة مخيمخ — ساعة الظهيرة — إلى مقابر العامود.

عاب الشيخ عوض مفتاح على التميمي، أنه أطلق العنان لشهواته، وانصرف إلى الاغتراف من معين اللذة، دون أن يردعه خوف من عقاب. قيل إن وفاته كانت لإفراطه في الجماع. أصرت المرأة أن تأخذ حقها — في ليالٍ متوالية — حتى تسلمته الأمراض، ومات. وقيل إنه دخل جامع ياقوت العرش وهو مسطول، فأغصب ولي الله عليه. صلى عليه صلاة الجنازة. مات لتوه. وحين روى للشيخ صلاح البوشي، قارئ سيدي نصر الدين، أنه رأى في المنام، أنه يخرج من بيته بعافيته، ولا يخاطب أحدًا، أدرك الشيخ البوشي — وإن لم يصارحه — أنه سيموت.

داخله هدوء لا يدري بواعثه. لم تعد تشغله توقعات المستقبل، ولا إن كان سيظل في الإسطبل، أم تسرحه المرأة؟ اطمأن إلى طلب جمالات بأن يظل في عمله.

قالت: فليظل العمل في الإسطبل كما هو ... أنت أدرى به مني!

رفع رأسه، واتجه بعينيه إلى داخل البيت، يحاول أن يتلصص: ماذا تفعل المرأة الآن؟

أغلق التميمي باب البيت المطل على شارع سيدي كظمان، وفتح بابًا ونوافذ خلف البيت، تطل على داخل الإسطبل.

واجهة البيت سلم حجري، بدرابزين. يفضي إلى صالة مستطيلة تتوسط أربع حجرات، والمطبخ، والحمام، ودورة المياه على الإسطبل. وتطل الحجرتان الأخريان على شارع سيدي كظمان. مغلقتان دائمًا، فهو لا يدري ما بهما. أما الحجرتان اللتان تطلان على داخل الإسطبل، فإحداهما للنوم. بها سرير نحاسي بأعمدة، وناموسية تمنع الحشرات الطائرة، في المقابل دولاب كبير بمرآتين في ضلفتيه. والثانية للقعاد، يقضي فيها المنزلاوي وجمالات يومهما. بها كنبة استامبولي. وعلى الأرض كليم أسيوطي. تتوسط السقف نافذة مفتوحة، استجلابًا للهواء النقي. رصت على حافتها أصص العتر والريحان والقرنفل، تلاصقها صينية القلل. على الجدران ساعة ببندول، وصور لنجوم التمثيل والغناء، ورسوم مستوحاة من السير الشعبية: عنترة يمضي بالنوق البيض إلى ديار عبلة، والهلالي يصارع الزناتي، وسيف بن ذي يزن يشهر سيفه. في المنتصف ترابيزة يحيط بها ثمانية مقاعد، جميعها مشغولة بالأرابيسك.

حدج النافذة المفتوحة بنظرة متأملة: كنت أداري على التميمي تصرفات المرأة، فعلى من أداري بعد الآن؟

وتنهد: هذه امرأة خلقت للمضاجعة!

لم يتصور أنها — مثل بقية النساء — تطبخ وتكنس وتمسح وترعى الأطفال. تصورها في خياله وهي نائمة، وهي تتعرى، وهي تستعد للعناق، وهي تخلي ساقيها، وهي تقضي الأوقات في الاستحمام والتزين.

هل أُخلصت للجنس وحده، دون تبعات تتصل به؟

كانت في حوالي الخامسة والثلاثين. ذات جسم رجراج، قسماته مؤكدة. فالبروز واضح في الصدر والبطن والردفين، والشفتان ممتلئتان. والعينان سوداوان مكحولتان، والبشرة سمراء صافية، والشعر أسود ناعم طويل، تركت خصلات منه تنسدل على جبهتها، ولها حسنة أشبه بالخال على وجنتها.

يثيره نزولها من الحانطور، وصعودها سلم البيت. الخلخال الذهبي يحيط بساقيها الممتلئتين، والكعب الوردي يلتصق بالشبشب ذي الكعب العالي، وينفرج بآلية رتيبة، منغمة.

كانت تنام إلى الضحى. تفتح النافذة المطلة على الإسطبل، تجفف شعرها المبلول، تتأمل الإسطبل بعينين تغالبان النعاس. يزداد جمالها في ملامحها المتناومة. لا يختفي بخلو وجهها من المساحيق. تبدو أجمل في الملامح المتكاسلة، وفوضى شعر الرأس على وجهها وعنقها وصدرها، وحمالتا قميص النوم تنزلقان على الذراعين. يشده وميض في عينيها، يشعل أعماقه بما لا يقوى على احتماله. يفر من التقاء النظرات، أو يجاهر بتثبيت نظراته. تفجؤه بابتسامة مستهينة، تذوي الصخب في داخله، فينصرف إلى شيء يشغله.

لاحظ أنها لم تعد تغير قميص النوم الشفاف. ولاحظ نظراتها الثابتة التي ترافق كلامها له، جري أصابعها على صدرها وبطنها، التشكي من لدغ الحشرات، رفع ساقها لتهرش موضع اللدغة، البحة في صوتها، الأف الطويلة، الممطوطة، من حرارة الجو، والفأفأة من البرد، التثني والتأود، مضغ اللبانة، تحريك الحاجبين.

تخيلها بثياب شفافة وهي تتعرى، وهي في حضنه، وهي تصرخ، وهي تتأوه، وهي تدلي شفتها السفلى كما ألف رؤيتها عندما تغادر بيت الأسطى فتحي، وهي تطلعه على الأسرار والألغاز والأحاجي، وتجوس به الغابة الوحشية، وهي تنزل من الحانطور، تبين الانحناءات والتكورات في ردفيها، في ميلها إلى أسفل، وهي تناوله يدها في صعودها الحانطور. الملمس الناعم الطري. لحظة تصخب فيها الرعود، وتومض البروق، وتثور البراكين. يحس بلسعة النار عندما تلامس أصابعها يده.

استبقت يدها، حين مد يده ليعينها على الصعود إلى العربة. لم يفهم المعنى وقتها، لكنه يفهمه الآن.

لما نادته: يا صبورة، أدرك أنها توارب الباب.

تصاعدت الخواطر المحمومة من داخله. أجهده التطلع إلى النافذة، والتصورات ... ما ينبغي — وما لا ينبغي — قوله. الأفعال، وردود الأفعال، ومحاولة كتم الحمم المشتعلة داخل البركان، وصراخ الحيوانات تبحث عن منفذ، ومد الأمواج يرتطم — بقسوة — في صخور الشاطئ.

قام، وجلس، وتمدد، وقرفص، وضرب الجدار بقبضته، وتمثل، وضغط ما بين ساقيه، وتأوه. ثم انتفض، وسار في اتجاه السلم.

صرخات الجزر الوحشية

جلسة العصر أمام دكان الحاج محمد صبرة. ثمة نسائم خريفية تهب من ناحية البحر، وطيور النورس وعصفور النيل والعصفور الأسود والعنزة تحلق في امتداد الشاطئ، وتتناثر في السماء سحب بيضاء، صغيرة.

كانت أشعة شمس الأصيل تضوي بالألق على صفحة المياه. وفي نهاية الأفق مراكب متباعدة، فردت أشرعتها. وعلى طريق الكورنيش تقرقع عجلات البنز، وعربات النقل المحملة بفناطيس البترول والأخشاب والحديد المسلح وطاولات السمك، وبنات قدمن من شارع أبي السعادات يحملن الصفائح فوق رءوسهن، في الطريق إلى حنفية المياه.

قال الحاج قنديل: زمن طويل لم يجمعنا هذا المكان.

اتجه المعلم أحمد الزردوني إلى حمادة بك بنظرة مشفقة: إن كان لزيارتنا للحاج سعيد النقيب ميزة، فهي هذا اللقاء.

قال الحاج قنديل: كان لوفاة مصطفى، ابن أخينا عباس الخوالقة تأثيره المؤلم ... شغلنا حتى عن مجرد التفكير في اللقاء.

قال محمد صبرة بصوت متأثر: أعانه الله على مصابه!

ظل حمادة بك ساكنًا، وإن وشى اهتزاز ساقيه بتوتره.

لم يكن يعتبر محمد صبرة صديقًا، وإن حرص على الجلسة أمام دكانه. يناقشه. يسأل، ويجيب عليه. ربما تقبل منه دعابة، لكنه يضعه خارج إطار الأصدقاء. هؤلاء معلمون كبار، لهم مكانتهم التي لا تخطئها العين. أما محمد صبرة، فإن المستحيل يلغي مهنته كحلاق.

روت نهى لأمها عن فصول زوجها معها. نقلت الأم الحكايات إلى الأب: الغياب عن البيت إلى ساعات الصباح، ادعاء التعب، إعلان الرغبة في الصحو مبكرًا لإنجاز عمل، افتعال الخناقات، فينام في حجرة الأولاد، اكتشافها لثياب نسائية في دولابه.

قال سعيد النقيب: عندما تقدمت لخطبة ابنتي، فلرغبتك في مصاهرتي ... أليس كذلك؟

قال حمادة بك: هذا صحيح.

طقت عينا النقيب بشرر: أنت إذن تستهين بي حين تدس في دولابك ثيابًا نسائية.

عثرت نهى على الثياب — قمصان نوم وسوتيانات وجوارب — مدسوسة في ملابسه. همت بسؤاله عنها، ثم روت لأمها.

قال حمادة بك: هذه ثياب قديمة ... أوزعها على الفقيرات من نساء الحي.

علا صوت النقيب بالسخرية: منذ متى أصبحت وزيرًا للشئون الاجتماعية؟!

وأطلق من أنفه ضحكة مبتورة: هل ما وجدته ابنتي بين ملابسك يصلح للفقراء؟

احمرت أذناه: أنا أعد نفسي للانتخابات ضد منافسات صعبة.

تقلقل النقيب في كرسيه: هذا كلام لا يدخل العقل!

قال الحاج قنديل: لو أنه يتاجر في الملابس النسائية، فليس في الأمر ما يشين.

قال النقيب: أوافقك لو أن المشكلة مجرد اتجار في الملابس!

ولون صوته: البروش المختفي داخل بدلتك ... هل تنوي كذلك إهداءه في الانتخابات؟!

صرخ حمادة بك: هذا اعتراف بأن ابنتك تفتش ملابسي!

واجهه بعيني الشرر: لو أنها تفتش، لاكتشفت المصيبة من زمن.

وثنى إلى الجالسين ملامح مكتئبة: تصورت أن من واجبها أن ترتب دولاب زوجها.

وزفر: لم تكن تدري!

ورماه بنظرة عداء صريحة: لماذا تزوجت ما دمت في غير حاجة إلى الزواج؟!

كان يتوقع منه الحرج. يفاجئه — أمام الرجال — بملاحظة، أو كلمة نابية. تعثر لسانه في الارتباك، فسكت.

روى له أبوه عن خلافاته مع أمه حول اختيار اسمه. أصر على مختار — اسم جده — وأصرت على حمادة. ولد بعد طول عقم، ونشأ وحيدًا. دللته أمه. عاملته كأنثى. ألبسته ملابس البنات، وعلقت في أذنه قرطًا ذهبيًّا، وفي صدره خمسة وخميسة، ومنعته من اللعب مع الأولاد. يلجأ إلى أبيه إذا أراد اللعب في الشارع الخلفي. يثق من رفض أمه.

متى تبدلت معاملة أمه له؟ وكيف؟

فاجأته بصفعة حين عاد متأخرًا من الشارع الخلفي. لم تكن قد مدت عليه يدًا، ولا آذته من قبل. تمازج الألم بمشاعر غامضة، غريبة، صعب عليه فهمها، وإن استقرت

في داخله، وظلت تؤانسه. تعارك مع الأولاد، فأسرفت في سؤاله عن أثر الدمع في عينيه. ضربته، فأصر على الكتمان.

قالت الأم: مصيبتي أن لي ولدًا مثل البنت!

ظلت العبارة في داخله. يتذكرها إذا عانى الخواطر الجهنمية. جاوز الطفولة، فأصرت أن يكون مثلما وِلد. وكانت تضربه بلا مناسبة. كأنها أرادت أن تنسيه سني التدليل، فيصبح رجلًا. تذكرت أباها الشيخ حفني سلام إمام جامع الشيخ إبراهيم. كان زميلًا لعبد الله النديم، وشارك في ثورة عرابي. لم يترك الإسكندرية، حتى بعد أن دمر الأسطول الإنجليزي معظم مبانيها. له اجتهاداته المعلنة في الفقه والتفسير، وقوائم مكتبة البلدية تضم ثلاثة كتب من تأليفه. جعلت همها تطهيره من أي عيب أو ضعف.

ظلت الأمنية، السر — بعد رحيل الأم — في إطارها لا تغادره. يتمنى تحقيقها، وإن قيده الخوف من المعايرة والتلميز، وربما الفضيحة، ثم أخضعته قوة غريبة، مسيطرة، لا قبل له على دفعها، أو الفرار منها. يغلق عليه باب حجرته. ينزع ثيابه تمامًا، ويقف أمام المرآة. يتأمل جسمه. يجري براحتيه عليه في دوائر، فتداعبه نشوة. يخلع حذاءه في ظلام الشارع الخلفي، ويلتذ بملمس برودة الأرض، والحصا، بقدميه الحافيتين. يخترق زحام شارع الميدان، لا يأبه بالنظرات التي تعرفه، ولا عبارات التحية والمجاملة. يصطدم بالأجساد الواقفة، والمتلاصقة، والمتدافعة. يتوقع رد الفعل، ويتحداه. لا تشغله التعليقات الغاضبة ولا التأوهات. ربما علا صوت يشتمه، فيؤجج النيران المشتعلة في الأعماق. أسلم نفسه لأمواج الرغبة، تجتذبه، وتطويه، وتجرفه، وتغوص به في أعماق ساحرة، لا نهائية. استحال كرة مشتعلة، تجري بالهياج والرعونة والشبق والشهوة. أراد أن يستغني بنهى. قذفت بالعصا في الأرض، وجرت لزمت حجرة الأولاد حتى الصباح. حاول أن يسبق رواية ما حدث لأمها أو لأبيها. اشترى من الصاغة — في اليوم التالي — عقدًا وأسورة وساعة مذهبة. أخذتها، وأشاحت بوجهها. فوجئ — عند عودته في المساء — بغيابها. حين ذهب لإرضائها في بيت سعيد النقيب، واجهه الرجل بافتضاح السر. قال بلهجة ملمزة: الرجل لا يتنازل عن رجولته لأي سبب.

ضايقته الكلمات. أحس بالسخونة خلف رأسه. استجمع الكلمات، لكن الرجل مال على ابنته بملامح آمرة: عودي إلى زوجك!

لم يعد إلى ما فعل، وأرضاه أنها لم تعد — من يومها — إلى السيرة، وإن انتقلت إلى حجرة الأولاد، لا تتركها إلا إذا نادى بطلب شيء. حتى أوقات تناول الطعام تعتذر بالنوم،

أو بالمرض. وحين يجبرها — بتوسلاته — على المضاجعة، يتصاعد الغثيان إلى حلقها. تنشغل بكتمه، حتى يخرج من الحجرة، فتعود إليها نفسها.

اقتحم التوقع، لا تشغله الشتائم، ولا الدفعات، ولا النظرات الغاضبة.

دعاه المعلم التميمي — في لحظة مؤانسة — إلى بيت أنصاف.

تدبر الأمر للحظات: هل تستطيع أنصاف أن تفهمه؟ وهل تعطيه ما يريده؟ يذهب لو أن المرأة بذلت غير ما تبذله له زوجته. تصور نفسه عاجزًا عن مجرد البوح، فرفض الفكرة.

حدق في المرآة: هل هذه الملامح لفتاة؟ والشارب الذي تعمد أن ينسدل على جانبي فمه؟

قالت نهى وهي تتأمل ربطة عنقه: ماذا تفعل بالكرافتات؟ ... هذه ثاني واحدة تمزقها.

فوت الملاحظة. دفعته المرأة لما استفزها إصراره على تلقي النازلين من ترام الرمل بصدره. تعرفت إليه في وقفة تالية، جذبته من ربطة عنقه. خنقته بها، وأطلقت صرخاتها. وضع همه في الفرار من اللمة.

رمق سعيد النقيب بنظرة ساخطة: هل تؤلب الرجال ضدي؟

قال النقيب: أفعالك تؤلب الدنيا ضدك.

أشاح بيده: أنا أفعل ما يرضي ضميري.

النقيب: وهل عندك ضمير؟

فز في مكانه: هذه إهانة!

لم يكن يدري طبيعة المشاعر التي تتصاعد في نفسه، عندما يرى حزامًا معلقًا على الشماعة، أو ملقًى فوق السرير. تقذف به الخواطر الجهنمية في جزر غامضة، تعلو فيها صرخات اللذة والألم. تدهمه المشاعر نفسها لرؤية عصا في يد من لا يعرفه، أو لرفع امرأة شبشبًا في شوارع السيالة، ترفقه بتهديداتها وشتائمها.

الرغبة صراخ في أعماقه، بأن يخلو إلى من يحسن الإنصات، فيروي له. تفجؤه لحظات تلح عليه فكرة البوح. يروي ما يشغله ويعذبه. يفشي السر الذي لا يذكر متى بدأ في حياته، ولا كيف استطاع أن يظل في داخله بأعوام العمر.

تصور في كوم بكير سدَّادة تكتم السر. يطفئ النيران المشتعلة ويمضي. يسقط احتمالات الفضيحة. يسلم نفسه لتصورات تجاوز المستحيل، تصنع المنتهى والمطلق.

تشجع بالعصا الجلدية، فدنا بفمه من أذن المرأة. هزت رأسها بما يعني الفهم. ملأت البسمة وجهها عندما دس في يدها ما لم تكن تتوقعه. لم يكد ينزع الجاكتة والقميص، حتى لاحقته بضربة في كتفه، فصرخ متألمًا. غابت الجزر السحرية الباعثة للنشوة. لم يعد إلا الألم القاسي. دفع المرأة بيدين اصطدمتا بالعصا الجلدية، فدميتا. لاحقته بشتائم وبصقات وركلات بقدم عفية. باخت مشاعره. تبلورت أمنياته في أن ينتهي الموقف حالًا، ولا يجد نفسه في هذا المكان. حين أصبح ما حدث ذكرى، بدا الفارق بين النيران الهادئة الجميلة في بيت حارة سيدي داود، والجحيم الذي أذاه في كوم بكير.

لمح حمادة بك استجابة تعاطف في أعين الجالسين. هتف: هذه مؤامرة لتحطيم مستقبلي.

قال سعيد النقيب: أي مستقبل؟ ... أنت تترك مسئولية شغلك للآخرين، وتكتفي بالصرمحة في الشوارع وعلى القهاوي.

قال عباس الخوالقة: هل يمكن أن نرجئ ذلك كله إلى ما بعد الانتخابات.

أضاف للدهشة المتسائلة في عيني النقيب: مهما تطل أيام الحكومة الحالية ... فالمتوقع إجراء انتخابات جديدة.

ثم بنبرة ملاينة: كما تعرف ... حمادة بك ينوي ترشيح نفسه!

قال الحاج قنديل: نحن نعرفك ... فلا تدع لما حدث تأثيرًا على صداقتنا!

أردف محمد صبرة: غدًا تصفو النفوس ... فلا تنشغل الآن إلا بعملك، والاستعداد للانتخابات التي اقتربت.

وأضاف لنظرة حمادة بك المتسائلة: هذه الحرب المفاجئة في فلسطين ... ستعجل بعودة الوفد!

قال المعلم أحمد الزردوني: قل لأن الوفد هو أجدر الأحزاب بتولي الحكم!

قال الحاج قنديل: هذا كلام وفدي متعصب ... الوفد انتهى منذ ٤ فبراير.

قال الزردوني: عندما وافق النحاس على تولي الحكم، فلإنقاذ البلاد من كارثة!

قال محمد صبرة: البلاد تحتاج الآن إلى قارعة ... كتلك التي تحدث عنها سعد زغلول!

اتصلت الكلمات، وتشابكت. توالت الأسئلة والأجوبة، والآراء الزاعقة والهامسة. ظل داخل أسوار الجزر الوحشية: هل يقتصر ما حدث على جلسائه القريبين، أو يذيعه سعيد النقيب، فيفقد الفرصة في دخول الانتخابات، وفي مواجهة الناس؟ هل هي النهاية، تبين عن ملامحها القاسية، الوشيكة؟

العاصفة

ثبت الجد السخاوي نظرته إلى جامع أبو العباس. الزحام على الأبواب والسلالم، وعلى الرصيف، وفي الميدان.

فتح حق الدخان. وضع منه في ورقة رقيقة، شفافة. جرى عليها بطرف لسانه. ثم برمها برفق حتى أصبحت سيجارة رفيعة، غير متساوية.

قال: كنا في عز الشتاء لما بدءُوا في تجديد الجامع.

قال عبد الوهاب مرزوق: في ديسمبر ١٩٢٩.

قال الجد السخاوي: الأيام تجري!

ثم سحب كرسيًّا من الطاولة المجاورة. أسند إليه مرفقيه، وأردف قائلًا: هذه المدينة ملجأ الأولياء.

قال قاسم الغرياني: الأولياء في البلاد كلها.

قال عبد الوهاب مرزوق: عدد كبير من الصحابة والأولياء هاجروا إليها، وماتوا فيها.

قال الجد السخاوي: الشيخ سلامة حجازي يترك الجنة في الليل، فيؤذن للفجر من مئذنة البوصيري.

قال محيي قبطان: والصوت الذي نسمعه؟

قال السخاوي: صوت الشيخ سلامة.

قال محيي قبطان: إنه الشيخ عرابي ... مؤذن الجامع.

قال السخاوي: الشيخ عرابي لا يصعد المئذنة لأذان الفجر ... حاول، فنزل خائفًا للقاء الشيخ سلامة.

استطرد: حتى الآن ... يترك الشيخ سلامة الجنة ليؤذن لصلاة الفجر.

نقل الحديث إلى سيد درويش؛ استمع إليه — للمرة الأولى — في كوم بكير. وجد في ألحانه ما يختلف عن الألحان التي اعتاد سماعها وتنبأ له بمستقبل.

روى عن مصطفى كامل باشا، وهو يلقي خطبة الوداع بتياترو زيزينيا. وسهراته في الهمبرا والكونكورديا، قبل أن يصبحا دارين للسينما. وعن رؤيته لعملية إنشاء رصيف الميناء الشرقية. زمان، في العام الأخير من القرن التاسع عشر، أخذت الإسكندرية من البحر مساحة كبيرة. فرضت — من يومها — ضريبة الاثنين في المائة على مستأجري البيوت، مفروضة لا تزال.

– لماذا؟ ... لا أحد يعطيك الجواب.

ثم بنبرة ساخطة: نوقف الخير ... ولا نوقف الأذى!

قال قاسم الغرياني: عمر الجد السخاوي من عمر حلقة السمك.

هتف الجد السخاوي في استنكار: هذا يعني أني ولدت أيام محمد علي.

ثم وهو يهز راحته: الحلقة مضى عليها الآن أكثر من مائة سنة!

قيل إنه عمَّر في حياته، لأنه كان يحرص على مضغ طعامه جيدًا، ولا يشبع، وربما استغنى عن طعام العشاء. وكان يقلل من مجامعة زوجته، ويقلل من أثوابه في صيف وشتاء، ويفضل أن يسير على قدميه، إلَّا للمشاوير البعيدة.

قال حمودة هلول: الجد السخاوي يحب الباذنجان في البر ... لكنه يتشاءم من وجوده في البلانس!

أطلق قاسم الغرياني ضحكة معابثة: هل تذكر لما عاد بالسرحة، لأنه رآك تقضم ساندوتش باذنجان؟

أعاد عبد الوهاب مرزوق الكلمة: باذنجان؟!

قال الجد السخاوي: حصل! ... ولو لم أفعل لواجهنا مصيبة!

أطلق الغرياني ضحكته المعابثة: مصيبة باذنجاني.

هتف الجد السخاوي: أنت قليل الأدب!

كان الجد السخاوي يؤمن بأن الصيادين لا يركبون البحر إلا وآجالهم فيه، لكنه يعود بالبلانس إذا صادف ما يدعو للطيرة، أو التشاؤم. يخشى انقلاب الريح عليه.

فاجأ قاسم الغرياني الآذان: نفسي أشوف الجد السخاوي في بيته.

علا صوت السخاوي بالضيق: البحر هو بيتي!

قال الغرياني: لا ... بيتك مع الحاجة!

قال السخاوي في ضيقه: وهل شكوت لك يا ولد؟!

قالب الغرياني: منظرك يوم غرق البلانس أكد حاجتك إلى الراحة.

النوات لها مواعيدها التي يترقبها الجميع، لكنها تأتي كالمفاجأة، تبين ملامحها في الأضرار التي تحدثها.

تغيرت الريح. غشاها لون أصفر. ومض البرق، وتساقطت الأمطار كسيل. علت الأمواج، وعلت، حتى ساوت الجبل، جبل حقيقي من الماء، يتحرك، يبدو مخيفًا في اندفاعه نحو المركب. تخبطت القلوع والشراع والحبال. كورت النوة قبضة الشراسة، وتوالت ضرباتها. هبت بصفير كالنواح. بدأ البلانس في الترنح تحت ثقل الموجات المتتالية. علت المقدمة، وهوت. كأن الأمواج العالية تطويها. تطوي البلانس كله، وتطوي الرجال. لكنها تعلو. يصعد بها الموج، فيتعثرون في أماكنهم.

قال محيي قبطان: الإسكندرية كلها في حالة طوارئ لنوة الغطاس ... حتى الميناء منعوا الدخول فيه إلى الممرات أو الانتظار في منطقة الخطاف.

همس الجد السخاوي بما يكفل تسكين الريح: إيقاد سراج من دهن آدمي، تهدأ به الرياح.

كيف نعد الدهن؟!

اكتفى بما قاله، فلم يتكلم عن الوسيلة. وأيقن الرجال أن الجد السخاوي أصابه الخرف.

هبطت موجة عالية، رجت البلانس، ودمرت الكابينة. تسربت المياه من ثقوب كثيرة. تعالت أصوات تكسر وارتطامات وصرخات.

بدا الجد السخاوي متحيرًا، ومتحاذلًا. اعتاد الرجال شخطاته ونطراته وتحذيراته ونواهيه، لكنه احتوى وجهه براحتيه، ونظر إلى الفراغ في ذهول.

جاوز الرجال ارتباكه، وتصرفوا. ألقوا في البحر بالحمولة الزائدة.

هتف حمودة هلول: الدفة انكسرت!

غابت الدفة — في اللحظة التالية — في جبال الأمواج المتتالية.

دوَّى انفجار في المطبخ، وامتدت النيران في الجزء الخلفي من البلانس. ألقى الرجال بأنفسهم في البحر، وسبحوا إلى الجزيرة القريبة، في مواجهة الأنفوشي.

دار البلانس في دوامة، بلا توقف، حتى تحطم هيكله، وابتلعه القاع.

لما هدأت الريح، وسكن البحر، طفت ألواح خشبية، تتقاذفها الأمواج بالقرب من الشاطئ.

قال الجد السخاوي: ماذا تريد يا ولد ... هل أترك البحر؟!

قال الغرياني: لكل وقت أذان.

تنهد في نفاد صبر: وما أذان هذا الوقت؟

جاهد الغرياني ليهدأ صوته: أديت رسالتك ... وعلينا أن نستكملها.

زوى السخاوي بين حاجبيه: أنتم! من أنتم؟! ... ماذا تعرفون عن البحر؟

ورمى الغرياني بنظرة سخط: ماذا تعرف أنت عن البحر؟ ... لو أن البلانس واجه نوة فكل ما ستفعله هو الصراخ ... وقد يكون السمك تحت البلانس فلا تنتبه.

وغلبه الانفعال: البحر ليس وظيفة نتركها في المعاش ... البحر بيتي وحياتي الحقيقية.

ثم وهو يهز قبضتيه: لكن ... مَن أكلم؟!

وانتطر في جلسته: ماذا تظن يا ولد؟ ... أنا أعرف عن البحر ما لا يعرفه كل الصيادين ... وقتكم بين نسائكم والصرمحة في الشوارع ... أما أنا، فوقتي كله للبحر والبلانس والصيد.

وفرد ذراعيه بامتدادهما: حتى الآن، أتمدد في الشمس حتى تزول ... فهل تستطيعون احتمال حرارتها؟

ثم وهو يغالب اختلاج عينيه: هل أجلس في البيت كالحريم؟!

وداخل صوته حشرجة: أو أفتح لنفسي قبرًا، وأتمدد داخله؟!

قاطعه الغرياني في غضب: يا رجل ... لا تحتمِ بشيخوختك!

لم يعد الجد السخاوي يذكر السنوات التي أمضاها في البحر، يطمئن إلى كميات الثلج في الثلاجة، يتمم على الغزل، وعلى الطعام والشاي والسكر والماء العذب وبرطمان العسل. يجد فيه تعويضًا عن كل الأطعمة. يأكل منه ثلاث ملاعق في الصباح، ومثلها قبل النوم. إن لم يتبقَّ من الطعام إلا المعلبات، استعاض به عنها. فوائده لا تحصى: ينقي الكبد والصدر، يدر البول، يلين الطبيعة، يطرد البلغم، يجلي الأوساخ في العروق والأمعاء، يحفظ صحة اللثة والفم. ومع حبه للشمس، فإنه كان يستحم في ماء البحر، طيلة أيام السنة، حتى في عز الشتاء.

كان يحمل في ذاكرته الكثير من الأحاديث والحكايات والقصص والحكم والأمثال والأقوال المأثورة. يرويها لتأكيد آرائه. وكان يحفظ أغنيات البحارة والصيادين، وحكايات ألف ليلة: السندباد ووادي الحيات ووادي الألماز والزبرجد ووحوش البحر والأقزام وطائر الرخ. يروي عن أسماك تتخذ لنفسها لون المنطقة التي تحيا فيها، تبدو جزءًا منها، وأسماك تصدر منها الأضواء، كأنها فانوس سحري. ويروي عن الحيتان في أعالي البحار، تشرب المياه، وترفعها إلى أنوفها، فيحدث الجزر. وتتنفس وتخرج المياه من أنوفها، فيحدث المد.

لم يكن يحمل ساعة. يعرف الوقت بالنظر إلى السماء. وكان يحرص على الخاتم ذي الفص الياقوت في أصبعه. يؤمن بأنه سينجيه من النوات والأعاصير، وينقذه من الغرق. ربما لهذا قاومت شيخوخته، فاستطاع العوم — بعد غرق البلانس — إلى جزيرة الأنفوشي ... وكان يثق أن سيدنا الخضر يظهر للسفن التي آمن أهلها، فيرشدها إلى الطريق الصواب. شرب الخضر من ينبوع الحياة، فهو حي حتى يوم الحساب، وهو يظهر للمسلمين في حيرتهم، ويلبس الثياب الخضراء.

ترامى صوت عم سلامة من داخل القهوة: أنا ألجأ إلى الجد السخاوي فيما أواجهه من مشكلات.

تلون صوت الغرياني بسخرية: هل يدلك على أفضل أنواع الطبيخ؟!

قال حمودة هلول: كل الصيادين عرفوا البحر من الجد السخاوي.

أردف بلهجة حاسمة: الجد السخاوي سمكة ... إذا غادرت الماء واجهت الموت.

قال الغرياني: هل ينكر الجد السخاوي أن اشتراكه في هوجة عرابي كان السبب في هزيمتها؟

قال السخاوي: لم يبقَ يا ابن الكلب إلا أن تزعم اشتراكي في الدفاع عن رشيد؟!

قال الغرياني: بل حدث ... ومشاركتك في الانتصار على الإنجليز حسنتك الوحيدة!

تدخل عبد الوهاب مرزوق مداعبًا: فلنترك للجد السخاوي إذن قيادة الجيش المصري في فلسطين.

التفت الغرياني إلى الطريق. مصمص شفتيه في حزن: ماذا جرى لك يا علي؟

اعتاد الناس تصرفاته الغريبة. يمشي ويقف ويجلس ويقوم ويكلم نفسه ويغني ويرقص ويبكي ويصرخ ويطلق الضحكات ويتهدج بالأدعية. ركب — ذات عصر — عصا من الجريد، لها عينان وأنف وفم، وطاف بها الميدان، حول البوصيري وأبو العباس وياقوت العرش والأولياء الاثني عشر.

قال حمودة هلول: لماذا لا يذهب علي الراكشي إلى فلسطين، فيقضي على اليهود ببركته؟!

اتجه ياقوت بالخرطوم ناحية الأولاد. ضغط على فتحته بأصبعه فاندفعت المياه، وأغرقت أجسامهم وملابسهم.

جروا ناحية الشوارع الجانبية.

العودة إلى بحري

ظل الرجال على تحلقهم حول المعلم كشك، يوضحون، ويتحايلون. يعدون بأن تكون إقامة صابر الشبلنجي في القهوة مؤقتة، حتى وافق المعلم على عودته.

– أحتمله ثلاثة أيام لا رابع لها.

وأشاح بيد غاضبة: من يعتدي على أعراض الناس لا مكان له عندي.

وتنهد: لو أن المرحومة ابنتي في بيتها، ربما كان طلع إليها!

فاجأته المرأة — لما رأته على باب الحجرة — بصرخات متلاحقة، خائفة، منفعلة، مستغيثة. هرعت الأقدام الحافية من البيوت إلى الإسطبل. وترك رواد مطعم النبلاء، القريب، ما بأيديهم. صرخات المرأة لا تصمت بدخول من قدموا لإغاثتها، وصابر يتلفت في حيرة ذاهلة، كمن فوجئ بوجوده على باب الشقة، وبالمرأة، وبالأعين المتسائلة الملهوفة. غلبه الارتباك، فلم يستطع حتى الكذب.

خمن القادمون ما حدث.

اتجهت لعناتهم وقبضاتهم وركلاتهم إلى صابر، وهو في حيرته الذاهلة، يتلقى الضربات، لا يحاول دفعها. أصر عباس الخوالقة — وهو يمسح من عينيه آثار النوم — على اقتياد صابر إلى نقطة الأنفوشي. تحايل محمود عباس الخوالقة حتى اكتفى أبوه بطرد الشبلنجي من الإسطبل.

لم يتكلم، ولا أقدم على تصرف من أي نوع. لم يدبر نفسه لكلام، ولا لتصرف، فغاب رد الفعل. فوجئ بوقفته أمام المرأة، مثلما فوجئت به.

كانت تنشر الغسيل في البلكونة المطلة على شارع سيدي كظمان. ترتدي قميص نوم من البوبلين الأسود، الشفاف، مشغولًا بالترتر الأبيض. تبدو من تحته ثيابها الداخلية، ولحم جسمها، وبرزت حلمتا الثديين.

لم يكن خطا داخل الحجرة، ولا أعد التصرف أو الكلمات، عندما فاجأته المرأة بصرخاتها المتوالية.

بنت الكلب! ... ناقص رجل عن الأعرج؟ ... وهل جزاء تستري عليها هو الفضيحة وقطع عيشي؟!

قال مصطفى حجازي: لماذا لا تساعد عم محمد الطوشي في صنع الهريسة؟

قال حسنين الدمنهوري: وهل يطلعه الطوشي على طريقة صنعها؟!

كان عم محمد الطوشي يستأذن المعلم كشك. يغلق عليه باب المطبخ، فلا يشاهد أحد طريقة إعداده للهريسة، وتسويتها، وإن رآه الرجال يضع الصينية — بعد تجهيزها — على صينية — في حجمها — من الماء الساخن.

كان صابر قد أعد نفسه للعودة إلى رشيد، لما وافق المعلم كشك على أن تكون القهوة مقرًّا انتخابيًّا لحمادة بك.

أشار حمادة بك بعينيه إلى صابر الجالس على كرسي بجوار النصبة.

– ماذا يعمل؟

قال المعلم كشك: كان سائسًا في إسطبل المرحوم ناجي التميمي.

حدجه بنظرة مستريبة: والآن؟

رماه المعلم كشك بقرف واضح: كما ترى.

– لماذا؟

أسرع صابر بالإجابة: النصيب!

قال حمادة بك وهو يتجه إلى الباب: أحتاج إليه في فرن التمرازية.

تابع — في تردده على قهوة الزردوني — أخبار المرأة.

قيل إنها باعت الإسطبل لتاجر غلال قبطي في كرموز، وإنها سافرت إلى قريتها القريبة من كوم حمادة. وقيل إن الأسطى فتحي استأجر لها شقة في خط الرمل، يمارسان فيها حياة الأزواج دون عقد مكتوب.

قال صابر الشبلنجي: بنت المركوب! تبيع الإسطبل من أجل الأعرج؟!

قال مصطفى حجازي: القلب وما يحب!

قال مؤمن الدشناوي: غضبت لأنها فضلت الأعرج عليك؟

قال مصطفى حجازي: ربما وجدت المرأة في عرجه ما يستهويها.

ومضت عينا صابر بالضيق: هزار أم جد؟!

قال مصطفى حجازي: بل كل الجد ... للنساء نظرتهن التي لا نفهمها.

قال مؤمن الدشناوي: هل كنت تتطلع إلى مكان الأسطى فتحي؟

قال مصطفى حجازي: احمد الله على ما أبقته لك العلقة من رجولة.

ركن عم محمد الطوشي عربته إلى جانب الرصيف في لهوجة. بدا انفعاله في لهاث أنفاسه: هل نحن على أبواب ثورة؟

اتجهت إليه الأعين متسائلة.

الطلبة يهتفون في الشوارع: لا ملك إلا الله.

قال المعلم كشك: الناس تغلي لأكثر من مصيبة ... الهزيمة في فلسطين ... وطلاقه من فريدة.

ثم وهو يضرب كفًّا بكف: إذا كانت المظاهرات قد خرجت بعد تقديم الدول الكبرى قرار تقسيم فلسطين إلى مجلس الأمن ... فماذا ننتظر بعد ضياعها؟!

واغتصب ابتسامة: خطأ النقراشي أنه لم يحاول حل قضية فلسطين مثلما حاول في قضية الجلاء؛ لماذا لم يقل لليهود اخرجوا من فلسطين أيها القراصنة؟!

قال الطوشي: المظاهرات تهتف: حذاء فريدة فوق رأس فاروق ... خرجت الطهارة من بيت الدعارة.

وداخل صوته تهدج: هل نحن على أبواب ثورة؟

إيقاعات صامتة

أذهلني غياب الحزن عن كلماتك وتصرفاتك. كأن يسرية لم تمت. كأنها امرأة أخرى، غير التي قرأت لها الشوق في رسائلك من المدن البعيدة.

امتد الليل، فلم يعد — في قهوة البحر — سوانا.

قلت في إشفاق: ألن تذهب إلى البيت.

– تضايقني الوحدة.

غالبت ترددي: بارك الله في يسرية!

يسرية ماتت!

ماتت؟!

تداخلت صور وكلمات، تشابكت، واختلطت، فتأكد السراب في نهاية الأفق. أحسست بدوار، وتخاذل، وأني لا أسمع شيئًا.

دائمًا كنا معًا، في أي مكان. لا نستغرب السؤال عن الآخر إذا كان أحدنا بمفرده. لا نفترق في البحر، أو على الأرض. نجلس في قهوة الزردوني، أو قهوة مخيمخ، أو في ورش المراكب. ربما دعوتني — آخر الليل — لمرافقتك إلى البيت. تدعو يسرية، فتجلس معنا. نسهر، ونستمع إلى الراديو، ونروي الحكايات، ونلعب الكوتشينة، ونصعد إلى السطح. نطل على استدارة المياه، منذ السلسلة إلى ما بعد باب رقم ٦. نتطلع إلى أنوار البلانسات في الميناء الشرقية، ومئذنة أبو العباس، وضوء البوغاز يضوي، ويختفي. ربما اشتريت سمكًا من الحلقة. أتبِّله، وأقليه في المطبخ، أو أشوي اللحم على الفحم فوق السطح. السطح الذي كنت أنتظر منه إشارة يسرية، فأتجه إلى البيت.

حين أصبت في ظهري، وسافرت — بمفردك — للمرة الأولى، لم أعد أتردد على البيت. وكنت أنتظرك في الميناء، وفي قهوة الزردوني. أجلس إليك بالساعات. تروي وتروي

وتروي، وأنا مفتوح العينين والفم. أسبح إلى مواني ومدن وجزر. أبتسم، وأحزن، وأضحك، وأستوضح ما يبدو غامضًا.

تقول لي: أنا أدرى الناس بمشاعرك يا مختار ... البحر إدمان!

التقيت بيسرية — ذات صباح — في انحناءة الموازيني إلى ميدان المساجد.

– كيف حالك؟

– الحمد لله.

– لم نعد نراك.

أعاد الله ثروت بالسلامة!

وصلتني رسالتان منه ... ليتك تقرؤهما لي.

زرتها في مساء اليوم نفسه.

تركتني أمام الباب، وعادت من داخل الشقة بالرسالتين، فقرأتهما.

أيقظني تنبيهها من رحلتي في المدن الغريبة، والساحرة.

تكررت زياراتي. أقرأ الرسائل، وأمضي في التصور والخيال والحلم. ربما توقفت عن القراءة، لأضيف إلى الكلمات بما يشكل مشهدًا ومشاهد.

تنبهني، فأعاود القراءة.

ثم لثم الموج جزيرة السحر للمرة الأولى.

قالت: ثروت وحشني.

قلت: رسالته الأخيرة تؤكد عودته بعد شهر واحد.

– وهل الشهر قصير على امرأة بلا زوج؟!

ومصمصت: سحر الصغيرة تعامله كغريب ... تمضي أشهر لا تراه.

همست بالدهشة: إلى هذا الحد؟!

استطردت في نبرة ملونة: يرفض أن يؤاخي البنت بولد.

وتنهدت: متى يعود ويستقر؟

قلت: وهل هناك أجمل من الحياة في البحر؟!

– وما ذنبي أنا على البر؟!

استقبلت يدها المصافحة التي أعقبت قولها. سرى الملمس الناعم بخدر في يدي. امتد إلى جسمي، فلفني تمامًا. استبقيت يدها، فلم تنتزعها. ركلت الباب بقدمي، وتقافزت الأسماك فوق المياه، وانطلقت النوارس بعيدًا عن الشاطئ.

ثالث يوم، فاجأتني بوقفتها أمام القهوة: أين أنت؟

تخلت البساطة عن عفويتها للتوقع والمجهول. لا أدخل البيت إلا إذا تأكد لي خلو الطريق. نخوض في الأمواج. تطوينا مياهها الشبقة. نتعمد الاكتفاء باللحظة، منفصلة عن البداية وملامح الأفق.

توقعت أن يخامرك الشك. تلتقط ملاحظة عن ترددي على البيت في غيابك. قدومها إلى القهوة. سألت نفسي: هل تواتيني الشجاعة، فأنظر في عينيك، وأتكلم، آخذ وأعطي. وماذا لو أنك دعوتني إلى البيت؟ هل أذهب أو أعتذر؟

قلت لي بعد غيبة: لم تعد تسألني عن رحلاتي.

– أنت يا دوب تصل إلى الإسكندرية، فتسافر ثانية.

قال: هذه المرة ستطول إقامتي.

غالبت الارتباك: خيرًا.

– خيرًا بإذن الله ... إجازة قد تبلغ الشهرين.

وسحقت بقايا السيجارة بقدمك: سأروي لك الكثير مما يروقك.

واعتدلت في مواجهتي، وبدأت تروي.

أنظر — بطرف عيني — إلى يسرية الجالسة بالقرب منا. الأسئلة والتعليقات والضحكة الصافية. لم يكن الشك مما يدور لي ببال، لو أن العلاقة كانت مع غيري.

كانت رسائلك متعتي الحقيقية. أسأل — بصدق — عن وصولها. لا أتذرع بها بداية لخطوات تالية. ما تحكيه الرسائل يكفيني في ذاته. أدهش لما ترويه عن تواصل الأيام، والمشاهد المتكررة، والملل، والحنين. لم أحب يسرية، ولا سعيت إلى حبها. ما أردته هو الرسائل التي تصور ما أتوق لرؤيته، الحكايات التي رويتها أنت لها، عن الناس والمواني والشواطئ والأسواق والمدن البعيدة. فعلت ما فعلت دون أن يخطر في بالي أن أتسلى بها، أو أخدعها. كنت أملأ فراغًا في نفسي، خلَّفه غيابك. شغفي بالحكايات يسبق شوقي لحضنها.

فاجأتني — ليلة — وهي تشير إلى بطنها: أنا حامل.

استعصت الكلمات، فسكت.

كان الهاجس يدهمني: ماذا لو أن يسرية حملت؟ كيف تواجه ثروت؟ وماذا لو أنه عرف بكل ما جرى؟

قالت: ألا تجد ما تقوله؟

تحشرج صوتي بالقلق: متأكدة؟

– أنا في الشهر الثالث.

في لهفة: ربما ثروت.

هزت رأسها: ثروت يحرص أن ينزع نفسه عندما يبلغ الذروة.

علا القلق بصوتي: هل ستحتفظين بالجنين؟

وشى صوتها بعصبية: أنت تكتفي بالأسئلة!

– ماذا تطلبين أن أفعل؟

وهي تزفر: أسئلة! ... هذا كل ما تملكه!

فاجأتني بالسؤال: أنت لم تسألني عن يسرية.

غالبت الارتباك: كيف حالها؟

– أنغام شكواها ارتفعت بطلب الخلفة.

وهل العيب فيك؟

نسيت أن لي ابنة منها؟!

ووشى صوتك بانفعال: إذا أنجبت ... أفضل أن أظل بالقرب من الطفل.

هل عرفت حقيقة ما حدث؟

لم تبح لي بما توهمت أني لا أعرفه. لم تكن والد الجنين الذي حملته يسرية في بطنها. التصرف طريق مسدودة، فقتلها الإجهاض.

هل اتجهت بشكوكك إلى أحد، أو اكتفيت بإدانتها، وأنها تستحق الموت بما فعلت؟!

أصداء الطبول البعيدة

قال لأنسية من بين لهاث أنفاسه: رأيته ... أقسم إني رأيته!

حدجته بنظرة متسائلة: من؟

– فؤاد أبو شنب ... رأيته يبيع الصنف.

دارت ابتسامة بيدها. بر بقسمه لها — في الصباحية — أن يقلع عن تعاطي المخدرات. لا حشيش ولا أفيون. حتى القهاوي قل تردده عليها. وتكرر اعتذاره عن الدعوة إلى قعدات المزاج، فلم يعد ينتظرها.

قالت وهي تهز كتفيها: وما لنا؟

– لم يكن يشتري ... كان يبيع على باب بيته!

يشتري أو يبيع ... ما لنا نحن؟

– من قال؟! ... هذه نقطة ضعف أستطيع أن أمسكه فيها من شنبه!

أذهله وقوف الباعة بما يحملون. عربات يد وطاولات، وضعت فوقها قطع الحشيش والأفيون والموازين. وسط الشارع، أو داخل الدكاكين، وعلى الأرصفة، أو يستندون إلى الجدران، أو يجلسون في القهوة الوحيدة. يقطعون ما بأيديهم إلى قطع صغيرة. ما يهمس به البائع، يتقاضاه دون فصال. لا أخذ ولا رد. تختفي الحلقات الصغيرة، وتنشأ حلقات أخرى. ربما صعد أحد البيوت القديمة. تشي واجهته باختلاف عن بقية بيوت الشارع. ينقر — بأصابع مدربة — على باب شقة في الطابق الأول. يطل وجه مستريب. يدفع القروش. يخرج البائع قطعة كبيرة من الأفيون. يقطع منها بالسكين قطعة صغيرة في حجم الترمسة. يلفها في ورقة سيلوفان، وهو يهمس بكلمات مجاملة.

يدين للرجل بتعلم الخبازة. عمل عجَّانًا وطولجيًّا وفرَّانًا، قبل أن يختاره والد حمادة بك رئيسًا للعمال.

لم يكن سيد يعرف الفارق بين أنواع الخبز: عيش القمح، عيش الذرة، العيش المرحرح، العيش البتاو، العيش المقرص، العيش المنطط.

قدم إلى الإسكندرية من كفر الدوار، للاشتغال بالفاعل. زار المرسي، وتجول في شوارع الحي. مال إلى مطعم النبلاء. جرى بينه وبين عم سلامة حديث. دله على قهوة كشك، وقدمه إلى حمادة بك.

وقف — في البداية — أمام الماجور، يعجن الدقيق. ثم اختاره فؤاد أبو شنب للعجين. يسحب الطوايل الخشبية من المعجن، يضعها لصق الجدار المواجه للفرن. ثم عهد إليه بالوقوف أمام الفرن. يلتقط قطع العجين المكورة من لوح العجين. يبططها، يضعها فوق المطرحة، يدفعها إلى الفوهة. تعلم حتى العبارات المصاحبة لعملية الخبيز: يد الله قبل أيدينا ... يا رب اكفنا شر العطل ... يا رب اكفنا شر المستخبي والمداري ... ربما دندن بالأغنية: اللي ما تعرفش ترميها ... على بيت أبوها وديها.

كان أبو شنب يعفي حمادة بك من مسئوليات الفرن. يدفع بأحد العمال ليواجه اتهامات مفتشي التموين، أو ينفذ أحكام الحبس. يتصرف في كبسات التموين التي تشترط الرغيف الكامل الاستدارة، المضبوط الوزن.

حين قبلت أنسية عرضه بالزواج، فلأنها كانت تريد الاستقرار، ولأنها أحبته كذلك. أحبت طيبته وطبعه الهادئ. كان الزواج في خيالها كالأمنية، كالحلم، كالصدى البعيد. تحن إلى الرجل جوارها، يغلق عليهما بابًا، فلا تخشى المفاجأة. ينشغل بها: أين تذهب؟ ولماذا تأخرت؟ يضربها لخوفه عليها، لا لإرضاء نفسه. لم تضع في بالها شخصًا بالذات. محمود الخوالقة أو سيد الفران أو قاسم الغرياني، وغيرهم ممن ترددوا على البيت المهجور. يقضون الأوقات، ويعودون إلى البيوت والنساء والأولاد. حتى سيد الفران — إلى يوم الإضراب — لم يدخل معها في كلام. يتسلل وراءها في ظلام البيت المهجور. يرفق ابتسامته المرحة دسَّه للخبز الرجوع في يدها. يهز رأسه محييًا إذا رآها في الطريق. فاجأتها زيارته صباح يوم الإضراب. اعتادت أن تغلق عليها باب البيت. لا يتردد عليها أحد، فيلفت النظرات المتطلعة من النوافذ المقابلة.

فاجأها عرضه بالزواج. تصورت أنه يريد تأكيد إعزازه، لكنه كرر العرض. عاد إلى ذهنها ما بدا بعيد التحقيق، أو أنها أهملته. أحبت المعنى: أن تكون زوجة. رجل واحد يقاسمها السرير، والأكل الذي تعده، وتعرف صوته حين يعود آخر النهار، فتفتح له الباب.

– صحيح؟

– لن أجد أفضل منك.

– قد يرفض أهلك.

أطلق ضحكة مريرة: أنا مقطوع من شجرة.

– هل أنت جاد بالفعل؟

– كنت أخشى أنك ترفضين.

ضربت صدرها بيدها: أنا أرفض؟!

– لست على قد المقام.

رمقته بنظرة مستريبة: لست جادًّا إذن؟

قال في بساطة: لم أكن جادًّا مثلما أنا الآن!

لم يكن في فتوة محمود الخوالقة ولا جرأته. ارتعشت بين ساعدي محمود، وكتمت صراخ اللذة. عوض سيد — دون أن يدري — بصبره عليها. يظل حتى يلمح في عينيها ذروة الاستجابة.

قالت لسيد مداعبة: لن أبات جعانة وزوجي خباز.

– لم أعد كذلك.

– هل أنت نادم على أيام الفرن؟

رسم على وجهه ابتسامة تأسُّف: من يندم على أيام أبو شنب؟!

لم يطلب التاجر كمال مصباح إيجارًا، منذ سكنا الشقة. وحين دفعت سيد للتلميح، رفض الرجل. قال إن إيجار الشقة هديته إلى مقام سيدي ياقوت العرش.

ألفت حياتها. تطبخ، وتغسل، وتكنس، وتنظف الشقة، وتساعد بالعمل في بيت عبد الله الكاشف، وتنتظر عودة سيد. ربما أطلت من النافذة، تتابع — بنظرة غير متأملة — لعب الأولاد بالنحل والبلي والدوم. توارب ضلفتي النافذة. تتطلع من الشق الطولي بينهما، أو تنظر من خصاص النافذة المغلقة. تتأمل الباعة يعرضون ويبيعون لصق الجدران، وفي القهوة الوحيدة، وأمام أبواب البيوت والدكاكين. ربما علت الأصوات بالحدة، أو بالتشاجر، أو أسرعوا بالاختفاء بصيحة ناضورجي. تدخل وتغلق النافذة، لنظرة متوجسة. يأتي سيد فيجدها في انتظاره. تنفذ ما يطلبه. لا تناقشه، ولا تطلب إلا ما يحتاجه البيت. لمحها وهي تنقل صرة من أسفل السرير، لتنظف مكانها. هذه صرة بيت سليم البشري. هزت رأسها. ضرب جبهته بأصابعه: لك الآن دولاب وتحتفظين بالصرة؟!

لم تعقب، وواصلت كنس الحجرة.

قضت أيامها الأولى تتجنب الاحتكاك بجاراتها. ثم تعمدت أن يعرفها الجيران. هي ساكنة شقة الطابق الأول في البيت رقم ٩. زوجها سيد الفران صاحب كشك أدوات الصيد في ناصية شارع الموازيني. تطل من النافذة. تتأمل السحن في النوافذ المقابلة. تنادي على الباعة. فرحت برد التحية، ثم تبادل الكلام. رحبت بطلب جارة الشقة المقابلة فصين ثوم. أعطتها رأس ثوم بحالها. اكتفت بالنداء على جارة الطابق العلوي، لما أسرفت في استخدام الماء. تسلل خلل الأرضية الخشبية. أحدث نشعًا بلل قشر سقفها الحديث الطلاء، وصنع ظلالًا وتكوينات. ثم بدأت نقاط الماء تتساقط في مواضع من الحجرة. نزلت على مخدة السرير، وخلف باب حجرة القعاد، وعلى طرقة المطبخ. لم تأخذ الجارة أو تعطي. مصمصت، وبرطمت، وعابت الزمن الذي أسكن بيوت الناس خادمات البيوت، زوجات كل الرجال!

أعادت على سيد ما قالته المرأة. قالت إنها شاهدتها — زمان — تغني في كازينوهات الكورنيش:

لولاك يا جوني ... ما كنت يا موني!

بعد أن أعلن سيد اعتزامه الزواج منها، كف الرجال عن ملاحقتها. غابت التعليقات عن أذنها. تسير، لا تتلفت، لا تلاحقها عبارة، أو دعوة، ولم تعد تتوقع أن يترصد لها أحد في ظلمة الطريق.

أخلص في إرضائها. قرر أن يكون هذا عهدها به. يثق فيها. لكن الاطمئنان إلى إغلاق الباب مسئوليته وجهده. لم تعد الفرانة مهنته، ولم يعد يغادر الكشك إلى قهوة كشك. شقته في شارع البلقطرية. خطوتان بين الكشك والبيت. قل تردده على القهاوي وحمام الأنفوشي، واقتصرت تسميته لأنسية — خارج البيت — بالجماعة، وألف ترديد دعاء الجماع: اللهم جنبنا الشيطان ... وجنب الشيطان ما رزقتنا.

لم يلحظ ما يؤاخذها عليه، لكنه لم يستطع التخلي عن هواجسه، أو أن الهواجس لم تغادره. الأسئلة تناوشه وهو يجالس الرجال: من أخذها في حضنه؟ ومن أعجزه المال عن مضاجعتها؟ ومن كان يتطلع إليها؟ ماذا يقولون عنه فيما بينهم؟ هل يتصورون أنه سيهمل ما تفعله في الأيام القادمة؟ هل يتصورون أنها ستظل على علاقاتها؟ ... يعطي انتباهه لما قد يكون تلميزًا، أو تغميزًا. ويعد نفسه لمقاتلة شرسة.

يحاصره الضيق في تأمله لملامحها المنمنمة، وسمرتها الرائقة، وحركاتها الطفولية. كأنها ليست التي أمضت السنين في التنقل بين البيوت. يطلق أف مجروحة. يزيد شعوره

بالضيق من الدافع إلى عناقها. مدربة، وتعرف كيف ترضيه. يتذكر أنها بذلت الأمر نفسه لآخرين. يخشى أنه ربما التصق بجلدها، فلا تستطيع التخلص منه.

همست لنفسها، وهي تطيل النظر إلى جلسته الساكنة على السرير: كيف أقنعه بأني لم أعد أعرف رجالًا غيره؟!

طالت الوقفة أمام مقام سيدي ياقوت العرش. مدت يدها، فلامستها يده الممدودة من داخل المقام. مضيئة مع سواد بشرتها. أخذ عليها العهد وأقسمت بين يديه. إذا حنثت بقسمها، فإن سيدي ياقوت ينتقم منها بشل يدها، أو لسانها، أو يصيبها ضرر في مواضع لا تعلمها من جسمها. تمنت لو أن الذين يذكرون ماضيها اختفوا، أو أنهم نسوا حياتها القديمة. لا يعرفون إلا أنسية زوجة سيد الفران. تحيا في بيتها رقم ٩ بشارع البلقطرية. ما قبل ذلك لا شأن لها به، ونسيته، ويهمها أن ينساه الناس. تستأذن من سيد. يهمس وهو يغادر البيت: الفاتحة أمانة. تمضي إلى أبو العباس. تصعد سلالم الباب الخلفي، في نهاية الموازيني. تخلع حذاءها عند باب القاعة المستطيلة، خالية إلا من المحراب، والحصير، والنجفات الثلاث تدلت من مسافات متباعدة، يحيط بها الحديد المجلفن بالزجاج على هيئة ورود تفتحت على ضوء المصابيح الساقط إلى أسفل. تصلي وقتًا أو اثنين. تزجي بقية الوقت في الإنصات إلى أحاديث النسوة. تبدأ، وتمتد، وتتشابك، وتختلط. تكتفى بالإنصات. لم تذكر حتى اسمها، ولا أين تقيم. هي واحدة من المترددات على مصلى النساء. تتحرك شفتاها بجواب السؤال دون أن تنطقه. تكتم الكلمات حتى لا يكر طرف الخيط، فلا تحسن التقاطه، أو قطعه. تلقى نظرة عفوية من ثقوب المشربية على صحن الجامع. إلى اليمين: المنبر، والمحراب، والناحية المطلة على الدحديرة الخلفية. وإلى اليسار مقام السلطان المجاور للباب الملكي. دفعة عبد النبي شعرة المترفقة: اسعي ... اسعي وصلي على النبي! ... وفي الواجهة يفضي الباب الرئيس إلى الميدان، والحديقة، والميناء الشرقية، بينما تتألق الأعمدة الرخامية الثمانية، أوسط الصحن، بانعكاسات الأضواء المراقة من النوافذ والأبواب. تستعيد لحظات النصفة والمدد والمكاشفة: هل كان ما جرى حلمًا؟ وهل كان لقاؤها بالسلطان حلمًا كذلك؟ وماذا تسمي حصولها على شقة البلقطرية؟ هل كان التاجر كمال مصباح يعطيها الشقة، لولا أن سيدي ياقوت العرش خاطبه مثلما خاطبها؟!

حرصت — في الأيام التالية — على شرب ما أعدته لها الداية زمزم تشرب — كل صباح — على ريق النوم — مزيجًا مسحوقًا من الخردل والحلبة والمغات والدمسيسة وحلف البر.

ثم انشغلت بوحمها. طلبت لحمًا وعنبًا ورمانًا وكابوريا، صرخ فيها سيد لما طلبت طين إبليس، لكنه اقتطع لها من أرض الطريق قطعة طين. مضغتها وهي تغالب القرف.

ظلت في شقتها أربعين يومًا لا تغادرها، حتى لا تنكبس. سيد يشتري لوازم البيت، وينشر الغسيل، ويفتح للطارقين، ويلاحظ بروز الجنين ونمو الحمل. تحرص على مداراة نفسها، فلا يراها أحد. ألف سماع صوتها تغني في الصباح، مثلما تنهنه باكية قبل النوم. تجد فيما تفعله طردًا للشر، واجتلابًا للخير.

أصرت، فبدَّل سيد عتبة الشقة. كنس ما تحت البلاط جيدًا، بحثًا عن عمل. حرصت على أداء الصلاة في مواعيدها، وخصصت صباح كل خميس لتلاوة القرآن، تجلس القارئة على كنبة الصلاة. تواصل التلاوة منذ الضحى إلى أذان الظهر.

وضعت مصحفًا فوق السرير، وبالقرب منه. ووضعت سكينًا حديدية ذات مقبض أسود تحت المخدة. الأرواح الشريرة تخشى الحديد، ولا تقرب مكانه أبدًا. عند تعليق الملابس، تخرج — أو تقلب — أحد جيوبها، أو أكمامها، طردًا للشر. تضوع الحجرة — في موعد صلاة الجمعة — بالبخور ذي الرائحة الذكية، فيطرد الأرواح الشريرة. تشدد على سيد لشرائه من سوق الترك. وكانت تذكر سيد — كل صباح — بأن يعود — أو تعود هي — بوردة من الحديقة المجاورة لمستشفى الملكة نازلي. تضع الوردة بساقها الشوكية في كوب زجاجي، لتمنع دخول — أو اقتراب — سكان العوالم السفلية. تخشى الشوك لأن فيه هلاكها.

أظهر ضيقه لما علقت على جدران الحجرة صورًا لممثلين ومطربين: كمال الشناوي وفريد الأطرش وأحمد سالم ومحسن سرحان وحسين صدقي وأنور وجدي. تسلل إليها في الجلسة الساكنة: هل تحن إلى ماضيها؟

همس لقاسم الغرياني بتحيره.

أطلق الغرياني ضحكته المقهقهة: الولية حامل يا سيد ... وتريد طفلًا جميلًا.

وسألها: لماذا صور الرجال وحدهم؟

قالت: أريده ولدًا!

رأت — في المنام — أنها أنجبت بنتًا، فتفاءلت. رؤية الولد في المنام، نذير بمشكلة سخيفة. ولما حلمت بأنها أكلت سمكًا، قالت لها الداية زمزم: السمك في الأحلام خير. ولما جاءها المخاض في منامها، قالت لها الداية زمزم: حاذري ... الولادة في المنام نذير شؤم!

همست بالحيرة: وماذا أفعل؟

– انذري للسلطان!

اتساع ضيق الأكوان

قال أبو الحسن الشاذلي: «فرِّغ قلبك أيها الفقير من الأغيار، وهو ما سوى الله. بحيث لا يتعلق قلبك بشيء من الكون علويًّا أو سفليًّا، دنيويًّا أو أخرويًّا، حسيًّا أو معنويًّا، كحب الخصوصية وغيرها من الحظوظ. فإذا رحل قلبك من هذا العالم بالكلية، ولم يبقَ فيه إلا محبة مولاه، فإنه يُملأ بالمعارف، بحيث يكشف عنك حجاب الوهم، ويذهب عنك ظلمة الحس، فتشاهد الأشياء كلها أنوارًا ملكوتية مشاهدة ذوقية تمكينية، ويملؤه أيضًا بأسرار. وهي أسرار الجبروت، فتغيب بالجمع عن الفرق. بشهود الجبروت عن شهود الملكوت وتكاشف بأسرار القدر، فيهب عليك نسيم برد الرضا والتسليم، وأنت في حضرة النعيم المقيم، عند الملك الكريم.»

«المحب على الحقيقة لا سلطان له على قلبه لغير محبوبه، ولا مشيئة له مع مشيئته.»

«يا اللي نازل البحر حرص ...
دا البحر فيه عين.
عين الحقيقة عين.
عين الشريعة عين.
وعين اللي لا تراه العين.»

لما ظهرت مئذنة أبو العباس — أثناء سيره على الكورنيش، وسط البنايات المتصاعدة — تنبَّه إلى أنه اقترب من بحري ... تآلف هدير الموج، وهسهسة النخيل، ورائحة اليود، في أنفه وأذنيه، مهما ابتعد عن الحي.

الموج — في أسفل — يصطخب، يرتطم بالمكعبات الأسمنتية الهائلة، في امتداد سور الكورنيش، يتعالى، ويمتد إلى الرصيف، يصل الرذاذ إلى الجزر، أوسط الطريق والرصيف المقابل، وواجهات الدكاكين والقهاوي المغلقة.

رأى أسراب النورس تحلق فوق السلسلة، تدله على مكان السمك اتجه إليها.

عسكري السواحل يذرع الرصيف الحجري في خطوات مرهقة. بندقيته على كتفه، ونظراته موزعة بين البحر ولسان السلسلة وطريق الكورنيش.

تنبه إلى تحرك الفئران في المكعبات الأسمنتية، أسفل السور. لمح فأرًا ينفذ بسرعة من الطحالب الخضراء المحيطة بأسفل المكعبات. يدخل في الشقوق، صنعها تفتت الأسمنت اللاصق لقطع الحجارة الصغيرة، على امتداد الشاطئ. يدرك الفارق بين الأصوات التي تحدثها، وأصوات تحرك القواقع والأصداف تحت الصخور.

آثر حياة التقشف والزاد والسياحة. خلَّى عياله، وساح في الأرض المخالطة، حبس نفسه عن المخالطة، واجتنب التبعات، وواصل الليل والنهار بالعبادة، والاشتغال بحفظ الأوقات، وملازمة الأوراد، وأداء الصلوات في أوقاتها. يطيل الدعاء من صلاة الفجر إلى طلوع الشمس، ومن العصر إلى الغروب. هذه الأوقات هي الأنسب للاستجابة للدعاء. أضاف إلى عزلته: الصمت، والجوع، والسهر. يبتغي رضاء الله في كل خطوة، وكل خطرة، وكل نفس. غاب عن بيته بالأيام. لم يعد يذهب إلى الخلاء، بالقرب من مساكن السواحل، ولا إلى قهوة الزردوني، أو حمام الأنفوشي. لم يعد يحمل شروات يبيعها — مثل زمان — في الرمل وطالع. ترك لقدميه مقوده، تذهبان به إلى ميدان أبو العباس، يصلي ويقرأ الفاتحة للسلطان، تطوفان على الجوامع والأولياء. يقرصه الجوع، فيميل على من يتذكره، يأكل أو يأخذ نقودًا. يمضي — دون هدف — تلازمه الأوراد والأذكار. من يتوجه إلى الله وهم الرزق في قلبه، لا يفلح. السائر في طريق الحقيقة يشغله علم الله عن جميع الأسباب. حتى عن رزق عياله، فهو ميت حي، مودع وإن انتظمت أنفاسه، مخفي رغم مخالطة الناس، صائر إلى النور فلا تشقيه الظلمات المتكاثفة حوله. أخرج أهل الدنيا من قلبه، وملأه بمحبة الله. ينام حيث يغلبه النوم، في قهوة مخيمخ، أو في صحن مسجد المسيري. ربما تكوَّم على نفسه في الحديقة المجاورة لمستشفى الملكة نازلي. دعا الله أن ينزع شهوة النساء من نفسه، فاستجاب الله لدعائه. انتصر على رغبات جسده، وشهواته، وقطع رجاءه

بدنيا الغاوين. استيقظت عين قلبه، فنامت عين جسمه. لم يعد يطأ أم العيال، ولا يدعوها إلى حجرته. ارتفع بنفسه عن رق الشهوات. نفض عنه الغفلة، فلا تظفر به شهوة جسده. تخلص من وساخة الجسد، ليتصل بما هو نقي، ويدرك نور الحقيقة الصافي، الذي لا يقترب منه العكر. ذوت كل متعة، إلا متعة التوجه إلى الله. حين ينعم القلب بمحبوبه، لا بد أن يرفض وصال غيره. استمد وجوده من القرب، وأنسه من المشاهدة، ودخل في عين اللذة بذكر الله. الأرائك منصوبة على ضفاف الأنهار، والأنهار مطردة باللبن والعسل، والرجل من أهل الجنة يعانق الحوراء سبعين سنة، يجامعها بقوة سبعين رجلًا، لا يداخله ملل، ولا تمله، كلما أتاها وجدها بكرًا، وكلما عاد إليها عادت إليه شهوته. المرأة من نساء أهل الجنة لو أنها طلعت على الأرض، لأضاءت، وملأت ما بينهما ريحًا، وخمارها على رأسها خير من الدنيا وما فيها. يقال لها: أتحبين أن نريك زوجك في أهل الدنيا؟ تقول: نعم. يكشف لها عن الأستار، وتفتح الأبواب بينها وبينه. تراه، وتعرفه. تستبطئ قدومه، وتشتاق إليه شوق المرأة في الدنيا إلى زوجها الغائب. إذا أغضبته زوجته، يشق عليها الأمر. تقول موبخة: دعيه من شرِّك، إنما هو عندك دخيل يوشك أن يفارقك إلينا. يحيا الخلود، فلا يشيخ، ولا يمرض، ولا يخاف ولا يحزن.

ذهلت أم الأولاد لما وصلت إليه حاله. ترددت على المشايخ الواصلين. لجأت إلى الشيخ كراوية خادم سيدي مكين الدين. صنع لها رقية، وطلب منها أن تأتي بقطعة من عظام ميت، وشعيرات من رأسه. تدفنها — في الليلة نفسها — داخل مقبرة مهجورة. حرصت على أن تخلع ثوبها الأسود — عقب العشاء — داخل البيت، ولا تنظر إلى المرآة. الجان يتقمصون الأردية السوداء، ويختبئون خلف المرآة. وضعت على باب البيت حذاءً صغيرًا قديمًا، لإلهاء النظرة الحاسدة، المصحوبة بشهقة الإعجاب. قلبت الأواني والهون والطناجر والمواعين المفتوحة على أفواهها، حتى لا يدخلها الشر. ذبحت ديكًا أحمر اللون. دفنته في مدخل البيت، ووضعت حبة البركة في فنجان القهوة، ليعود إليها محبًّا، كما كان.

حين شكا الراكشي من مغص في بطنه، خمنت السبب، وسكتت. كانت قد مزجت خصلة من شعر رأسها بقطعة عجين. خبرتها فطيرة، وقدمتها إليه، فلا ينصرف بجسمه، أو بفكره، عنها.

لما دار بعصاه في يده، يريد أن يضرب بها ولدًا شتمه، تعثر في نفسه، وسقط على الأرض. التف الأولاد فوقه، يضربونه بأيديهم وأقدامهم، وهو يشتم ويصرخ ويستغيث. توقف الأولاد، وجروا لصيحة من أول الشارع.

ساعده أمين عزب على القيام. حدجه بنظرة غاضبة: وآخرتها يا علي؟

أخفض رأسه، وهمس: أريد طعامًا.

هتف أمين عزب: أولادك أيضًا يريدونه.

وزغده في كتفه: يا راكشي ... لن يدخل الجنة من يترك عياله!

ثم بلهجة متسائلة: ما ذنب أهل أم أولادك لينفقوا عليهم بدلًا منك.

ورمقه بنظرة مستاءة: تدعي الصوفية ... والصوفية لهم مهنهم.

ثم في نبرة حزينة: عبادة الله يا رجل لا تمنع من تحصيل الرزق.

وربت صدره بيده: لي أشغالي التي لا يعطلها أني أقضي معظم وقتي في خدمة العبادة!

– أنا صياد.

شخط فيه: تصطاد الهواء؟ ... شف رزقك يا رجل.

فاجأ أم العيال — والجميع — عندما أتى بالبوصة المركونة في الصندرة. حملها، وحصل على الطعم والسنارة من سيد الفران. هو لا يكره الصيد. لا يكره العودة إلى البيت بما ينتظره الأولاد. إنهم يده المريضة التي تؤلمه، وإن تيقن أن انشغال المرء عن ربه حرام، فلا ينبغي أن يكون في الذهن سوى الذات العلية.

قال سيد الفران: أنت أول صياد أبيع له بالسلف.

وعلا صوته متضاحكًا: فرحتي بعودتك إلى البحر أهم من الفلوس.

هز رأسه، ولم يدخل مع سيد في كلام. قطع الميدان إلى الناحية المقابلة. جعل يساره إلى الكورنيش، ومضى. لم يأبه بالنظرات الداهشة، ولا التفت إليها. ظل في سيره إلى السلسلة.

أهمل نظرة عسكري السواحل المستنكرة.

قال الجد السخاوي: منطقة السلسلة يقول فيها السمك: تعالَ اصطدني!

ثم وهو يتلهى بمداعبة أصابع قدمه: السمك هناك — لكثرته — يقف بالدور أمام سنارات الصيادين!

قال قاسم الغرياني في تأكيد: لا يفوق تكاثر النسل بين أبناء الأنفوشي إلا سمك السلسلة!

المشكلة لم تعد في قلة الأسماك. الأجيال الجديدة من السمك فاهمة، تتغير مثل الناس تمامًا. تعرف أن هذه بوصة، وأنها تدلت للصيد. تعرف أيضًا كيف تختبئ بجانب الصخور. لا بد من محاولة أخرى حتى يخدع السمكة، فتلتقط الطعم.

قال العسكري: معك رخصة؟

قال الراكشي: طبعًا.

وأخرج من جيبه ورقة مطوية، متهرئة.

قال العسكري: هل في رخصتك إذن بالصيد في الممنوع؟

وهو يشيح بيده: كنا نصطاد في أي مكان دون استئذان أو سؤال.

قال العسكري: الآن ... حُددت المناطق ... لا بد من رخصة ووثائق لدخول المناطق الممنوعة.

ثم وهو يعدل البندقية على كتفه: احمد الله ... حتى نهاية الحرب لم تكن تستطيع الصيد في الكورنيش كله.

– غارت الحرب ... لماذا المناطق الممنوعة إذن؟!

تأمل العسكري ذقنه الكثة: أوامر يا سيدنا.

سار خطوات في اتجاه بحري. لمح — بزاوية عينه — اطمئنان العسكري، فعاد.

أدار البوصة دورة كاملة من فوق رأسه، ثم قذف السنارة في الماء. غاصت مخلفة وراءها دوائر متتالية، واصلت الاتساع حتى غابت تمامًا. ظل السلك في الماء لا يكاد يرى.

كتم صرخة، لما ثنى جسمه، فرارًا من عيني العسكري. اصطدمت البوصة بصدره. تزحلق، وتدحرج على قطع الحجارة البيضاء. تلقفه الفراغ، وهوى به في الماء.

خمن أن العسكري ربما لم يرَه. أغلق فمه، وسد أنفه بأصابعه، وظل ساكنًا.

تنبه العسكري لارتطام الجسم بالماء. توقف، وحدق: الطرطشات تعالت على قطع الحجارة، وضاقت الدوائر المتسعة في الماء. فرد ما بين ساقيه، وارتكز بقبضته على البندقية، وانتظر. حتى أمهر الغواصين لا بد لن يطفو، وانتظر.

قال العسكري: شايفك.

أيقن أنه وقع في الفخ. لو أن شعر رأسه طفا فوق الماء، فلن يفلت. خذله ارتقاء الصخور، فاجتذبته المياه إلى أسفل. سقط دون تحوط، وظلت كلمة العسكري بلا انتهاء. القبض عليه في منطقة محظورة يعني البيات في الحبس، البعد عن البيت. لم يحمل البوصة إلا بعد أن هددت الشروخ بالانهيار. ضاق تنفسه، فتسلل الماء إلى أنفه وفمه. شهق، وهم بالتنفس من فوق الماء ... لكن صوت العسكري واصل التحذير.

طال كتمه لنفسه. ظل فمه مغلقًا، وأصبعاه يقبضان على أنفه. أحس أنه يختنق، والمياه ثقيلة ثقيلة، أقوى من قدرته على الطفو، فهي تسحبه إلى أسفل، تشده إلى القاع.

شمل جسمه تعب، وانفتح فمه بلا إرادة، وتهدلت يداه، وتسلل الماء إليه بخدر غريب، وتماوجت المرئيات قاسية، جميلة. اجتذبه قرار الماء. لامست قدماه الطحالب

اللزجة والأعشاب في القاع. قوة غامضة مجهولة، تأخذه إلى أسفل، تحتضنه، تحنو عليه. صاد من أنهار الجنة أسماكًا لا تجري في بحر كما في الدنيا، من سكر ولوز وعسل. يتمناه فيكون، يمد يده فيواتيه، ويأكله فتسري في البدن نشوة. الأنهار خمر، والقطرة من السمك تسقط في البحر، يصير حلوًا، عذبًا، له رائحة الورود.

أبدت المرأة فزعها لما رأته ينثر الماء من يديه بعد الوضوء: لا تفعل ذلك ... أنت تنثر حسن طالعك طول اليوم! ... وقال عبد الوهاب مرزوق في قهوة الزردوني: ربما تحجب سحابة صغيرة، عابرة، شمسًا كاملة! ... وقال الشيخ يوسف بدوي: ربما الابتلاء طريقك للوصول إلى مراتب الاستحقاق! وطالت الوقفة حتى يأتي السمان. وتساءل: امتلك الحاج قنديل البحر ... فهل يمتلك البر أيضًا؟ ... وقال الحاج قنديل: أصبح للجربوع صوت يرفعه! ... وبدت المرأة مسكينة، مهمومة، وبدت شيطانًا ينغص عليه حياته. وقال: لن أظل العمر كله تحت قدمي الحاج قنديل. وقال: لا أحلم بالنعيم ... لكن عشرين عامًا في البحر، تعطيني الحق في أن أكون حر نفسي. وقال الشيخ: إن الاستغاثة لا تكون إلا بالله تعالى، والتطهير بداية الطريق إلى الله. بداية المجاهدات والمقامات والأحوال ومعرفة الله سبحانه. وقال الشيخ: إذا ترقيت في مقامات الإيمان فستصل بعون الله إلى مقام الإحسان، فتعبد الله كأنك تراه.

دنيا واسعة، تفيض بلطائف الحكمة، وحقائق المحبة، وأنوار العلم. المساجد والحصر والأبسطة والمنابر والأعمدة والقباب والأضرحة والأهلة والمصاحف والمسابح والبخور والحضرة وحلقات الذكر وإيقاع الطبول وأصوات المنشدين والصمت والانزواء والانفراد والتواجد والشطح والهزات العنيفة والتهجد وإقامة الصلاة وقراءة الأوراد وتلاوة القرآن والتأمل في الملكوت وأهازيج السحر: تسابيح المنشدين والمؤذنين، ومشاهد الصعق والوجد والبكاء والنحيب وإلقاء العمائم ونزع الثياب والزحام وأصوات الألوف من أولياء الله الصالحين، وأصوات الملايين من طالبي البرء والشفاعة والستر، ورياضات النسك والصوم والسهر والمفاتحة والمواجهة والمجالسة والمحادثة والمشاهدة والمطالعة والمحبة والشوق والأنس والرجاء والتوكل والقرب وموارد القلوب، والتجليات تأتي وتذهب، والروح تشف، تتخفف من قيود البدن: الوحي والرؤى والملائكة والكرامات والمعجزات والصفات واللوح والقلم والحب والخمر والصبابة والعشق والندامى والشوق إلى يوم اللقاء.

حمي الوطيس، وبلغت حركة الذكر غايتها من القوة والسيطرة على الذاكرين، وعلت صيحات الوجد، وصرخات التعبير عن الأحوال، وصوت العسكري كالصدى: شفتك، والأطياف تتراءى من بعد، والأشعة المضيئة تخترق المرئيات، وتضيء نفسه.

تلقى فيض التجليات على قلبه. نزلت أمطار المدد على أرض النفوس الطيبة، والقلوب المطهرة، والأرواح المضيئة، والأسرار المقدسة. غسلت أوساخ الهم، وتمت المصافاة، وحلت المناجاة، وفتح باب القدرة. صعد سماءً بعد سماء. رنا إلى عجائب الله وآياته، امتلأ بالأنوار والمواهب، تقلب في أحوال الحب، تطلع إلى سحائب الرحمة، وأرض النفوس الطيبة، وأودية القلوب المؤمنة، وخلجان الأرواح المطهرة، والألفاظ تهب معانيها: الذوق والوجد والقبض والبسط والهيبة والأنس والغيبة والحضور والسكر والمحو والفناء والبقاء والنورانية والرؤى والصفاء والأغنيات الجميلة الغائبة المصدر، والنسائم هبت على المزامير المعلقة في جريد النخيل، فتعالت نغمات ليست من دنيا البشر.

اتسع ضيق الأكوان، وحصلت أنوار المواجهة، وصارت الروح سرًّا من أسرار الله، وأقبل القلب على رؤية مولاه، لا ظلمة، ونور العرش دائم في الليل والنهار.

سكنت الحركة، وتمطى الهدوء.

جسر إلى الحبيب

قال أبو الحسن الشاذلي: «وتصحيح العبودية، بملازمة الفقر. والضعف والذل إلى الله تعالى، وأضدادها أوصاف الربوبية ... فمالك ولها؟ ... فلازم أوصافك. وتعلق بأوصافه، وقل من بساط الفقر الحقيقي: يا غني مَن للفقير سواك؟ ومن بساط الضعف الحقيقي: يا قوي من للضعيف سواك؟ ومن بساط العجز الحقيقي: يا قادر من للعاجز سواك؟ ومن بساط الذل الحقيقي: يا عزيز من للذليل سواك؟ ... تجد الإجابة كأنها طوع يدك.»

طلب الحبيب من الحبيب رضاه ومنى الحبيب من الحبيب لقاه
أبدًا يلاحظه بعيني قلبه والقلب يعرف ربه ويراه
يرضى الحبيب من الحبيب بقربه دون العباد، فما يريد سواه

فوجئ حمادة بك بطرقات قاسم الغرياني على باب البيت في الصباح الباكر. طفت جثة علي الراكشي — بعد أيام — في خليج أبو قير. كانت بطنه مبقورة، والسمك أكل أحشاءها. تعرَّف عليه محمد كسبة من المصحف الفضي المتدلي من عنقه. صرخ: علي!

كان اختفاء الراكشي شاغل الجميع.

في اليوم الثالث لغيابه، سألت أم الأولاد في الحلقة. يجوب الشوارع، ويتردد على الجوامع والزوايا والقهاوي. ربما أراح جسمه في الحديقة المقابلة لمستشفى الملكة نازلي، أو في حديقة سراي رأس التين، أو في مسجد المسيري، فلا ينام أكثر من ليلتين خارج البيت.

غاب محمد الراكشي عن المدرسة. توزع مع الرجال في الشوارع والمساجد والكورنيش وورش المراكب والقهاوي ومستشفى رأس التين وحديقة القصر ونقطة الأنفوشي وقسم الجمرك.

قال حمودة هلول: آخر مرة رأيته فيها، كان يحمل البوصة والغلق قرب السلسلة.

قال قاسم الغرياني: أذهب يوسف بدوي عقله ... وتركه!

بذل حمادة بك مساعيه، فنقلت الجثة — بعد تشريحها — إلى بيت الراكشي.

دفع أمين عزب ثمن الكفن. تناهى — ساعة غسله — من مكان قريب، أذان وقت من أوقات الصلاة. وحين وقع القطن عن سوأته، رفع يده اليسرى، ووضعها على السوأة. قرأ المغسِّل: ﴿نقلبهم ذات اليمين وذات الشمال﴾، فانقلب الراكشي معه يمينًا وشمالًا.

هرع الناس إلى الجنازة دون أن يخبرهم أحد. هاتف خاطب أسماعهم. مات علي الراكشي ولي الله، فاذهبوا للصلاة عليه، ودفنه. أضاءت الدكاكين أنوارها في ميدان الأئمة والموازيني وشارع الميدان. تقدم الجنازة طلبة من المعهد الديني. يرتدون الجبة والكاكولا، وينشدون — بنغمة موسيقية — بردة البوصيري. كان غالبية طلبة المعهد يعرفونه بالاسم. زار زكي تعلب. شرب أدوار الشاي، وشارك في الحفظ والمناقشات. دخل في صداقات. سهر إلى صلاة الفجر. أظلت الجميع طيور، ليست مما اعتاد الناس رؤيتها. ليست عصافير ولا سمان ولا نورس ولا حمام ولا يمام. إنما هي طيور صغيرة، ملونة بما يضوي، كأنه قطع الشمس.

تنبه المشيعون من أهل بحري لمكانة صاحب الجنازة. السؤال الذي حركه مرأى الجمع المتدافع: من الميت؟ يجيبون عليه: هذا ولي فاضل! يذوب الناس في الجنازة. يضيفون إلى اتساعها وعمقها. يلتمسون البركة والمدد.

أطال النعش التوقف أمام جامع المرسي. في الناحية القريبة من المقام. أحفق الرجال في تحريك النعش، أو أقدامهم. تقدم آخرون للمساعدة ... لكن النعش لم يغادر المكان. علت التهليلات والتكبيرات. المريد يودع شيخه، يستأذنه في المغادرة. السلطان يبذل له نصحه وتوجيهه، وما يجب قوله عندما يحاسبه الملكان.

– بالإذن يا سلطان!

كرر الرجال ما تعالى به صوت محمد صبرة. أتبعوه بقراءة الفاتحة، وقل هو الله أحد، وقل أعوذ برب الفلق، والشهادتين، وإنا لله وإنا إليه راجعون. تحركت — بالكاد — أقدام الرجال، وتحرك النعش. علت التكبيرات والتهليلات. سمعها عساكر الحرس الملكي في سراي رأس التين.

كادت قيامة الناس تقوم لما انتابهم من عجب وهيبة وخوف ودهشة. ما حدث خارقة ولا خوارق الأولياء. امتدت الأيدي إلى النعش تحاول ملامسته.

انتوى قاسم الغرياني — إذا أبطأ النعش أمام أضرحة الأئمة الاثني عشر — أن يدعو لإنزال جسد الراكشي إلى جانب أولياء الله ... لكن النعش واصل طريقه، وإن اهتز — لمرات — في أيدي الرجال. ربما ألقى السلام على الأولياء، أو دعا لهم.

الموت جسر، يصل الحبيب بالحبيب.

خرج الجد السخاوي من الجنازة على ناصية الموازيني ورأس التين. جلس على الرصيف، قبالة مكتبة النن. لوح بيده، وقال في صوت متعب: مع السلامة يا علي!

واصلت الجنازة سيرها في شارع الميدان. يزيد حجمها بالسائلين عن الميت. علي الراكشي، الصياد، بائع السمك، مريد الشيخ يوسف بدوي.

حين وصلت الجنازة إلى جامع الشيخ إبراهيم، كان العشرات قد صاروا مئات. وقف للصلاة عليه خارج الجامع أضعاف من وقفوا داخله.

ظل المشيعون على أعدادهم حتى ميدان عمر باشا، ومنه إلى ميدان النيل، ثم مقابر العامود. تزاحموا في الشارع الضيق، ومنه إلى شوارع أخرى ضيقة. سبقوا النعش، وحملوه، وأحاطوا به، وتبعوه.

لما قاربت بداية الجنازة آخر شارع الباب الأخضر، كانت نهايتها في شارع الميدان.

ولي الله كلمة السر التي اجتذبت المئات. التدافع والزحام والعرق واللهاث والدعوات والتكبيرات والصرخات والخوف من التعثر.

علت الزغاريد، وارتفعت الأصوات منغمة: يا دايم هو الدايم ولا دايم غير الله!

اندفع جابر برغوت ناحية النعش. اخترق الزحام الصاخب. مسح على النعش بأطراف أصابعه: كراماتك محفوظة يا شيخ علي!

تجاوزته الجنازة، في اللحظة التالية. دفعه الزحام خارج بحر البشر. جلس على الرصيف — أمام سور المقابر — يتأمل تمزق ملابسه.

دخلت الجنازة من باب مقابر العامود المجاور لمستشفى دار إسماعيل. تعالى صوت علي الراكشي من داخل النعش، يسلم على أصحاب القبور: السلام عليكم أهل دار قوم مؤمنين. ردوا السلام عليه بصوت سمعه مشيعوه.

ظل النعش ينتقل من باب حوش إلى باب آخر. يتوقف، ثم يواصل السير. لا يقوى حاملوه على فعل شيء، يجذبهم غصبًا عن أنفسهم، يستغرق توقفه لحظات، تطول

وتقصر، أمام كل ضريح، ثم يسير بالناس إلى غيره. وحين أرادوا الدخول في حوش عائلة الراكشي، ثقل عليهم النعش، ولم يطاوعهم. تكاثروا عليه، يشدونه داخل الحوش، وهو يغلبهم. وقعوا على الأرض دون أن يغادر مكانه.

حاول الرجال أن يضللوا الراكشي. لفوا بالنعش مرات حتى لا يعرف إلى أين يتجهون، ثم تمضي الجنازة ... لكن النعش رفض التحرك إلى الأمام ... ثم اتجه — من تلقاء نفسه — ناحية حوش مهجور، تناثر فيه شجيرات صبار وقطع حجارة.

قال يوسف بدوي: اللهم اغفر له وارحمه وعافه واعفُ عنه وأكرم نزله، وأوسع مدخله، واغسله بالماء والثلج، ونقه من الخطايا، كما نقيت الثوب الأبيض من الدنس، وأبدله دارًا خيرًا من داره، وأهلًا خيرًا من أهله، وزوجًا خيرًا من زوجه، وأدخله الجنة، وأعذه من عذاب القبر، وعذاب النار.

واتجه بالقول إلى علي الراكشي: اذكر العهد الذي خرجت عليه من الدنيا: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وأنك رضيت بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًّا، وبالقرآن إمامًا، وبالكعبة قبلة، وبالمؤمنين إخوانًا، وأن الجنة حق، وأن النار حق، وأن البعث حق، وأن الساعة آتية لاريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور ... فإن منكرًا ونكيرًا يتأخر كل واحد منهما، ويقول: انطلق بنا ... ما يقعدنا عند هذا، وقد لُقن حجته، ويكون رسول الله حجيجه دونهما.

دهم الترىي ارتباك للصوت الصاعد من داخل المقبرة: غادروا المكان، واتركوني مع رسل الله.

طمأنته لمة الناس، وتهليلاتهم، وتكبيراتهم.

قال علي الراكشي: ﴿رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾.

وقال في صوت متأثر: ليت الناس يعلمون بما غفر الله لي، وجعلني من المكرمين.

ورتل الصوت الرائق: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾.

وعلا صوت الراكشي بالآية: ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾.

وتلا: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

وتصاعد صوت هاتف من داخل القبر: أدخلوا الحبيب إلى الحبيب.

وسُمعت قراءة، لا يوجد مثل جمالها في أصوات القراء والمؤذنين ... حين بدأ الشيخ في تلقين الراكشي ما يجب قوله، إذا سأله الملكان، سبق الراكشي في صوته الرائق النبرات: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله. عشت مؤمنًا، ومت مؤمنًا. الله تعالى ربي، ومحمد نبيِّ، والإسلام ديني، ألم تعلموا أني أعلم ما لا تعلمون؟

الوصول إلى مقام المشاهدة، لا يكون إلا بعد المفارقة من هذا العالم. الفناء في الكلية، سواد الوجه في الدارين، لا وجود ظاهرًا وباطنًا، دنيا وآخرة. الفقر الحقيقي، العودة إلى العدم الأصلي. لن يسأله الله عن زكاة ولا عن حج ولا صدقة ولا صلة رحم ولا مواساة. تجلت الحقيقة بالموت. اخترق البرزخ الهائل بين الأجسام الكثيفة، وعالم الأرواح المطهرة. تألقت وجهة جميع العابدين. بلغ درجة النفس المطمئنة، سدرة المنتهى، البرزخية الكبرى. نهاية مراتب الأسمائية التي لا تعلوها مرتبة. جاوز قناطر النار، واستوجب الجنة.


هنداوي